قمارش
رواية
محمود ذكي
عصير الكتب
للنشر و التوزيع

فهرست

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الكتـــاب : قمـــارش
المـؤلـف : محمود زكي
تـدقيق لغـوي: عبدالله أسامة
تصميم الغلاف : يوسف زكي
تنسيـق داخلي : سمـر محمد
الطبعة الأولى: ينـايـر 2018
رقـم الإيـداع : 2017/26950
978-977-6541-43-6 :I.S.B.N

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

رواية

فمارنن

محمود زكي

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

(فما كل من حط الرحال بمخفق..

ولا كل من شد الرحال بكاسب)

جلال الدين الرومي

(١٢٠٧-١٢٧٣م)

إهداء

إلى من افترشوا الأرض

والتحفوا السماء..

باحثين عن وطن لم يسعفهم،

وعدل لم ينصفهم،

وأمل لم يناجيكم..

فأنتم الأحق بهذا الكتاب.

غرناطة

مرت الدقائق بل العشرات منها، إنها أوقات لا تنتهي على مصطبة آلمت مؤخرته من قسوة قاعدتها وكثرة مخادشها، لم يعد بمقدرته حساب عدد دقائق التأخير التي طالته وهو في انتظار صديق عمره، الذي لم يره منذ أشهر بعد النكسة التي ضربت البلاد والعباد، لم تكن تلك عادته ولم يعاهده على خُلق كهذا، ظل قلقه يداعب عقله، يسأل نفسه:

عرفته بالدقة والأصالة، لم يتخلف عن ميعاد قط، هل أصابه مكروه، هل آذاه أحد في الطريق، هل أصابته لعنة المرض أو ربما تغير، فلماذا يبقى هو على حاله، ولم يبقَ من الحال أي مما كان.

تغيرت الطباع وتبدلت الأحوال، تناثر الخلق وتشردت القلوب عن الأبدان قبل تشرد أصحابها من بيوتهم.

لم يقطع الانتظار، الذي جعله شاردًا لا يدرك ما يحدث حوله، سوى نداء مصحوب بتحية جاء من أحد المارة الذي لم يلاحظ هويته:

- السلام عليك يا إشبيلي.

نظر حوله مفزوعًا، وكأن أحدًا قد أيقظه من نومه للتو، باحثًا عن المنادي، لكنه سرعان ما اختفى ولم يبقَ سوى صدى صوت كلماته. ضحك سهيل بن تاج الدين الملقب بالإشبيلي بشدة دون سبب، ولكنه ضحك لمجرد أنه سمع اسمه.

«الإشبيلي» دائمًا ما تضحكه إن نودي بها، تلك الكنية التي حملتها عائلته جيلًا بعد جيل منذ أن نزحت هربًا بعد سقوط أعظم الممالك، مملكة إشبيلية الساقطة في دروب النسيان منذ أكثر من مائتي عام، هاربين إلى غرناطة بعد أن اجتاحها أبناء الصليب إثر نجاح حصارهم للمدينة، نشروا الجوع وقوضوا الحياة، حتى محاولات العلماء لم تفلح في بثِّ الروح وإعادة الثقة إلى النفوس الواهنة والأبدان الناحلة أمام الحرمان.

ولم يجد زعماء إشبيلية وأهلها مفرًّا من التسليم، مر أكثر من مائتي عام، رحل عن عالمنا كل من عرفها وسكن فيها، ولم يعد يتبقى سوى ما يتوارثه أبناء إشبيلية من حكايات عن تلك المدينة، نهر الوادي الكبير في قلب المدينة ومسجدها المهيب بمئذنته العملاقة التي يراها القادم من آلاف الأمتار، كل ذلك رحل ولم يتبقَّ منه سوى كنية الأسرة ولقبها.

لم يستطع سهيل السيطرة على مخزون تلك الذكريات المؤلمة في عقله، كلما كاد يطفئها، التهبت من جديد، ظلت إشبيلية خيالًا تتناقله الأجيال، ميراثًا

مسروقًا، ودينًا يفَترض إعادته لاصحابه.

كلما مر الوقت دون حضور صديقه، مرت الأحزان تؤانس وحشته، تنهش في عقله، يسعى للهروب منها، لكنها تلاحقه.

تنتفض الذكريات في عقله من جديد يتذكر تلك الكلمات التي تلاها عليه أبوه، مثلما تلاها جده على أبيه:

«علموا أولادكم أن لكم ملُكًا لن ينجلي أبدًا، وإرثًا ضائعًا سيعود يومًا».

يفكر سهيل في تلك الكلمات:

حمَّلني أبي النصيحة نفسها لأحملها لأبنائي، ولكن كيف تنصحونني بنصيحة بائسة كتلك، بعد أن مرت عقود ولم تعد إشبيلية، بقيت فقط إرثًا ضائعًا تتوارثه الأجيال، بل أصبح للقرطبي إرث، وللطليطلي إرث، ولأبناء لشبونة إرث، ولأجيال بلنسية إرث، ولأحفاد سرقسطة إرث.

أصبحنا جميعًا نتشارك في الدَّين بعد أن كنا نتشارك في الأرض، كلنا نحمل دَينًا واحدًا، لا أحد منا قادر على سداده، ولا نجد من يعاوننا في رفع همتنا المذلولة، لقد ذاب المسلمون بين أحضان حكام الصليب، وتهدمت المآذن، وتآكلت جدران العرب، وبيوت البربر، واختفت حكايات نبينا وسيرته العطرة.

يحاول سهيل أن يتوقف عن التفكير، يسيطر على خلايا عقله المتوهجة بعد أن كادت تفتك بعينيه قبل عقله، ولكن بلا جدوى، يحاول مجددًا أن يلهي عقله بشيء آخر. فيلتقط بعينيه الزائغتين المصبوغتين باللون الأسود، حركة البائعين والسائرين بين أحضان حارات حي البشرات، أجمل أحياء غرناطة، ها هي تلك السيدة ترتدي ملفها الصوفي المزين بأجمل الألوان البديعة وفي صحبتها ابنتها الصغيرة تحمل كتيبًا ومحبرة، وهناك يقف ذلك الرجل صاحب القامة الطويلة والملامح البربرية المغربية القادمة من بلاد فاس، أبيض كلون ثلج الشتاء، وشعره أسود ناعم كرمال صحراء، يلتقط قلناسه الساقط من رأسه بفعل الرياح الباردة القادمة من شمال مملكة البرتغال... ياه البرتغال لطالما حكى عنها أجداد أجدادنا، إننا كنا نحكم تلك البلاد الساحلية صاحبة الجبال المتسلسلة والقمم العالية.

يسعى سهيل من جديد إلى السيطرة على حبل أفكاره الحزينة التي عادت تسيطر على المشهد من جديد. قطع صوت بائع الرمان الجهوري شرود سهيل، ذلك الصوت الذي يعلمه كل من يقطن بغرناطة من البشرات إلى البازيين، إنه شيخنا الجليل الحاج إبراهيم القماش، الذي ظلت غرناطة وما حولها من بلدان وقرى يتناقلون حكايته.

باع ارضه، تلك الجنة التي تحدها اشجار الزيتون البكر جنوبًا، وافرع النخيل المنقولة من ممالك المغرب الأقصى شمالًا، يحتوي قلبها على مزارع الكروم وأنضج ما خلقه الله من ثمرات الرمان، باع الحاج إبراهيم منبع رزقه الوحيد لهدف واحد، وغاية فريدة، زيارة بيت الله الحرام، أن ينعم بإتمام أركان الإسلام الخمسة.

البعض احتفى بورع قلبه العائم في بحر الإيمان، وآخرون لاموا عليه ضعف حيلته، وجنون عقله بعد أن أصاب أهله بفقر مدقع، حولته من رجل كريم من أعيان غرناطة لبائع جائل لعصير الرمان، كل ذلك في مقابل رحلة طويلة عمرها أكثر من عام، اجتاز فيها أراضي البربر والعرب، مر بمصر والشام حتى اجتاز الحجاز بصلابة صحرائها وقسوة مناخها. كم أحب الحاج إبراهيم، وهو يحكي لنا عن تجربته الفريدة التي طالما أكد لنا أنها تساوي أكثر من أرضه المباعة، بل يكفيك أن ترى بريق عينيه، وعلو جبهته فخرًا، عندما يسمع من يناديه بلقبه المفضل «حاج»، هذا اللقب العظيم الذي أصبح حاملوه يعدون على أصابع اليد في بلادنا الآن.

توقف سهيل فجأة عن التفكير، بعدما لاحت صورة صديقه المنتظر أويس الناسطوري أمام عينيه، كان يرقص رقصته الماكرة المعتادة التي طالما فعلها كالأطفال، للتملص من أخطائه.

أظهرت رقصاته خفة حركته ونحافة جسده، لكنها تناقضت مع ملامح وجهه الغليظة وكثافة لحيته وشاربه التي تخفي وراءها ملامح وجه طفولي، وبشرة بيضاء عاجية وعينين زرقاوين.

صاح سهيل غاضبًا بأقصى ما تتحمله أحباله الصوتية من قوة:

- ها قد جئت يا ابن فاطمة الحالمة!

أجاب أويس بابتسامة بلهاء محاولًا التملص من جريمته:

- عذرًا يا صديقي عن التأخير ورب الكعبة، كدت أفتك بأحد التجار الذي ظل يساومني على بضاعتي المخزنة منذ أشهر، ثم بدأ يساومني على كل شيء وأي شيء، يريد أخذ بضاعتي بخمس ثمنها، وعباءتي، وحتى حذائي أراد شراءه! حتى إنني في النهاية قلت له ألا تريد أن تسبِّح بمسبحتي أيضًا، فرد عليَّ ضاحكًا، أنا يهودي، ولكن يمكنني أن آخذها وأبيعها لأصدقائي!

لم يتمالك سهيل كتمان ضحكاته، رغم محاولته منذ قدوم أويس أن يبدو صارمًا، ولكن أداء أويس الفكاهي وحركة قدميه مع خفة يديه، كانت دائمًا قادرة على تبديد أي غضب تجاهه.

نظر سهيل وقد برز ناباه من الضحك:

- أنت تعرفهم، فهل على الأرض من هو أمهر من اليهود في التجارة، حتى في المحن تجدهم يشترون ويبيعون، لو كنت مكانك لتركته يأخذ ما يريد، فهو لن ينعم بتلك الحياة كثيرًا، فقد سمعت منذ أيام أن إيزابيلا -لعنها الله- تلك الملكة القشتالية الشمطاء، قد استجابت إلى قرار بابا روما بترحيل كل من بقي على أراضي قشتالة من يهود، بداية من بلنسية وسرقسطة شرقًا وحتى إشبيلية وما وراء نهر وادي ليكه غربًا، مساكين، تخيل أن اليوم قد جاء كي يترحم اليهود على أيام حكم المسلمين ويتمنوا عودتها!

أجاب أويس «كلنا مساكين»، قبل أن يقرر إنهاء هذا الحوار الذي خرج عن مجراه، ككل الحوارات التي تبدأ فكاهية، ثم تنتهي بالبكاء والعويل منذ أن بدأت ممالك المسلمين تتساقط.

صاح أويس بصوت جعل المارة ينظرون إليه بذهول وضيق، بعد أن كسر هدوءهم وأزعج صمتهم:

- يااااا صفوان.

وضع سهيل كفه على فم أويس وقال:

- ماذا تفعل يا أخي، لقد فضحتنا، لا تقلق لقد استغللت وقتي الطويل في انتظارك، واتفقت مع صفوان على إعداد جناحنا المفضل في الحمَّام، تلييف وتكبيس وتدبيس، اهدأ وصفوان سينادي علينا قريبًا.

أجاب أويس في سعادة بالغة:

- أسعد أيامي تكون دائمًا داخل حمَّام البركة، فحقًّا لا يمكنك أن تمر من غرناطة ولا تمر على أشهر حمَّامات المدينة، بل أشهر حمَّامات المدن أجمعها.

خرج صفوان، رجل قصير خمسيني، تساقطت أغلب خصلات شعره ولم يبقَ ما يؤنس قبة رأسه سوى القليل، ورغم نحافة قدميه وذراعيه، فإنه امتلك بطنًا كبيرًا نصف دائري كوسادة من ريش النعام، لا يخفيه سوى جلبابه القطني القصير، زي الحمَّام الرسمي، تتساقط منه قطرات المياه بفعل ملابسه المبللة.

سمع صفوان الصديقين يمجدان في حمَّامه الذي ظل يخدم فيه قرابة العشرين عامًا. يحب صفوان تلك اللحظات التي يُذكر فيها اسم حمَّام البركة أو تاريخه، يترك كل ما يفعله، ويبدأ في إلقاء محاضرته المعادة والتي سمعها

اغلب شعب غرناطة عدة مرات، يقف في زهو بعد ان ينفخ صدره ويرفع حاجبيه متحدثًا عن مجد ذلك الحمَّام الطارف والتليد:

- حمَّام البركة يا سادة هو أعظم ما أنشئ في غرناطة بل في الأندلس كلها.

ثم يتوقف عن الكلام لثوانٍ ويعود قائلًا:

- إلا أن اسمه الحقيقي ليس البركة، ولكن أهل غرناطة طالما رأوا في هذا الحمَّام «بركة»، ربما لقربه من جامع غرناطة الكبير، ذلك الصرح الذي يتفاخر به الغرناطيون دائمًا قائلين: «ترى مئذنة الجامع وأنت من مالقة»، والذي جعل منه قصرًا يحج إليه الأهالي خاصة يوم الجمعة، يبدأ منذ مطلع الفجر وحتى صلاة الظهر، يغتسلون مرحبين بيوم جمعة جديد، يشرق على بلادهم التي تتقلص كل يوم.

يعود صفوان إلى الصمت مجددًا، يتحرك أمامهم في أداء مفتعل، وبنبرة هادئة يستكمل:

- لم يكن ذلك ما جعله أهم حمَّامات الأندلس فقط، ولكن الأهم هو أنه ليس مجرد حمَّام، إنما هو ملتقى لأجناس الأرض من بربر وعرب، من مسلمين ونصارى، فيه اتخذت أعظم القرارات وأسوؤها وبه اجتمع أشهر الحكام وأخبثهم، وعقدت أغرب الاتفاقيات وأثقلها، والتي غيرت مجرى التاريخ الأندلسي.

يقاطعه سهيل مازحًا:

- وهل ضاق بالحكام الحال ليأخذوا قراراتهم ويعقدون صفقاتهم في الحمامات؟

استكمل صفوان حديثه غير مبالٍ بتعليق سهيل بعد أن هز يده في غضب في إشارة لعدم مقاطعته مجددًا:

- من أنت يا هذا حتى تقلل من شأن «البركة» أعظم الصروح. في تلك الساحة وأمام هذا الحمام خرج زبائن الحمام يهتفون ملتفين حول فرس موحد غرناطة الأمير محمد بن نصر الأحمر، يهتفون «أنت الغالب اليوم»، بعد أن أعاد جمع أراضي غرناطة المتناثرة تحت رايته، فصرخ فيهم «لا غالب اليوم إلا الله»، فدوت هتافاتهم كالزلزال هز غرناطة كلها «لا غالب اليوم إلا الله»، فاختار من بعد ذلك اليوم هتاف الناس شعارًا لدولته وزينة لجدرانه، فليحفظ الله غرناطة آخر دروع المسلمين وسيفها أمام تمدد الصليب وبطشه.

قاطعه سهيل مجددًا:

- أتريد أن تقنعني أن هذا الحمام وزبائنه هم أصحاب الفضل في اختيار اسم دولتنا وشعارها. كفاك تزييفًا يا أخي.

أجاب صفوان في غضب جم:

- بين تلك الجدران المتآكلة وأدخنة البخار المتناثرة وأسارير المياه الساخنة المتدفقة بين أروقته، ما زال يحمل الحمام ذلك البريق اللامع والصرح الشاهد الذي يجعل الأقدام لا تنقطع عنه أبدًا، ولهذا ينتظر الناس لساعات حتى ينعموا بمكان للاستحمام وخادم ماهر مثلي للتصبين والاغتسال.

لم يقاطعه سهيل تلك المرة، انتظر حتى أنهى عم صفوان محاضرته، قفز سهيل من مكانه وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- حفظ الله حمَّام البركة، وحفظ الله عم صفوان.

نظر صفوان إلى سهيل محاولًا فهم إن كان يسخر منه أم يهتف حقًّا من شدة تأثره بخطابه، ولكنه عاد ليبدو غير مكترث، وبكلمات قليلة وحركة يد واحدة حاسمة، أمرهم كحاكم باطش بشعبه وملك ساكن على عرشه بالدخول فورًا إلى الحمَّام وإلا كان حسابهم عسيرًا بفقدان مكانهم المحجوز بصعوبة.

نظر الصديقان بعضهما لبعضٍ كاتمين ضحكاتهما من الانفجار حتى لا يلاحظها عم صفوان تجنبًا لغضبه مكتفين بقولهما في نفس واحد:

- نحن خلفك يا أمير مسلمي حمَّام البركة.

لم يختلف حمَّام البركة عن أي حمَّام أندلسي أو حتى أي حمَّام إسلامي امتد من بلاد ما وراء النهر وأنحاء الصين وحتى أحراش غرب أفريقيا وأنهار السنغال، مدخل قصير مزخرف بطيات من الزهور المرسومة والخطوط المعقوفة الأندلسية المعتادة بألوان الأزرق البرَّاق العاكس لألوان السماء، والأبيض الذي يميز أحياء غرناطة وحاراتها.

صعد سهيل وأويس المصطبات الثلاث الأولى سائرين إلى حيث يقف عم صفوان بساحة الحمَّام الكبيرة المزدحمة بالرجال، ملتفين حول النافورة الصغيرة التي تتوسط الساحة.

أمرهما صفوان بالجلوس ثم أمسك معصميهما بعنف واضعًا في أيديهما حبات قليلة من التمر ثم كوبًا من النحاس مزينًا بنقوش مغربية تحمل في داخلها قهوة باردة، وبكلمات قصيرة وسريعة:

- تفضّلا المضيفة.. دقائق ونبدا.

دخلا سردابًا ليس فقط بقصير، إنما ضيق الأفق، رفع صفوان بمهارة وخبرة منديلًا حريريًّا قسم به السرادق إلى نصفين، ثم وقف بظهره ينتظر أن يخلعا ملابسهما، ساعدهما في طي جلبابيهما والعباءة وملفيهما المصنوعين من الصوف ومعهما غطاء رأسيهما، واضعًا إياها في صرتين صغيرتين مميزتين بلون خاص، حتى يعرفا مكانهما عندما ينتهيا.

عاد صفوان بخفته المعتادة ولف خاصريهما بملفوف خفيف من الكتان، يستر عورتيهما، ثم رفع منديله الحريري ونظر لهما مبتسمًا:

- هرولا خلفي.

نظر أويس لسهيل:

- إن لم يكن لك رفيق داخل الحمَّام ربما ستقضي يومك بحثًا عن مخرج من تلك المغارة التي بُنيت على أن تكون ممرات ضيقة تنقلك لغرف أكثر ضيقًا.

ينقسم الحمَّام إلى ممرات وغرف وصحن كبير، تسير في بطون جدرانها مياه ساخنة وأخرى باردة، يطلق بعضها بخارًا لتنعم بمسام جلدية ناضرة، وغرف أخرى اختلطت فيها بقايا الفحم الساخن مع الأخشاب المحترقة، لتصنع غرفة من الجحيم الحارق لتجديد نضارة الجسد وتطييبه، بينما خصصت غرف أخرى لتكون موطنًا للصابون والتكييس والتلييف، وفي نهاية تلك الممرات يوجد المغطس المثلج والغرف الخاصة للتدليك وأخرى لإزالة الشعر والاستلقاء.

تبدأ رحلة سهيل وأويس بغرفة الصدمات، كما يلقبها صفوان، لكمات قوية تضرب جسديهما بماء مسكوب متتالٍ، تارة شديد السخونة وتارة شديد البرودة، وبينهما تلك اللسعة التي تضرب الجسد كله، ثم تبدأ مرحلة التصبين التي تصيب سهيل بالغضب في كل مرة بسبب إحساسه بالإهانة لصغر جسده، ما يجعل جميع المصبنين يبدأون به وأحيانًا يتشاجرون عليه، فالمهمة سهلة وسريعة!

يأمرهما عم صفوان بالاستلقاء على بطنيهما أولًا ثم تبدأ عملية التكييس بالصابون، ثم تلييف الأجزاء الخشنة بالأحجار المغربية، بداية من الذراعين ثم الأقدام والأرجل، وتنتهي بالظهر والبطن، وبعدها تسكب المياه الراكدة، ثم تتكرر تلك العملية من جديد ليختم عم صفوان عمليته الدقيقة بسكب نقاط قليلة من زيت الزيتون الإسباني المحضر في معامل غابات نهر ليكه، حيث تنبت جنات الزيتون وأعنابها.

ينتقل السيدان صاحبا الجسدين اللامعين، بعدها، إلى مرحلة الاستجمام داخل أحواض المياه الساخنة، وهي المرحلة الأخيرة، حيث تدار الأحاديث، وتناقش قضايا ابن رشد الفلسفية، ومعلقات ابن زيدون الشعرية، أو تحضر السياسة لتكون رأس الموضوعات.

إلا أنها لم تكن كذلك هذه المرة، للمرة الأولى كان السكون يخيم على المكان رغم ازدحامه، جلس كل مغتسل في حاله، استلقى البعض ونام الآخر، كانت الآذان تلتقط دبيب حركة الأرجل من شدة السكون، يخشى كل الجالسين أن يبدأ الكلام فلا ينتهي، ويعاد فتح الجروح التي لا تلتئم.

الكل يدرك أن مصيره المحتوم قد اقترب، وأن قدره المكتوب لا يمكن الهروب منه، فما جدوى النقاش والجدال، إن صح الكلام بأن العدو على مقربة ولا يمكن صد غاراته، فربما كان من الأفضل التضرع إلى الله أن يرسل عاصفة تجلي جذورهم من أراضي غرناطة.

نظر سهيل إلى صديقه الذي كان قد تناسى لدقائق، بفعل الصابون والمياه، ما حدث له في الأشهر الماضية، بدا المشهد أكثر بؤسًا من المتوقع، والهروب من الواقع مستحيلًا، فما لا تستطيع أن تنطقه الأفواه، تحكيه الوجوه وتطلقه الأعين كالسهام.

كانت النظرات في أعين الحاضرين كافية لتفجير غضب ملأ قلب أويس، وظل مكتومًا فيه حتى تحول لبركان مشتعل، إذ صرخ وهو ينظر لسهيل:

- انظر إليهم.. هل فهمت الآن لماذا اختبأت لأشهر طويلة لا ألبي رسائلك بالحضور، أعيش قاطنًا بطون الجبال لأتناسى، أو ربما أتعافى، أعيش في صومعة من السكون، لا صوت فيها إلا لهديل الحمام وحفيف الأشجار.. أخرجتني من سكوني لأرى هؤلاء البائسين!

أمسك سهيل ذراعه:

- اخفض صوتك ولا تكن قاسيًا عليهم، هم فاقدون للأمل مثلك ومثلي، ولكن الله لن يتركنا وإننا لفائزون بإذن الله.

ضحك أويس ساخرًا:

- أتعلم يا سهيل، لقد كنا نقول مثلما تقول، سقطت قرية رندة ثم لوشة، فقلنا إنها محنة، وإننا إن شاء الله لغالبون، ثم من بعدهما سقط حصن قمرش وحصن مونتميور ثم أهم حصون مالقة، البلش، وفي كل مرة نقولها «عزيمتنا باقية ونصرنا مضمون بإذن الله»، ثم تسقط مدينة أخرى.

- خسئت يا رجل، هل فقدت إيمانك؟

استكمل أويس حديثه، وكأنه لم يعد يسمع سوى صدى كلامه:

- كنا نظن أن الله يعاقبنا لأننا خذلناه بحروبنا البائسة بين أبناء ديننا، كنا نشارك في تحصين الجيوش وإمداد القوافل بالسلاح، ليس من أجل صد أعداء الدين، إنما لصد أبناء الدين نفسه.. خُدعنا بأطماع وصراعات حكام وأمراء غرناطة من بني الأحمر، اشتركنا في نزاع بين ابن وعمه، لا ناقة لنا فيه ولا جمل، عم يحارب ابن أخيه الضعيف أبا عبد الله، ثم تنتظرون بعدها نصرًا وتوفيقًا من الله، لقد هتكنا أعراضنا بأيدينا قبل أن يهتكها القشتالة الصليبيون.

ضاعت مالقة درة الموانئ، همزة الوصل بين الشرق والغرب، سحقنا ملك قشتالة وزوجته، هزمنا أنفسنا بالخيانة، وقبلنا بمعاهدات واهية وأكاذيب مشوهة عن سلام خادع وصداقة مسمومة، صدقناها ونحن في قلوبنا مكذبون.

قاطع أويس صوت ساخر لأحد الجالسين يقول:

- لماذا تحكي لنا عن مأساتك، ألستم أنتم من سلمتم مدينتكم وفتحتم أبوابكم للأعداء ثم بعتم بيوتكم إليهم بأبخس الأثمان؟

- وماذا تفعل يا سيدي عندما يحل عليك رمضان ومالقة محاصرة وحاكمها هارب وأهلها مختبئون خلف أسوارها وشبابها يستشهدون واحدًا تلو الآخر. لقد فعلنا ما في استطاعتنا، حرقنا أبراجهم كلما حاولت الاقتراب من أسوارنا بالنهار، وحرق فرسان مالقة خيام معسكراتهم بحلول الليل، ولكن ماذا تفعل تلك الشجاعة أمام الخيانة، أسعفتنا الطبيعة بجبالها الشرقية العتية الخضراء وأمواج بحرها الناطح لأي متسلل من الغرب، ولكن لم يسعفنا عتاد من بلاد المسلمين حولنا.

صاح سهيل في صديقه محاولًا تهدئته:

- فعلتم ما استطعتم، ولكن هذا حال أمة ضربها الوهن.

استكمل أويس حديثه وكأنه لم يعد يسمع أو يعي ما يحدث حوله:

- عرف اليأس والهزيمة الطريق إلى قلوبنا، فشلنا في تحطيم الحصار الرابض عند أبواب المدينة، منع الحصار الأقوات؛ خوت المخازن على عروشها وشحت البضائع، توقف النداء في الأسواق وأصبح شارع السوق المزدحم، أكثر شوارعها فراغًا، بل فرغت شوارع مالقة كلها، بعدما أصاب

المرض والعلة كل البيوت، كانت اهوال الحصار المروع قد تملكتنا بالكامل، نقص الزاد عنا، فتناولنا وجبة واحدة في اليوم ثم نصف وجبة حتى لم نعد نجد ما يملأ أجوافنا سوى بقايا الخبز الجاف، وحتى ذلك الخبز لم يعد ليسعفنا، نفد الطعام من المدينة كلها، طحن الشباب العظام وأكلوها، وسلخ الشيوخ جلود الغنم وتناولوها، وغلت السيدات أوراق الشجر وسقوا بها أجوافهم العطشى، فتك بنا الجوع، وطرق الموت بيوتنا واحدًا تلو الآخر، مات الكثير جوعًا والأكثر هرب مبحرًا.

وكانت النهاية معتادة ككل النهايات السابقة لممالك المسلمين، سقطت مالقة كما سقطت طليطلة منذ مائتي عام، ومن بعدها خرت المدن تتساقط كأوراق الشجر، إشبيلية وسرقسطة وبلنسية وقرطبة.. اتفقنا على تسليم المدينة مقابل أن يصان ديننا وعرضنا وممتلكاتنا، وقبل أن يحل ذلك اليوم، تحولت مالقة في يوم وليلة إلى مدينة من المجاذيب، الجميع يهرول في كل اتجاه، البعض حمل ما استطاع من بيته، وهرب في مراكب ألقت به في طنجة، والآخر ارتمى في أحضان القشتالة وتنصر في معسكرهم، وآخرون فروا إلى هنا في غرناطة، ولم يتبقَّ سوى القليل، أشباح بائسة في مدينة خاوية بلا رقيب ولا ظهير.

صاح رجل آخر:

- ولماذا بعتم بيوتكم إلى الأعداء وتركتموهم يتمتعون بدياركم وخيراتكم؟

ضحك أويس ساخرًا:

- أتعلم يا سيدي، ما أسوأ لحظات العمر؟ هي تلك اللحظة التي يسقط فيها كل شيء، تصبح شاهدًا على ضياع وطنك وأنت مكتوف الأيدي، صدر المرسوم الملكي القشتالي يقول: عليكم يا أهل مالقة أن تختاروا، رقيقًا عبيدًا في قصورنا أو مسيحيين مؤمنين غير مكذبين بديننا، أما خياركم الأخير فهو افتداء أنفسكم بما تملكون، لا استثناء، تختارون بين الحرية والفقر، ماذا تتركون: أموالكم أم دينكم؟ ثلاثون دويلًا من الذهب، كان ذلك ثمن افتداء الرأس والروح، ضاعت ثرواتنا فداء أرواحنا، تكاتف الناس واشتروا دينهم على حساب دنياهم، رحل من رحل وبقي من بقي.

نظر أويس حوله، فوجد أعين الجميع تحاصره، الكل يسمع دون أن ينطق، قفز من مكانه غير مبالٍ بدعوات سهيل بالتريث والهدوء، صرخ في الحاضرين:

- هل مللتم الحكاية، لا تقلقوا فقد شرُفت على الانتهاء، فهي بالطبع مملة، ومعادة، ونهايتها يعلمها القاصي والداني، أيام قليلة وعلى نفس وتيرة

الممالك الاخرى، انتشر الجنود كالنمل في اراضي مالقة، دوت همهمات الجنود وضربات أقدامهم في الشوارع، يحاصرون مسجد المدينة، يسقط هلال المئذنة وتُرفع أعلامهم الحمراء مرسوم عليها قلعة معقوفة الصلبان. هل يمكن لإنسان أن يرى يوم موته؟ نعم رأيت ذلك اليوم، سار قائد الجيوش القشتالية متبخترًا على ظهر حصانه إلى قلعة مالقة، ليأمر جنوده بأن يُرفع صليبه الخشبي على أعلى أبراج القلعة، لينتهي اليوم البائس بين هتافات واهية وقلوب ممزقة.

توقف أويس عن الحديث للحظات، غُشي عليه باكيًا، حاول جاهدًا تمالك نفسه، لكنه لم يستطع، اختلطت دموعه مع قطرات ندى بخار الحمَّام. لم يحاول أحد من المستمعين أن يهدئ من روعه، أو يقلل من شجنه، ظلوا جميعًا واجمين صامتين.

قال أويس بصوت متهدج وأنفاس متقطعة:

- سقطت مالقة آخر ثغور المسلمين.. سقطت مالقة جوهرة الأندلس ومنارتها.. سقطت مالقة وستسقط غرناطة.

دوت كلمات أويس كقصائف الأنفال المتزلزلة، كانت حقيقة يعلمها الجميع، ولكن من يقدر على البوح بها أو حتى استطاع أن ينطقها من قبل.

كان وقع الكلمات على الحاضرين شديدًا، تعالت دمدمات الحاضرين، ارتفعت وتيرة الخلاف وأصوات الجدال، اختلطت الأحاديث بين مؤيد ومعارض، بين صارخ وباكٍ، تعالت الأصوات ولم يعد أحد قادرًا على سماع الآخر، جاء صوت جهوري صارخ مجهول المصدر، حمل في طياته نغمة رخامية رصينة كأئمة المساجد وحافظي القرآن:

- اصمتوا.

كانت تلك الكلمة لها مفعول السحر، توقف الجميع عن الكلام فجأة، لم يحاول أحد أن يبحث عن مصدر الصوت أو صاحبه، سكت الجميع بلا جدال أو نقاش، كان مصدر الصوت قادمًا من مكان مجهول، نقطة ما في ساحة الحمَّام المظلمة، وكأن الصوت قد ولد من العدم.

وحده أويس كان يبحث عن ذلك الصوت الآمر الناهي الذي أوقف الجميع عن الكلام بكلمة واحدة، ينظر إلى يمينه ويساره باحثًا عن مصدر ذلك الصوت الجهوري الحازم.

بدأت تبدد الصورة القاتمة السوداء للشبح صاحب الصوت الجهوري، بدا خيالًا متحركًا قادمًا من العتمة الثقيلة لرجل مهيب الركن بقامة طويلة وجسد

مفتول، ملامح تزداد وضوحًا كلما تحرك، لحية رمادية كثة تجملت بشعيرات سوداء فتية مع أخرى بيضاء حكيمة، لم تُغطِّ تلك اللحية وجهه الجاد وأركان جبهته الممتلئة بالتجاعيد، تشهد على عقود عدة لزمن طويل، يقطع تلك التجاعيد بقايا إصابة غائرة، تبدو كأنها ضربة سيف في منتصف جبهته. كان جسده العريض، وذراعاه الطويلتان، وقدماه الغليظتان، لا تعكس كونه رجلًا في نهاية عقده الخمسيني.

مع ظهور طلته بالكامل كان أمرًا مفروغًا منه. إنه رجل مهم، عين من الأعيان، ولكنه يحمل في جعبته بريقًا مختلفًا، كلما تقدم خطوة في اتجاه أويس وصاحبه، تباعد الناس وهم ينظرون إليه باهتمام وريبة، لم تكن نظرات خوف، إنما نظرات تحمل إعجابًا.

توقف الرجل المهم بعد أن توسط ساحة الحمَّام قاصدًا ذلك، ملقيًا بأنظاره على أويس:

- يا فتى، والله لو لم أسمع ما حكيت من شقائك وشقاء أقرانك من أهالي مالقة المنكوبة، لسحقت رأسك ومزقت أوصالك.

وقعت الكلمات على أويس مثل سهم غارز. لم يستطع أن يرد، حاول جاهدًا، ولكن كان هناك ما يمنعه، ظل صامتًا شاردًا، ليس في كلمات الرجل القوية وصوته الجهوري المهيب، إنما في جسده الممزق بطعنات القتال.

استكمل الرجل حديثه بعد أن رفع أنظاره موجهًا كلامه للجميع الذين بدوا كأنهم نسوا أنهم في الأصل عراة في حمَّام، وأن الأمر قد تحول إلى مجلس عسكري:

- لن أسمح أن يدب اليأس في قلوبكم، خسارة معركة، لا تعني خسارة حرب، لن تنضب عزتنا ولن نفقد إيماننا، فلنجعل من أنفسنا لهيبًا يحرق من يقترب منه، فليثأر الشعب بأكمله، وليحمل كل رجل سلاحًا في يده، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، فلغرناطة قوة عظيمة لا يستهان بها، رجالها الذين نزحوا من كل أراضي المسلمين المنكوبة، هم قوة تدفعنا للأمام، ولربما كان سقوط مالقة جلدة مؤلمة لنستيقظ من سباتنا العميق، ونزاعاتنا الداخلية وأطماعنا الشخصية، لا تيأسوا، احملوا راية الوطن، وبثلاث كلمات، حي على الجهاد، تكون لغرناطة جيش قوامه لا يقل عن ٥٠ ألف محارب.

وقف سهيل بعد أن أراح ملفه الساتر لعورته، حاول أن يجمع من قواه، ويخفف من وطأة النقاش:

- أيها الثائر العظيم، فارس غرناطة الشجاع، عرفناك قائدًا وزعيمًا وترعرعنا

على خطاباتك منذ ان كنا صغارًا نلهو بين الحانات والدروب، ودائمًا ما حملت كلماتك وقودًا يدفعنا وحافزًا، ومشكاتنا لظلامنا ولكن السيل قد بلغ الزبى، العدو يمرح ويعبث في أرضنا بعد أن بسط نفوذه على كل ممالك المسلمين من شرقها إلى غربها. إن مملكتنا تتهاوى كما تهاوت كل الممالك السابقة، الحكاية تتكرر وقد كان سقوط مالقة منذ عدة أشهر، ضربة في نعش أمة لم تحافظ على مجدها.

نظر الرجل إلى سهيل في غضب، احمرت عيناه صارخًا:

- لا تجعلوا اليأس يطرق أبوابكم، قاوموا أنفسكم قبل أن تقاوموا أعداءكم، وتالله سيكون خيرًا لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها.

صاح أحد الحاضرين فجأة: النصر أو الشهادة، فصاح خلفه آخرون «النصر أو الشهادة» حتى امتلأت الدنيا هتافًا، تغير المشهد فجأة، دبت الروح في أجساد الحاضرين، قفز الجميع من أماكنهم في حماس شديد، يهتفون ويضحكون، تنفسوا الصعداء، وامتلأت صدورهم شعورًا بالارتياح، وتنافس الناس في الهتافات الحماسية، حتى صرخ أحدهم من فرط الحماس في أذن سهيل:

- فليعلم هؤلاء القشتالة أن لعنة المسلمين ستبتلعهم، كما بلع الحوت يونس.

ضحك أويس من قلبه لأول مرة، منذ أن هجر من بيته وباع أرضه، على حماس الرجل وتشبيهه الغريب، يشبه الأعداء بنبي الله يونس، ويشبهنا بالحوت، لم يعقب أويس، قرر أن يترك الرجل مبتهجًا متحمسًا، نظر إلى سهيل، فوجده يشاركه نفس الضحكات.

مال أويس على صديقه:

- من يكون ذلك الفارس العظيم؟

- إنه أحد أعظم من أنجبتهم غرناطة، القائد موسى بن أبي غسان.

لم يستطع أويس سماع ما تبقى من حديث صديقه، بعد أن غطت أصوات الهاتفين على جميع الأصوات الأخرى، ظلت الهتافات تدوي، تدعو للجهاد وتحث على العزة والكرامة وتهتف باسم أبي غسان الذي اختفى وسط الهتافات بعد أن أحاطه الحاضرون من كل جانب.

لم يقطع ذلك المشهد سوى صوت صفوان الغاضب يوبخ أحد الجنود، الذي بدا من زيه الذي حمل شعار المملكة «لا غالب إلا الله» أنه أحد حراس الأمير،

بعد ان دخل بحذائه المتسخ في قلب الحمّام دون مبالاة، تقدم الجندي بحزم تجاه الصديقين:

- من منكما أويس بن عبد الله بن مايسين الناسطوري؟

نظر الصديقان متعجبين من إلقاء الجندي لاسم أويس كاملًا، رفع أويس يديه مجيبًا عن السؤال، نظر الجندي وقد ارتاحت ملامحه وكأنه قد عانى بحثًا عنه:

- إن أمير المسلمين، أبا عبد الله محمد الثاني عشر، حفظه الله ورعاه، يطلب حضورك إلى قصر الحمراء في الحال، حتى وإن حملناك على هيئتك تلك من داخل الحمَّام.

***

(٢)

وقفن صفًا واحدًا في حانة العطارين، الواقعة بين شارعي الرملة وسوق القيصرية، المطل على المدرسة الإسلامية الكبرى، كانت ملابسهن الحريرية والمآزر المشقوقة القادمة من بلاد طنجة بألوانها البراقة، وأكتافهن المكشوفة العاكسة لبشرة قمحية لامعة، تدلت عليها أوصال شعيراتهن الصفراء، كافية لأن تجذب رجال المدينة من كل حدب وصوب، لا يتكرر ذلك الحدث كثيرًا، غجريات يجتمعن ليرقصن الزمرا أو زامبرا كما يقولها الغجر.

بضربة قدم مدوية قوية تطرق الأرض، تبدأ الراقصات تدريبهن، رحلتهن العذبة بين الواقع والخلود، ينقسمن إلى صفين، يقفن أمام بعضهن البعض في انتظار أصوات الدفوف تصاحبها أنغام العود الأندلسي.

ضُربت الدفوف، ورفعت الراقصات أذرعهن إلى أعلى في إشارة إلى بدء الوصلة، يقتربن معًا، ليشكلن خيمة مصنوعة من أياديهن، تخرج منها إحدى الراقصات القصيرات، تتمايل بخصرها العاري ببطء، ومعها تتحرك يداها كأمواج البحر بعنف، تواجه، تستعد لمقاومة شر قادم، تحكي تلك الأيادي عن صراع الأمد بين ذلك الكائن المفترس الذي يدور حائمًا بحوافره ليقتنص فريسته.

يرتعش جسدها بشدة، تتلوى عيناها يمينًا ويسارًا، تدور بخصرها عدة مرات، وكأن ذلك المفترس كان على وشك مباغتتها، في صراع دمويٍّ على البقاء، معركة لا يمكن أن يخرج منها سوى غالب واحد، تدرك الراقصة أنه قد حان وقت الهجوم، نهضت رويدًا واستمالت، هزت خصرها ولاحت برأسها، تمايلت مع ازدياد ضربات الدفوف وشجن أوتار العود، انكمشت قبضتا كفيها، ثنت ركبتيها استعدادًا للهجوم الوشيك، قفزت برشاقة ومهارة رافعة ذراعها إلى أقصى ما تستطيع، وكأنها على مقربة من لمس السماء، تنتفض قافزة من بقعة إلى أخرى، ثم تعود لتكرر الحركة من جديد، تضرب الأرض بأقدامها بسرعة ورفق، وجهها ثابت بلا ملامح، يبدو غاضبًا كجسدها.

تعبر عن حال المتفرجين جميعًا، ورغم أن تلك الرقصة هدفها إمتاع الملوك والأمراء، فإنها كانت رقصة تعبر عن صراع مرير، في طياته المقاومة والتعبير عن حال شعب يصارع من أجل الحرية.

كانت حركة راقصات الزمرا المستمرة كافية لجذب سهيل الذي أصر على مصاحبة صديقه الذي سيكون للمرة الأولى زائرًا لقصور الحمراء وقلاعها، راكبًا العربة الأميرية بخيولها العربية الأصيلة، ذات الأكتاف القوية والعرف

الناعم، ظل سهيل يراقب الراقصات، شاردًا في اكتافهن العارية واجسادهن الممتلئة، وجمال نظراتهن المثيرة.

قطع أويس على سهيل لحظات انسجامه، قائلًا:

- انظر إلى وجوه هؤلاء الراقصات الغاضبة رغم أنهن يرقصن رقصتهن الخاصة، فإنهن والله ليروين ما في قلوبنا جميعًا من غضب!

- لا يا عزيزي إن الزمرا رقصة ابتدعها العرب، ونشرها البربر، واحترفها الغجر.

- لا يهم من صاحب تلك الحركات المهم أن هؤلاء الراقصات عبرن بوجوههن عنا جميعًا!

- في الحقيقة أنا لا أراقب وجوههن، أنا أراقب ما هو أكثر نضالًا.

- وما يكون ذلك؟

أشار سهيل بسبابته على إحدى الراقصات:

- انظر يا عزيزي إلى حركة هذين النهدين النشيطين، هل هناك نضال أجمل من ذلك، إن هؤلاء النساء بنات المولدين، يمتلكن بشرة نقية وأجسادًا ناعمة، لا يمتلكها بنات العرب، ولا البربر من المحيط إلى الخليج، ليتني أختلي بتلك الأجساد جميعًا!

نظر أويس معاتبًا:

- خسئت يا رجل، لا تنس أني أيضًا من المولدين من أم إسبانية وأب عربي.

ضحك سهيل مداعبًا:

- والله لم تأخذ من العرب وعزتهم سوى طولك الفاره وأصابعك الغليظة والبقية خسة إسبانية.

سكت أويس، لم يجد رغبة في استكمال حديث مشوه كهذا، عاد سارحًا فيما ينتظره من لقاء مع السلطان، الحاكم الشاب، صاحب الجسد الضئيل والرؤية الضحلة. فيم قد يحتاج حاكم آخر ما تبقى من ممالك المسلمين إلى تاجر مثلي يركب البحار بحثًا عن لقمة عيش في البلاد المجاورة، ذاب بنظره بين مجرى نهر حدرة وتلاقيه مع نهر شنيل، ومن خلفهما جبال نفادا الراسخة ذات اللون الأخضر، تقف حارسة حامية لوادي غرناطة من كل اتجاه.

ظل أويس سارحًا بنظره بين الجبال، حتى قطعته أسوار قصبة الحمراء المستكينة الممتدة كالبنيان المرصوص من كل جانب، كلما صعدت العربة

إلى اعلى في اتجاه القصر، ازدادت نبضات قلبه وتعرقت جبهته.

خرجت العربة أخيرًا من حواري حي البازيين الضيقة، تخلصت من أصوات الأطفال ولهوهم بالهرولة خلف عجلات العربة، تقابل نهر حيدر الذي يفصل الحي عن الجهة الشرقية التي تشرُف باحتضان قصر الحاكم، اجتازت النهر وبدأت في الصعود، كلما ازداد الارتفاع ظهرت ملامح غرناطة صغيرة، تمتزج حدائقها مع المروج والربوات الجنوبية الممتلئة بأغصان الزيتون، وأشجار الرمان، وشجيرات الكروم، الممتدة امتدادًا واسعًا.

بدأت ملامح غرناطة في الزوال رويدًا رويدًا مع دخول حرم القلعة وحدائقها، أخفت أفرع الشجر الشاهقة المتأصلة غرناطة ببيوتها وشوارعها، تبدل المشهد فجأة إلى مساحات شاسعة خضراء تحدها ورود حمراء وصفراء وأخرى بنفسجية، لم يرها أويس من قبل في أيٍّ من أنحاء الأندلس أو ما حولها.

في قلب تلك الحدائق انتشرت أشجار الليمون واليوسفي، كانت تلك هي المرة الأولى أيضًا التي يشاهد أويس فيها تلك الثمرات تنضج في تلك الأراضي، فقد رآها في رحلاته التجارية ببلاد مصر وسودان وفاس، لكنه أمر فريد أن يكون في غرناطة مثل تلك الثمرات، كان مشهدًا بديعًا خلابًا اكتمل باستنشاقه روائح الياسمين والنرجس والنعناع القادمة من بلاد طنجة والكوفة وعكا، لتجمل هواء وأجواء غابات العريف الملحقة بالقصر، صاح أويس في أذن سهيل حتى أفزعه:

- يا إلهي إنها جنة مكتملة الأركان، لا تستمتع عيناك بلقائها وأنفك برائحتها فقط، إنما تستمتع أذناك بخرير المياه المتصاعدة للقصر بين جذور الشجر وأصوات البلابل والحمام، ومختلف الطيور التي استوطنت حدائق القصر.

ضحك سهيل واضعًا إحدى ذراعيه على كتف صاحبه:

- انتظر يا صديقي فنحن ما زلنا في البداية.

مع صعود العربة كانت واجهات القصر تتغير، فالحمراء ليس مجرد بيت للحاكم أو قلعة تحمي الحاشية، إنما قرية قائمة بذاتها، مملكة داخل خلافة، تحمل حدائقها وحدائق جنة العريف المجاورة لها آلاف الأفدنة من المحاصيل والأشجار، لتلك الحدائق مزارعون يجاورهم أهل الحرف، حدادون وصناع الزنك والسلاح.

تتدرج القلعة بتدرج طوائفها، فكلما زاد الارتفاع تفاخمت البيوت وتعالت المناصب، فاحتل الأمراء وقواد الجيش وكبار الأعيان والشيوخ والوزراء

الطابق الاخير، قبل الوصول لسور القصر، نقطة النهاية للهضبة الكبيرة.

فور أن اقتربت العربة من أول أبراج القصر وأكثرها ضخامة، برج الحراسة، غيَّر الجندي السائق مساره، بدا أنه يطوف حول سور القصر، يسير هادئًا في خانات ضيقة، تساءل الصديقان: هل ضللنا الطريق؟

فلم يرد في بادئ الأمر، ثم اكتفى بقوله إنهم لن يدخلوا من بوابة القصر الرئيسية، باب «الشريعة»، لأن اللقاء مع أمير المسلمين سري، ولا يجب أن يرانا صاحبو الشكاوى وطالبو الحاجة. ظل الجندي يسير بالعربة حتى كاد سور القصر أن ينتهي، وصل عند نقطة ارتكاز ينتهي فيها سور القلعة، وتبدأ منها جنات العريف، هنا توقف السائق طالبًا منهم الدخول من باب الطباق السبع.

كانت الحياة معدومة في تلك البقعة النائية من القصر، ورغم ذلك فوجئ الصديقان بجمال بوابة الطباق السبع، بمدخلها العملاق وأبوابها الخشبية السميكة، مزينة بنحت غائر لعقود الرمان وخطوط كوفية بديعة، بمجرد أن اجتازوها، ظهرت عشرات الشجيرات الصغيرة المصطفة، تتشابه في الشكل واللون والحجم، تحدد طريقًا للسائرين بين أطراف تلك الشجيرات، جرت أسارير المياه الصاعدة من غرناطة في مجارٍ عملاقة تسقي الحياة بتلك الجنة، كلما تخطى الصديقان عدة شجيرات، توسط الطريق نوافير صغيرة صنعت من الرخام والمرمر، ختمت جميعًا بشعار المملكة «لا غالب إلا الله» معقوفة بالكوفية.

سارت العربة بهدوء وحذر، وكأنها تنأى بنفسها عن إزعاج تلك الطبيعة الخلابة أو إيقاظها من إخلادها الطويل. تأمل الصديقان كلمات «لا غالب إلا الله» المنقوشة على كل حائط، تزين كل جانب، بين كل قبة وعمود، تظل تلك الكلمات شاهدة على مجد مشرِف.

وقف سهيل فجأة، وكأنه قد عثر على كنز دفين، صاح في أذن السائق مطلقًا سبابته على إحدى العمائر الطويلة، مثمنة الأضلاع في نهايتها شرفات صغيرة:

- هل هذا هو برج الأميرات؟

ابتسم السائق، وكأنه قد فهم الإجابة التي يبحث عنها سهيل:

- نعم يا سيدي، هذا البرج الذي سُجن فيه أمير المسلمين، وأمه وأخوه لسنوات عدة.

تعجب أويس من الإجابة، نظر إلى صاحبه منتظرًا تفسيرًا، فجاء رد سهيل

سريعًا:

- إن هذا البرج هو أحب ما في القصر لشعب غرناطة، ذكرى عظيمة، رمز للمقاومة الشعبية، فقد كان هذا البرج بداية موجات من السخط ضد قرارات والد أبي عبد الله محمد الصغير، السلطان أبو الحسن، بعد أن جُن جنونه وملأت ملذات الدنيا قلبه، ليقرر الزج بزوجته عائشة ونجليه أبي عبدالله ويوسف في ذلك البرج العملاق، بأمر من زوجته الثانية، ثريا، جارية نصرانية ملعونة، تلاعبت برأس السلطان ودست الكره في قلبه، حتى وصل به الأمر أن يتمنى موت زوجته الأولى وابنه ولي العهد، حتى تفوز ثريا وأبناؤها بعرش المملكة.

قاطع أويس صديقه:

- أتذكر تلك القصة، كنا صغارًا، وكانت حكاية زوجة السلطان تملأ السماء في مالقة، حتى غرد الشعراء بأبياتهم عن صلابة زوجته «عائشة الحرة» وعن وفرة عزائمها وشجاعتها المطلقة في الوقوف ضد السلطان والدفاع عن ابنها الصغير وحقه في الولاية.

- هل تعلم يا أويس أن لقب حرة أضيف إلى اسم عائشة، وأصبح جزءًا منه حتى اليوم بعد هتافات غرناطة التي دوت أصداؤها في أركان الوادي كله هاتفين «يا عائشة يا حرة.. أنت خير درة» نكاية في زوجته الثانية ثريا التي كانت جارية عند السلطان قبل أن يتزوجها.

ظلت ثورات البازيين والبشرات طعنة في ظهر السلطان الماجن حتى نجح أنصارها في القصر بمساعدتها في الفرار من البرج إلى خارج غرناطة حتى هوى نجم السلطان أبي الحسن وعاد الحق لصاحبه.

ضحك أويس معجبًا:

- والله استحقت هذا اللقب بعد أن كافحت وحمت العرش.

ثم ظل أويس يهتف في سعادة:

- «عاشت عائشة الحرة.. عاشت خير درة».

لم يقطع انهماك أويس وسهيل في حديثهما عن غرناطة وأحوالها سوى مئذنة مسجد القصر البديعة تخترق السماء، لم تكن تختلف كثيرًا عن مساجد التائبين والمرابطين القائمة بحي البازيين، تعكس جمال الأندلس بالقبة الفضية المميزة بالخطوط العربية المتشابكة، والمئذنة ذات الأضلاع الأربعة، وفي نهايتها مثلث نحاسي عملاق. كان الوصول للمسجد علامة على انتهاء

رحلة العربة، وانه قد وجب عليهم الترجل منها والمرور من الممشى الصغير المجاور للمسجد من أجل الوصول لأول أجنحة القصر، «فناء الريحان» تلك الساحة المستطيلة المصنوعة من الرخام الأحمر، يحدها رواق معمد، وستة أحواض من زهور الياسمين والنرجس والريحان، على أطراف الفناء ينتصب شجر السرو العملاق كحرس يحمي الفناء، في المنتصف تقبع بركة مياه صغيرة دائرية منحوتة أجسادها بخطوط مستقيمة متوازية. زُينت أركان الفناء الأربعة بكتابات الخط الكوفي، حمل كل ركن جملة معادة تقول «النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين».

لم يكن أمام الصديقين سوى عبور الساحة للمرور من باب واسع تجمل بخطوط من ذهب، بحثًا عن الفناء التالي المسمى «بهو السباع»، أعجوبة العجائب لم يُر لها مثلٌ في البلاد، ساحة ضخمة، في فخامتها إبداع من بدائع الزمن، حوائطها مكشوفة بلا سقف، أعمدتها رشيقة صغيرة مكسوة بأجمل العبارات ومصنوعة بالكامل من الرخام الأبيض، تقف تلك الأعمدة متجاورة في نظام ودقة، تحمل على عاتقها قبابًا مضلعة مصنوعة من القرميد الداكن، ومن خلفها قباب أكبر حجمًا تشكل مدرجًا متساوي الأضلاع، تتوسط تلك الساحة نافورة مستديرة، مصنوعة من أحجار المرمر والياقوت الجمري والعقيق اللامع، يحيطها اثنا عشر أسدًا، آخذة وضع حماية العرين، فاتحة أفواهها حتى برزت أنيابها، صنعت من الرخام الأبيض.

لم يتمالك سهيل نفسه، بدأ يلامس كل أسد منها، يتحسس نقوشه البديعة وكلمات «لا غالب إلا الله» المنحوتة على أجسادها، ظل شاردًا سارحًا بخياله يساعده الهدوء الذي يملأ الساحة، حتى انطلقت إحدى نوافير الماء من فم الأسد الرابع فجأة وبدون مقدمات، فزع سهيل بشدة، صرخ وكأنه قد رأى شبح الموت لتوه، اختل توازنه وسقط مثل ماشية مذبوحة على ظهره.

سقط أويس أيضًا، ولكن من شدة الضحك، لم يستطع تمالك نفسه، بعد أن رأى رد فعل سهيل وفزعه الشديد من نافورة مياه، ظل يضحك دون انقطاع ودموعه تذرف من عينيه حتى احتقن وجه سهيل، الذي صاح غاضبًا محاولًا إخفاء إحراجه:

- من العار أن تكون نافورة بهذا الجمال، ويتركونها فاسدة تطلق رذاذ المياه لتفاجئ مشاهديها.

نظر أويس إلى سهيل وهو يكاد يلتقط أنفاسه بصعوبة من شدة الضحك:

- يا أخي لقد ملأ جهلك بحار الأرض وأنهارها، ألم تسمع عن الساعة المائية التي صنعها جد أمير المسلمين، السلطان محمد الغني بالله، يطلق كل أسد

من الاثني عشر المياه من فمه كلما حلت ساعة جديدة، فيطلق كل اسد رذاذ المياه مرتين في اليوم الواحد. يتحدث العامة في كل بقاع الأرض عنها ويصفونها بمعجزة هذا الزمان، حتى حاول العديد من ملوك وسلاطين العالم أن يصنعوا ساعة في مثل دقتها وإبداعها، ولكنهم فشلوا جميعًا حتى إن الظاهر سيف الدين برقوق سلطان مصر حينها، أرسل أمهر صانعي المحروسة لغرناطة لمعرفة آلية عملها، ولكنهم عادوا بخفي حنين.

جاء صوت من بعيد لأحد الجنود الذي هرول إلى بهو السباع:

- هيا يا سادة إن السلطان في انتظاركما ولا مجال لإضاعة الوقت.

ثم أشار بيديه لكي يتبعاه إلى حيث يجتمع السلطان ووزراؤه في أهم وأعظم أجنحة القصر، بهو قمارش.

كانت تلك أولى الغرف المغلقة التي سُمح لهم بالدخول إليها، كلما اقتربوا منها جذبتهم رائحة البخور والعنبر القوية القادمة منها، مزيج من أجود أنواع العود والعطور القادمة من أسواق عكاظ وبلاد الحجاز.

عندما مروا من بوابة البهو، كانت أركانه كسابقيه قد زينت بكلمات «الحمد لله على نعمة الإسلام»، وقف على جانبي البوابة، جنديان ارتديا الدروع الثقيلة، والخوذ المعقوفة، حمل كل منهما رمحًا، رأسه من فضة وذراعه من نحاس، أغلق الجنديان الطريق أمام الصديقين برمحيهما، صاح أحدهما مانعًا سهيل:

- إن أوامر مولانا بأن يجتمع بالسيد أويس الناسطوري وحده.

حاول أويس أن يقنع الجنود بضرورة دخول صديقه معه، حتى نظر سهيل لصاحبه ساخرًا:

- اطمئن سأبحث عن شيء آكله حتى تعود.

اجتاز أويس رمحي الجنديين، فبدت ملامح ساحة قمارش العملاقة في الظهور، بدا سقفها أبرز ما فيها، قبة كبيرة، زينت بطنها بتعاريج عديدة ونقوش مرسومة بدقة ماهرة، بطول القبة تظهر فتحات صغيرة يتسلل منها الضوء، صنعت خصيصًا لتضيء الغرفة، أما الأرضية فمصنوعة من الرخام الأبيض الفردوسي، وفي المنتصف تستمر عادة القصر المتكررة في كل فناء، نافورة صغيرة تتوسط البهو، تطلق خرير الماء ليختلط مع روائح العنبر.

على يسار الساحة، اصطفت بعض المصطبات الخشبية البديعة، نقش عليها بحروف عربية، وقف حولها جموع من الأفراد لم تتضح هويتهم ولا ملامحهم،

لكنهم كانوا بالتاكيد من الاعيان، حكام تلك الامة، بعضهم ارتدى عمامات الشيوخ على رؤوسهم، وآخرون ارتدوا القلناس الأندلسي، تعالت أصواتهم وتجادلوا، ملأ ضجيجهم المزعج البهو وما حوله، بعضهم كان جالسًا على المصطبات الخشبية وآخرون وقفوا يتحدثون في اجتماعات ثنائية صغيرة، شكلت تلك التجمعات كتلة بشرية أخفت من ورائها السلطان، بدأ البعض يدرك أن هناك غريبًا قد رافقهم المكان، خفت الأصوات شيئًا فشيئًا حتى استشعر الكل وجود أويس، توجهت أنظار الغرفة كلها إليه ثم تراجعت الجموع فجأة، حتى بدت ملامح السلطان الصغير في الظهور، كان السلطان صغيرًا بحق كما يصفونه، صغيرًا في الحجم، وصغيرًا في الهيبة التي لا تتناسب مع هيبة كرسي العرش الجالس عليه.

عكس وجه السلطان شروده وضعف حيلته، بدا محملًا بأعباء أكثر من قدراته، نظر إلى أويس متفحصًا ثم أشار إليه بالاقتراب، كانت كل خطوة أقرب إليه تكشف ذلك السلطان الصغير بحق، عيناه سوداوان تخفيان خلفهما إرهاقًا عظيمًا، ولحيته صغيرة غير مكتملة تكشف نقص نضوجه، وحركة يديه المرتعشة تكشف حجم رهبته، وملابسه الواسعة تكشف سوء اختياره، لم يكن يختلف عن القاعدين سوى فى رداء رأسه الذي لم يكن عمامة كعادة الشيوخ، ولا قلانس كعادة أهل غرناطة، إنما كان قلنسوة، ذلك المزيج الغريب بين الطربوش والعمامة.

جذب كرسي العرش أعين أويس، العرش المتنازع عليه على مر العصور يحمل إرثًا جليلًا، كان عملاقًا نُحتت على جوانبه أربعة أبيات من الشعر، حاول أويس أن يقرأ بعضها فوجدها أبياتًا تتحدث عن رسول الله قائلة:

تبارك من أعطى الإمام محمدا

مغـــــــاني زانت بالجمــــــال المغانيــــا

وإلا فهذا الروض فيـــه بديــــــع

أبى الله أن يلتقي لها الحسن ثانيا

منحوتة من لؤلؤ شق نورهــــــا

تحلى بمرفض الجمان النواعيــــــا

وضع السلطان يديه على مسند عرش المملكة محاولًا الاعتدال في جلسته، أعاد النظر لأويس من جديد دون أن ينطق بكلمة، ظهر وكأنه يسعى ليتنبأ إن كان أويس قادرًا على ما سيطلب منه، كان الجميع ينتظر حديث السلطان ولكنه لم يبدأ قط، نظر السلطان لوزيره يوسف بن كماشة، صاحب الوجه

الممتلئ واللحية البيضاء الكثيفة، الامر الناهي في انحاء البلاد لقرابة خمسة وعشرين عامًا، الكل يتغير حكامًا ورعية، وذلك الوزير دائم، يرث الوزارة حاكمًا بعد حاكم وملكًا بعد ملك، وجهه أبيض شاحب، وعيناه سوداوان قلقتان تمتلئان بالشك، يبدو خائفًا هو الآخر، لكنه أكثر ثباتًا، كان فطنًا ذكيًّا، فهم من نظرة السلطان مطلبه، يعرف أن أبا عبد الله الصغير ابن العشرينيات غير قادر على توجيه الكلمات القوية في الأمور الحاسمة وأنه حتمًا سيتركها له.

نظر ابن كماشة إلى أويس وقد رفع حاجبيه، واتخذ وضعية ملقي الخطاب المبجل:

- مرحبًا بك بين حضرة أمير المسلمين أعزه الله، وأعيان القوم وقادته وشيوخه، وإن الله يعلم قبل عباده أن في تلك الأيام العصيبة لا يمكننا سوى أن ندعوه بأن يرحمنا من الشر المحاط من كل جانب. تعلم كما نعلم، تتساقط مدن مملكتنا، حفظها الله، تباعًا وكان آخرها مدينتكم ثغر الأمة ونافذتها على العالم، مالقة، فك الله كربها من الاحتلال الغاشم.

صمت ابن كماشة لحظة ثم رفع ذراعيه موجهًا أنظاره إلى الأرض، كمن يحاول أن يستجدي البكاء ثم أكمل:

- أصبح العدو المتربص يحاصر غرناطة من كل جانب، يمرح بين أراضينا وينتهك خصوصيتنا، وينعم بخيراتنا.

رفع نظره تجاه السلطان وصاح بصوت متأثر:

- ولولا حكمة سلطاننا وحنكته لسقطت مملكتنا منذ زمن بعيد.

كانت أعين ابن كماشة وحركة جسده تنطلق من طيف إلى آخر بمرونة، وفي الأغلب بانفعال مفتعل، يغير وجهته من السلطان إلى الحضور ومن ثم يعود مجددًا إلى أويس:

- إن العدو يهددنا كل يوم، يطالبنا بتسليم المدينة وإعلان الولاء ولكننا نأبى، ما زلنا صامدين عاكفين، ولكن هذا الصمود لن يطول إلا بتدخل سريع من حلفائنا وإخواننا المسلمين من مماليك مصر المحروسة وسلاطين العثمانيين القابعين في إسطنبول، وقد أرسلنا طلبات العون مطلع العام الماضي إلى السلطان الأشرف قايتباي والخليفة العثماني بيازيد الثاني أعزهما الله وأطال عمريهما، وقد جاءتنا البشرى صباح اليوم، لقد أكد في خطابه لأمير المسلمين أنه قرر بالتنسيق مع السلطان قايتباي أن يعد العدة لنصرة الأندلس، ونطح أعداء الإسلام إلى جحورهم.

رفع الوزير ذراعيه محاولًا شحذ همم المستمعين ناظرًا إليهم:

- سترسل الخلافة العثمانية جيشًا يحاصر بابا الفاتيكان واعوانه في جزيرة صقلية لقطع إمدادات الكنيسة، وسيشارك سلطان مصر بجيش جرار من خير أجناد الأرض، يأتي في أسطول جبار يخترق ثغور القشتالة أبناء الصليب، ويطاردهم في شتى الأراضي ليعودوا من حيث أتوا.

حاول أويس أن يقاطع الوزير، ولكن ابن كماشة كان قد اندمج في أدائه وتقمص دوره، وأصبح وقفه عن الحديث مستحيلًا، قال وقد ارتسمت الجدية على وجهه موجهًا سبابته لأويس:

- لقد اختارك مجلسنا الموقر بقيادة أميرنا وحاكمنا أن تكون على رأس وفد سري، يتوجه لمصر في الحال لمتابعة تجهيزات العون والمدد، ومصاحبة الجنود من مصر إلى الأندلس.

صمت للحظات ثم تنهد، قال بصوت هادئ متجنبًا النظر إلى أويس:

- أعلم يا بني أنها مهمة ثقيلة، بل تكاد تكون أثقل المهام التي كلفت بها أحدًا في حياتي، ولكن عليك أن تدرك أن مصير الأمة قد أصبح في رقبتك.

لم يكن وقع الكلمات على أويس صادمًا، كان قد استنتج من كلمات الوزير منذ اللحظة الأولى أنه سيكلف بسفر إلى مصر بحكم عمله، وعمل أسرته في التجارة والنقل لمئات الأعوام، متنقلًا بين ميناء الإسكندرية ومالقة، وعلاقته القوية مع حاشية السلطان في قلعة صلاح الدين، ولكنه لم يكن يتوقع أن يكون على رأس الوفد، وأن يكون ذلك الوفد سريًّا، كان أمرًا مثيرًا للقلق وجالبًا للخوف.

تحدث أويس للمرة الأولى، حاول أن يطلق ابتسامة كاذبة مصطنعة لكنه فشل، نظر إلى السلطان موجهًا حديثه إليه:

- إن اختياركم لي لهو شرف كبير وحمل ثقيل، فرض لا نقاش فيه ولا جدال، ولكن اعذرني يا مولاي إن الفضول يملأ قلبي عن أسبابكم بتشريفي بتلك المهمة المصيرية.

قبل أن يتحدث الوزير باسم السلطان كالعادة، كان صوت جديد قد قاطعه مباغتًا، صدر من قلب الحضور حيث يقف قائد الجيوش، أبو قاسم عبد الملك، بدا أقل من هيبته المعتادة مرهقًا ومحبطًا، كان يرتدي كامل حليته العسكرية، ما عدا سيفه الذي تركه عند الحرس قبل الدخول على السلطان، قال لأويس بنبرة عسكرية حاسمة:

- إن خبراتك وشهرة عائلتك ونفوذها في مصر كان سببًا، وحفاوة لسانك سببًا آخر، وترشيح شيخنا وكبير تجار غرناطة، إبراهيم القيس لك، دعم

اختيارك، ولكن في الحقيقة وبدون رياء او مجاملة، هناك سببان رئيسيان هما أساس تكليفك، الأول أصولك الإسبانية وانتماؤك للمولدين، وهو أمر يحمل رسالة أقوى بأن الكل يستنجد، وليس العرب أو البربر فقط، من يتكبلون في عروشهم خوفًا من زوالها، وهو له من التأثير على حكام المسلمين، والثاني كونك من أهل مالقة المنكوبة هو سبب آخر لشحذ همم السلطان قايتباي وأتباعه.

تقدم القائد خطوة للأمام ثم استكمل حديثه:

- فتلك ليست المرة الأولى التي نطلب فيها العون من ملوك المسلمين، وكثيرًا ما خذلونا، وما نحتاج إليه هو التأكد من صدقهم وثباتهم، وهو ما لن يحدث إلا بإيقاظ إنسانياتهم الخاملة، بحكايات عما يواجهه المسلمون من تعذيب ودمار في بلاد الأندلس، وما حدث بالأخص في مالقة التي سقطت منذ شهرين تقريبًا.

رغم انتهازية الكلمات وقسوتها التي لا تخرج إلا من رجل عسكري صارم بلا مشاعر، فإن أويس تقبلها لما حملته من صدق وصراحة، لكنه أدرك في تلك اللحظة أنه قد أصبح في يوم وليلة قائدًا لوفد، هدفه إنقاذ أمة، ومهمة قد تودي بحياته إن عرف القشتالة من جواسيسهم، فاتبعوه حتى قتلوه، لكنها تكليف يحمل غاية عظيمة وأملًا أخيرًا قد ينقذ أكثر من نصف مليون مسلم معرضين لحصار مميت داخل غرناطة، وربما تكون البداية لإعادة الأراضي المنهوبة في لوشه ومالقة ووادي الآش.

نظر أويس إلى السلطان وقد ملأت الثقة عينيه، بعد أن شعر بأنه قد أصبح في منصب ربما يكون أعظم من منصب ذلك السلطان الصغير الجالس أمامه، فقد أصبح قائدًا فوق الجميع، وأن طلبه مجاب أيًّا كان.

تحدث بصوت هادئ:

- مولاي السلطان إن كان وطنيتي وجهادي يجبراني على قبول المهمة دون نقاش ولا جدال، فإنه من حقي أن أختار أعضاء الوفد الذي يرافقني.

لم يرد السلطان، لكنه أشار بيده رافعًا ذراعه بالموافقة على طلبه.

استجمع أويس قواه بعد أن ألقى نظرة على الحضور الصامت، والوزير المتشكك:

- إن سرية الوفد تحتم علينا ألا يزيد عددنا على أربعة أشخاص، وهو ما يكفيني لبدء رحلتي، أحتاج جنديًّا شجاعًا معروفًا بفروسيته وشجاعته، يكون حاميًا لنا، وقوة تدفعنا، وحنكة عسكرية تدعمنا وقت المحن، وشيخًا وقورًا،

وخطيبًا جليلا مشهودًا بحكمته وعلمه بامور دينه، واخيرًا اطلب منك يا مولاي السلطان أن تسمح لصديقي سهيل بن تاج الدين الإشبيلي أن يكون صاحبي في السفر، ورفيقي في الرحلة، فهو خير حافظ للسر، وقلبه عامر بالجهاد في سبيل الله، كما أنه عالم بركوب البحار وتجارة الموانئ.

ارتفعت أصوات المناقشة بين أعضاء المجلس تشاوروا وتحاوروا، اختلفوا وعلت أصواتهم حتى رفع الوزير ابن كماشة يديه، وصاح بحزم بعد أن همس السلطان في أذنه:

- لك ما طلبت، وفرنا لك أربعة آلاف درهم نفقات لرحلتك، وبعثنا معك هدايا من الذهب والزمرد والأحجار الكريمة، وبذورًا لأشجار تين ورمان وزيتون من أنقى الأنواع تقدمها هدية باسم السلطان أبي عبد الله بن محمد الثاني عشر إلى سلطان مصر والشام الأشرف قايتباي، وقد اخترنا لك كبير حرس قلعة الحمراء، يونس بن زيدون حاميًا لوفدك، والشيخ عبد الله الصباغ إمام مسجد المرابطين، عونًا لوفدك، ووافقنا على صديقك صاحبًا ورفيقًا.

استكمل القائد أبو قاسم ما تتضمنه الخطة:

- سيكون أمامك يومان للاستعداد، ستخرجون مع قافلة تجار الزيتون المتجهة إلى ميناء مدينة آلمرية، منفذنا الوحيد الآن إلى البحر، سيكون في انتظارك قائد حراس الحمراء، يونس بن زيدون الذي سيسبقكم بليلة، لتجهيز السفينة والانطلاق بإذن الله.

ختم القائد:

- وفقكم الله وأنقذ عباده من كل سوء.

عم الهدوء على الجميع من بعد ما أنهى القائد حديثه، لم يكن هناك ما يقال أو يزيد عليه، كانت عيون الجالسين في صراع بين الإحباط والأمل، الكل يخشى ضياع ما تبقى من دولة عمرها مئات الأعوام.

اقترب أويس من السلطان منحنيًا، قبل كتفه مودعًا، وتمتم بكلمات قليلة لطمأنته، نظر له السلطان بعينين مجهدتين، وكأنه قد استيقظ للتو من سُبات عميق، تحدث بصوت خافت للمرة الأولى:

- حماك الله من كل شر ستقابله.

***

(٣)

الكون كله يسير في ركاب واحد، قمر يدور حول الأرض، وأرض تدور حول الشمس، نهار يتبعه ليل، وليل يأتي بعده نهار، الكل يدور في فلك، والكل يحمل في طياته رغبات الشهوة والانتصار، تتدافع حبات الرمل المستقرة المسالمة، بعد أن شكلت كتائب من الكثبان الرملية عن أرضها من حملات أمواج البحر الهائجة، صراع يومي متجدد بين أمواج البحر الباحثة عن أرض تستقر بها، وكثبان الشاطئ الحالمة بعرش أكبر وأرض أوسع، اصطدام يومي بين قوتين عظميين، كلتاهما تبحث عما يملأ شهواتها، ويحقق لها المجد صولة على أعناق الطرف الآخر، تارة يتآكل الشاطئ، وتارة أخرى تنحسر فيها الأمواج، ولا تدوم العزة ولا ينتهي العراك.

فوق السماء تتصارع المذنبات والنجوم، تسبح بقايا الكواكب مع نيازك، الكل في مجرة واحدة حاضنة، الكون كله في صراع على البقاء، تضرب الشهب الكواكب، وتنفجر النجوم في وجه السواد الحانق، وتطوف المذنبات الصغيرة لتبطش بأي جسم خارج عن المنظومة الموضوعة.

تنقض الأسود على الغزلان، وتناطح الثيران الخراف، وتلتهم الحيتان صغار السمك، وتحوم الثعابين على الجرذان، تهجم النسور على الديدان، الكل يصارع من أجل الحياة، والكل يسعى لتحقيق غاياته، والجميع يبحث عن إشباع غرائزه في الإذلال.

ذلك حال الأرض يا بنيتي.. ولكنه ليس حالنا ولا حال أرضنا المباركة التي أكرمنا الرب بها، خالفنا موازين الحياة وقوانين الطبيعة، فكل ذرة على تلك الأرض اتفقت على تحقيق السلام، السحب لا تمطر إلا بحسبان والحيوانات لا تنقض إلا للبقاء على قيد الحياة، البحر هادئ راضٍ بما امتلك، والرمال ساكنة حامدة على رزقها، حتى البشر أقاموا القرى والبيوت، وحفروا القنوات والبرك، وسكنوا الجبال وعمروا السهول، تعارفوا وتحابوا وآمنوا بأن تلك الأراضي البلغارية ذات السهول الخضراء الشاسعة، وتلك الأنهار الطويلة اليافعة الممتدة بين قارتي آسيا وأوروبا، لتحفظ اتزان العالم وجيولوجيته القابعة داخل مملكة صوفيا الجميلة، قد خلقت من أجل العيش في سلام وأمان.

أتعلمين يا جنين يا ابنتي العزيزة وهبة الرب لهذا العالم، لماذا اخترنا أن يكون اسمك يعني العهد، لأننا عاهدنا الله، أنه لن تسفك الدماء في بلغاريا، سنعيش جميعًا تحت ظلال الخير في مملكة صوفيا، سنزرع أرضنا ونبت الورود، وسنلقي بشباك الصيد في بحر البلقان، ونعمر قريتنا الصغيرة

«بورغاس»، عالمنا الذي عاهدنا انفسنا اننا لن نتركه، لن نخطو باقدامنا خارجه، سنصلي في كنائسنا داعين الرب بأن يلقي بروحه المقدسة علينا، لننعم بالسلام والرحمة وليحمينا من رغبات البشر والشر القابع في نفوسهم.

نعم يا جنين إنه حلم، حلم جميل، عشنا فيه ولكنه لم يدم، جاء من يدَّعون الإيمان، ليفسدوا سنوات من السلام، ليحلوا لعنات الدم والقتل على بلادنا، باسم الرب استباحوا الأراضي ونهبوا البيوت، هدموا الكنائس وأقاموا بدلًا منها المساجد، واستعبدوا أصحاب الأرض وأذلوا أهلها، ألغوا نظامنا ليحيوا نظامهم، وحاصروا ديننا ليكرموا دينهم، وبخسوا لغتنا لتنتهض لغتهم.

قالوا لنا يا ابنتي أن ديننا وعرضنا محفوظ، شكلوا نظامًا خاصًّا بنا سمُّوه الملِّي ليحكم بيننا بما أنزله ديننا، صدقناهم فعاهدناهم، فنقضوا العهد، منعوا احتفالاتنا وألغوا تراتيلنا، وجعلوا لنا لباسًا يميزنا عمن أسلم منا، فرقوا بين أبناء الوطن الواحد، غابوا ثم عادوا من جديد ليحكوا لنا عن أمان زائف، بجيش قوامه أولادنا لقبوه جيش الانكشارية، فرحنا بأنه أخيرًا سيكون لبلادنا درع وسيف، صدقناهم فكذبوا، أخذوا طفلًا من كل أسرة عنوة، رحلوا بهم لإسطنبول، غابوا لعقود ولا نعرف مصيرهم، مُنعوا من زيارة أسرهم وأُجبروا على التأسلم ثم أصبحوا حماة لسلطان العثمان، ودرعًا وسيفًا للأمراء والأعيان، إنها تُسمى الدوشيرمة في لغاتهم يا عزيزتي، فاحذريها.

عاهديني يا جنين، أيتها الملاك الجميل، يا خير من أنجبت، وأحن من أحببت كما عاهدت آبائي وأجدادي، كوني خير حافظ لأخواتك، وراعٍ لأبنائك، ولا تتركي بورغاس فهي وطننا، إن خرجنا منها لن نحيا بعدها أبدًا.

***

(٤)

الإسكندرية

مرت ثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا، ركبنا فيها أعظم البحار وأعلى الأمواج، تناطحنا بين المدن من الألمرية إلى طنجة، ومنها إلى قابس ومن قابس إلى طرابلس، حتى وصلنا اليوم إلى الإسكندرية، رحلة طويلة تحمل في طياتها أحلام وأماني الآلاف، يحلمون بأن يحملوا لقب «الحاج» أعظم الرتب وأتقاها، فهو اللقب الوحيد الذي لا يحتاج أن تكون وريثًا من سلالة ملكية ولا محاربًا بارعًا تغزو أحراش المدن، هو اللقب الذي يكاد يناطح ألقاب السلاطين والملوك، تقام لحامله عند عودته الأعياد والمحافل.

كان الأنس مفتاحًا لجميع الرحلات، يجمع كل حاج وكل مشتاق إلى بيت يزوره، مسلمون من أعماق أفريقيا يتجهون إلى بلاد الحجاز، حيث الكعبة المشرفة بمكة، وزيارة قبر الرسول بالمدينة المنورة، ومسيحيون جاءوا من سهول أوروبا شادين الرحال إلى الشام، قاصدين كنيسة القيامة ببيت المقدس والاغتسال في نهر الأردن، ويهود شقوا الطرق ليمروا على جبل طور سيناء، وهيكل سليمان المفقود، كل تلك القوافل البحرية، اجتمعت لتؤنس وحشة الطريق ووعورته، لتصب إلى وجهتها قبل الأخيرة مدينة الإسكندرية العريقة، صاحبة الوجه الجميل، والشوارع المستقيمة كخيوط الحرير، تضمد لكل حاج جروح سفره الطويل، وتخفف وطأة سعيه الصعب، تجمعهم بين شاطئها ومعمارها الذي شمل أجمل ما انتهت إليه الحضارات، وأعظم ما وصلت إليه الأمم، جمعتهم الإسكندرية جميعًا دون تمييز، قبل أن يفرقهم رجال الدين، وأصحاب الملل إلى قوافل جديدة، كلٌّ يذهب إلى وجهته.

كان موسم الحج إلى بيت الله الحرام قد اقترب، شهر شوال قد حل، وأيام قليلة وتبدأ قوافل الحج تشد رحالها مخترقة صحراء مصر الشرقية، لتجتاز البحر الأحمر، ومنه تخطو إلى نهاية الطريق وتطأ أقدام الحجاج الأرض المباركة.

كان بوق النفير العام يضرب كل مسمع بالإسكندرية في هذا الوقت من كل عام، أتى الناس من كل حدب وصوب وامتلأت الشوارع بالحجاج والتجار، أسواق لكل سلعة وبضائع من كل صنف، جموع من المصدرين والمستوردين، ومئات من طالبي العلم جاءوا من كل بقاع الأرض، جميعهم وقفوا عند باب البحر المطل على ميناء شرق المدينة.

كان وقع الزحام الشديد على القائد ابن زيدون، وإمام مسجد المرابطين الشيخ الصباغ صادمًا مهيبًا أكثر من وقوع نظرتهم الأولى على قلعة الأشرف

قايتباي الفريدة التي تجذب انظار كل واصل لتحقق للسلطان غايته، رمزًا للمحروسة، تواجه الأمواج قبل الأعداء بحجارة جيرية صلبة في دواخلها بقايا منارة الإسكندرية الإغريقية المنهارة، أسوارها عملاقة يصعب على العين التقاطها من أول برهة لنهايتها حيث تقبع الأنشاط والمدافع، ولكن في النهاية كانت تلك التجمعات، وتلك الأعداد من البشر، كافية لمحو أي من علامات ذهول أخرى بالمدينة.

ظل أويس وسهيل والشيخ الصباغ والقائد ابن زيدون منتظرين على مقدمة السفينة، يراقبون حركة البيع والشراء ومشاجرات التجار، وحركة الحمير والجمال والبغال الناقلة للبضائع، كان الصباغ وابن زيدون مفعمين بالذهول.

حاول سهيل أن يكسر ذهولهما الذي اعتاده هو وأويس منذ نعومة أظافرهما بين رحلات التجار مع أبويهما حتى أصبح جزءًا من شكل المحروسة ومدنها، قال بصوت مرتفع ليغطي على أصوات الباعة:

- والله لو نقلنا هذه الجموع إلى غرناطة بدلًا من مكة، لتبول القشتالة في سراويلهم قبل أن تصل السفن إلى اليابسة.

تابع سهيل جملته بضحكات متجلجلة، أضحكت الحاضرين أكثر من كلماته:

- علينا أن نبدأ رحلتنا إلى القاهرة بأسرع وقت، ولا مكان للانتظار والمراقبة، فالسلطان في انتظارنا.

بدأ الأربعة مسعاهم لاجتياز الكتل البشرية باختراقها دون أن يفترق أحد عن الآخر، كانت الجموع تركلهم بقسوة، وعربات البضائع وحركة البغال تقطع طريقهم وتجعل من الزحام أمرًا لا ينتهي، كلما اقتربوا إلى باب الخروج من الميناء، زادت الركلات واشتد الصراع، كان الاتفاق هو العبور للوصول إلى سوق الجمال حيث يمكنهم اللحاق بقوافل السفر إلى الفسطاط.

لم يكن الأمر هينًا، ولم يكن اجتياز كتل البشر في الميناء بسلام نهاية المشقة، بل كان بداية رحلة جديدة بين متاهات الإسكندرية في شوارعها المنسقة المتوازية، مال أويس على سهيل وهما يحاولان الكشف عن الطريق الصحيح:

- ألم يكن الإسكندر الأكبر عظيمًا بحق، صنع معمارًا بارزًا وتخطيطًا فريدًا للطرق منذ ألف عام، يا له من داهية جمع بين موقع فريد وجو مثالي تلاقت فيه مياه أفريقيا العذبة مع بحار أوروبا المالحة، لتشكل في النهاية مدينة تحكم الأرض.

حاول سهيل أن يجاري أويس في حديثه، لكنه لم يعرف من أثر صدمته فلم

يكن الخروج من زحام الميناء إلا واجهة تخفي خلفها زحامًا اكبر واعدادًا اكثر من كتل بشرية، اصطفت في الساحات المجاورة والشوارع المحيطة لتشكل أسواقًا موسمية خاصة، تعرض مستلزمات الحج والسفر.

اصطف تجار سوق اللجامين بجوار سوق المرحلين، لبيع لوازم السفر وقواعد الركوب من اللجام إلى الخيام، إلى جوارهم افترش أصحاب سوق الشماعين الأرض ليبيعوا الخضروات والفاكهة، وصاحبهم أبناء سوق المغربلين من بائعي اللحوم والدواجن المقددة، تعالت أصوات التجار مع المشترين، الكل تنافس في رفع صوته على الباقين، امتلأت الأسواق بصراعات البيع والشراء والجدال للوصول لأفضل الأسعار.

كان الأمر أشبه بمعركة حربية شرسة، يصرخ الفريق الأول من المشترين فيها من فرط الحماس مطالبين التجار بعدم استغلال حاجتهم للسفر برفع الأسعار، بينما يرد الطرف الآخر من التجار بأن العرض والطلب هو الفيصل بيننا، لم يفلح الجدال وتراشق الأصوات مع الألفاظ، فكان الأمر منذرًا بقيام مشاجرة كبيرة لا تُعلم عواقبها، صرخ أحدهم في وجه تاجر:

- تبيع قطعة القماش لي بخمسة دنانير بعد أن أعطيتها للرجل الذي يرافقني بثلاثة دنانير فقط، هي كوسة؟

- أنا حر، بضاعتي وأبيعها حسب العرض والطلب!

- لعنة الله عليك أيها النجس، لا بد أن أمك يهودية!

فما كان رد فعل التاجر إلا أن أخرج خنجره هاجمًا عليه ليطعنه، تدخل الناس لوقف نزيف الدم، عمت الفوضى وأصبح الجميع قسرًا داخل مشاجرة، تدمر كل ما يقابلها من البضائع، وتصيب المارة من كل فريق، ولا رابح فيها سوى اللصوص.

ظل الشجار ممتدًّا لدقائق، تلطخت الأيادي بالدماء، وتناثر ما تبقى من بضائع بين الدروب حتى صرخ أحدهم بأعماق حنجرته:

- احذروا جنود الحسبة قادمون!

كانت تلك الكلمات القليلة كافية لأن تعيد للجميع عقولهم، توقف الشجار الدموي فجأة وبدون تمهيد، حل السكون واختفى السلاح، بحث التجار عن بضائعهم، وحاول آخرون تنظيف ملابسهم من الدماء المتساقطة من الرؤوس والأبدان وأصبح الترقب يملأ المكان، كان مشهدًا عبثيًّا، أصاب الأصدقاء الأربعة بالذهول، بسبب سرعة هذا التحول من شجار دامٍ مميت لهدوء وسلام مفتعل، من هم هؤلاء الجنود الذين ألقوا الرعب في قلوب الجميع!

وصل اخيرًا جنود الحسبة المنتظرون، كانوا فريقًا من الفرسان ارتدوا حللا منمقة، واعتلوا أحصنة متينة، لم يزد عددهم على ستة، بدوا من الوهلة الأولى أنهم ليسوا من أبناء تلك البلاد، ولا ما حولها، بشرة بيضاء ووجه أحمر وشعر ناعم بني، ملامح وجوه دقيقة وأنوف نحيفة، كانت ملابسهم الفخيمة تدل على أنهم ليسوا مجرد جنود حافظين للنظام والقانون.

تحرك الجنود بعد أن ترجلوا من على ظهور أحصنتهم، مشوا ببطء بين طرقات الأسواق بهدوء وحذر، والجميع صامت يتجنب النظر، لا صوت يعلو على أصوات حركة أقدام الجنود وأنفاس الخيل، ظل سهيل واقفًا يراقب الجنود غير مبالٍ، اقترب أحد الحسبة منه بحصانه، حتى جذبه أويس سريعًا ليبتعد عن طريقه:

- اجتنب هؤلاء المماليك الجراكسة، فهم غاضبون ولا يفرقون.

ظل الفرسان يتجولون لدقائق بين الأسواق المختلفة، يبحثون عن شيء لا أحد يعلمه، لكنهم بلا شك تأكدوا أن الغضب قد هدأ، وأن النظام قد عاد، صاح أحدهم بلغة عربية ركيكة، بدا كأنه قائد تلك السرية الصغيرة:

- الكرباج سيكون لساننا معكم في المرة القادمة، فاحذروه.

عاد القائد لهدوئه مجددًا، ألقى بعينيه نظرة سريعة بين المصابين حتى رأى شابًّا ربط معصمه محاولًا وقف النزيف، كان ذلك هو الشخص المطلوب لتوصيل الرسالة، العقاب من جنس العمل وخرق النظام يصاحبه أشد عقاب، أشار القائد بسبابته مشيرًا على الشاب المختار، تحرك الجنود بسرعة، قبضوا عليه، قيدوا ذراعيه ثم ربطوا قدميه بطرف حبل غليظ، والطرف الآخر ربط بأحد الأحصنة ثم رفع القائد يديه إلى أعلى مشيرًا لبقية الجنود بالرحيل، انتفض الجنود فوق أحصنتهم سريعًا، ومن خلفهم الشاب المسحول وسط صمت رهيب.

رحل الجميع حتى اختفى غبارهم عن الأعين، إلا أحدهم ظل واقفًا يتأمل وجوه الرفقاء الأربعة دون أن يهتز له جفن، تحرك ببطء فى اتجاههم ثم توقف فجأة، ناظرًا إليهم، صاح بحماس:

- أهذا أنت أيها القائد ابن زيدون.. ألا تتذكرني.. أنا عثمان الألفي القرطبي.

أعاد الجندي النظر بتركيز حتى ملأ عينيه ليتيقن بأنه الرجل صاحب الهوية، ثم انحنى الجندي أمام ابن زيدون:

- إنني تلميذك النجيب وخادمك الوفي، أيها الفارس العظيم.

بدت ملامح القائد ابن زيدون تشير إلى انه ايقن شخصية من امامه، صاح:

- عثمان، أهذا أنت حقًّا.

ثم احتضنه بشدة:

- مرت عشرة أعوام على رحيلك.. انظر لنفسك لقد أصبحت فتيًّا قويًّا وصاحب منصب رفيع، ما الذي جاء بك إلى مصر، وما حكاية عثمان الألفي تلك؟

تحدث عثمان وقد بدت عليه سعادة غامرة:

- قصة طويلة يا سيدي، ولكن مفادها أنني وقعت أسيرًا، ونحن ندافع عن حصن لوشة، في يد القشتالة منذ عدة أعوام، أُهنت وعُذبت وتعرضت لأبشع المحن حتى باعوني عبدًا، يُضرب ويُجلد ويُهان، فاشتراني أحد السادة من المماليك الجراكسة خادمًا له، ثم ألحقوني بالجندية بعد أن أعجبوا بمهاراتي في الفروسية والمبارزة، والأهم أنني لا أشبه المصريين المستعبدين في تلك البلاد، فأعطوني مكانًا بينهم ولقب الألفي حتى يكون اسمًا جركسيًّا يشبههم.

لم يترك ابن زيدون عثمان حتى حكى له عن تفاصيل معاناته من القشتالة إلى المماليك، كان سعيدًا فخورًا بتلميذه أمام بقية البعثة، ظلوا يتسامرون لساعات، تعرف عثمان على البقية، وكشفوا هم عن مهمتهم الحرجة بضرورة مقابلة السلطان في أسرع وقت، فأصر عثمان أن يكون دليلهم إلى القاهرة، ويرفع أي عقبات أمامهم حتى الوصول إلى السلطان، ولكنه رفض أن يرحلوا اليوم، طالبهم بالانتظار إلى الغد، رافضًا الإفصاح عن سببه، حاول ابن زيدون الاستفسار عدة مرات، إلا أن عثمان اكتفى بقوله:

- غدًا نلتحق بالركب المشرف إلى القاهرة، لمشاهدة يوم الستار الأعظم!

***

القاهرة

أبريل ١٤٨٩

كان الصراخ مدويًا ممتدًّا بين أركان الساحة الكبرى ودروب الأبراج الثلاثة عشر للقلعة، حتى جعل كل من بالقصر يتلصص إلى مصدر الصوت الباكي المتوسل بالرحمة، كان الأمر واضحًا، منبع الصوت هو غرفة الأميرة الصغيرة، ابنة السلطان قايتباي. ولكن من يجرؤ على إذلالها وضربها، من له الحق أن يبطش بها، هل أصابها مكروه، هل لُعنت بعد العار الذي وصمت به العائلة، بعدما قبض عليها تحاول الهرب مع المملوك الجركسي الوسيم، طوخان جقمق.

عاد السكون ليملأ محيط الغرفة وما حولها، ولكنها لم تكن سوى دقائق قليلة حتى سمع الخدم المتنصتون صوت الكرباج يدوي من جديد، ومن خلفه تتعالى الصرخات المتألمة، تفزع المستمعين قبل الأميرة المستغيثة، تتوقف الصرخات فجأة، وفتح باب الغرفة أخيرًا مطلقًا صوت صرير يدوي أيضًا في المكان، حاول كل من وقف متلصصًا بجوار الغرفة أن يهرب، انتفضوا في كل اتجاه، البعض تظاهر بالعمل بجوار باب جناح الأميرة والآخر قفز مهرولًا إلى خارج الرواق.

من خلف الباب ظهر السلطان منهمكًا شاردًا يسير بخطوات متأنية، جسده العريض لم يسعفه في اتزان جسده المترنح، كان وجهه يحمل جميع تناقضات المشاعر، وكأنه قد انقسم إلى شطرين، شطر حزين ضعيف متخاذل وآخر قاسٍ حاقد كاره، عين الشطر الأول تذرف الدموع، تتساقط على اللحية البيضاء المحناة بالأحمر، والعين الأخرى باردة ساكنة تطلق قذائف من الغضب، شفة الجانب الأيمن تبدو منكسرة، حزينة تلعن الأيام التي جعلته ينتقم من ابنته الصغيرة بهذا الشكل وبتلك الطريقة، والجانب الأيسر مبتسم، يبدو راضيًا بعد أن أفرغ شحنات الغل المكبوتة على ظهر ابنته المجلودة.

نجح السلطان أخيرًا في الوصول إلى قاعة عرشه الضخمة الواقعة في منتصف قصره العالي في أحضان قلعة صلاح الدين الجبلية المشرفة على مدينتي القاهرة والفسطاط، كان العشرات من العامة ينتظرونه لإنهاء حاجاتهم، ولكنه لم يكن في حالته المعتادة، يده اليمنى ترتعش بشكل ملحوظ، لا تمتلك السيطرة على المسبحة التي تحملها، تحاول أن تتمالك نفسها بإحكام القبض على حباتها الصغيرة المصنوعة من المرمر دون فائدة، ولكنها لا تتشابه في شيء مع قبضة يده اليسرى القوية ذات العروق البارزة، تحمل كرباجًا صوماليًّا غليظًا، ما زالت دماء ابنته لم تجف من عليه.

لم يكن في استطاعة أحد أن يقترب من السلطان في تلك اللحظة الفريدة

سوى وزيره المحنك ابن السبعين عامًا صاحب الحكمة الوفيرة والولاء الغزير، قانصوه المحمودي، اقترب من السلطان ببطء وتريث، همس في أذنه بصوت عذب هادئ: - كيف حالك يا مولاي؟

رفع السلطان يده دون أن ينطق حرفًا، يأمره بالابتعاد وبدء عرض الطلبات.

وقف الوزير قانصوه في منتصف القاعة الرخامية التي زينت بأجمل الورود، وتزكت بأرقى العطور حتى ملأت سقف القاعة شديد الارتفاع، وتجلت بين الأعمدة العديدة التي تحيط القاعة من كل اتجاه، موجهًا حديثه للسلطان ولكن بصوت مسموع للحضور: - بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، نبدأ جمعنا المشرف بحضور مولانا المعظم وقائدنا المبجل لسماع الشكاوى وقضاء الحاجة، يا مولاي جاءتنا الشكوى الأولى، أن قرية من أسيوط تأبى أن تدفع الضريبة السلطانية الجديدة المفروضة على خراجهم، وتطالبك بأن تعفو عنهم أو تؤجلها حتى حين، فبماذا تأمرنا يا سيدي؟

لم يفكر السلطان كثيرًا، رفع السلطان يده اليسرى التي تحمل الكرباج قائلًا بحسم: - اجلدوا فريقًا منهم مائة جلدة حتى يستقيموا.

ثم حرك بيده اليمنى إحدى حبات مسبحته قائلًا بصوت يسمعه الجميع: - سبحان الله.

ابتسم الوزير وكأنه كان يعلم الإجابة قبل أن تخرج من فم السلطان ثم عاد يقرأ الشكوى التالية: - قافلة من الحجاج يا مولاي قادمة من أحراش أفريقيا ضلت طريقها، واستولى اللصوص على زادها ومؤنها، ويطلبون السماح بأن يستكملوا طريقهم إلى الحجاز دون دفع رسوم المرور.

قبض السلطان على لحيته، ساوى شعيراتها عدة مرات ثم قال:

- املأوا قافلتهم بالعتاد، وأكثروا من الزاد، وأعطوهم ضعف ما سرق منهم من زكاة بيت المال.

ثم حرك حبة أخرى من مسبحته وصاح:

- الحمد لله.

انتقل الوزير إلى قراءة الشكوى الثالثة:

- يا خليفتنا ومشكاتنا، إن قاضي القضاة حكم بتقسيم ميراث المرحوم بإذن الله، شيخ تجار الذهب، الحاج محروس زين العابدين بين أولاده الأربعة، ويطلبون مباركتك.

- أبلغهم بأن ثلث الميراث لبيت المال وثلثه الآخر لخزائن القصر والثلث

الاخير لهم.

تعجب الحضور من القرار الظالم، تعالت الصيحات وتبادل الأفراد الجدال والنقاش فجأة، حاول الوزير تهدئة الوضع وإسكات الحاضرين قائلًا: - ولكن يا مولاي أليس قليلًا عليهم أن يأخذوا فقط ثلث ميراثهم.

ألقى السلطان نظرة على الحاضرين، وقد احمر وجهه وامتعضت جبهته، ثم حرك حبة جديدة وقال بصوت جهوري حاد: - لا حول ولا قوة إلا بالله.

هدأ الجميع خوفًا من بطش السلطان، بينما انتقل الوزير سريعًا إلى الشكوى التالية: - إن أصحاب بيوت حي قيروان بالفيوم التي تجاور كنيسة العذراء يستغيثون بك لهدم الكنيسة، بعد أن تآكلت أعمدتها وسقطت واجهتها، وأصبحت أرواحهم وأرواح أبنائهم مهددة بسقوط الكنيسة عليهم.

تعود ملامح قايتباي إلى هدوئها من جديد، ويبتسم السلطان قائلًا بصوت مفعم: - معاذ الله، رسول الله يأمرنا بأن نستوصي بالأقباط خيرًا، فنهدم كنائسهم، لا والله بل أصلحوا الكنيسة المهدمة وعمروها واحموها من السقوط.

عادت أصوات الجدال والنقاش من جديد، كان القرار كفيلًا بتعبير الحاضرين عن تعجبهم بهذا التناقض في قرارات السلطان، وهذا المزج الغريب بين الرحمة والظلم، لم يبالِ السلطان بأحاديث الحضور، وقف فجأة، فسكت الجميع، ثم أشار إلى وزيره بأن يتبعه إلى غرفته الملحقة بالقاعة، صاح الوزير ناظرًا للحضور: رفعت الجلسة، تاركًا إياهم يضربون أخماسًا في أسداس.

***

(٦)

غاصت الجمال بأخفافها بين حبات الرمال، تباطأت الحركة واشتد الحر، احمرت الجبهات من طيوف الشمس الموجعة، ظهرت من بعيد بقايا مدينة صفراء اللون تعفرت بالأتربة، ومن خلفها خيام متهالكة وبقايا عظام لكائنات طمس الزمن هويتها، تعفنت وتحللت، لم يكن هناك أي مظاهر حياة سوى حركة لأغنام شاردة، تساقطت فروتها وذابت جلودها بعد أن انعدمت المياه، وتقلصت الحشائش والأشجار، تبدو أنها قد ضلت طريقها في تلك الصحراء المقفرة.

كانت الأيام والساعات الطويلة تمر، ولا تبدو القافلة قد أشرفت على نهاية طريقها، تزداد الأيام صعوبة عليهم ويقل الزاد بينهم، أنهك السفر أجسادهم، ورغم وعود الجندي المملوكي لسهيل وأويس والقائد ابن زيدون، بأنهم قد أصبحوا الآن على بعد كيلومترات قليلة من الوصول لمدينة القطائع الملاصقة للفسطاط، لا أحد يصدق أن تلك الصحراء البائسة يمكن أن تطفو بينها مدينة أو بيت واحد.

حاول الجندي أن يكسر الملل الهائم:

- ألم يسأل أحدكم نفسه ما معنى كلمة «كوسة» التي تسببت في اندلاع تلك المعارك الدامية التي دمرت أسواق الإسكندرية؟

رد أويس:

- أعرف أنها تعني المحاباة والمجاملة على حساب الآخرين، يحبها المصريون كثيرًا، ودائمًا ما أسمعهم يقولونها، لكني لا أعلم ما ارتباط الكوسة بالمحاباة.

ضحك عثمان قائلًا:

- إنها قصة مثيرة حقًّا، حدثت منذ عشرات الأعوام، كانت القاهرة تغلق أبوابها كعادتها مع غروب الشمس ويمنع الدخول إليها حتى الصباح، وعلى رأس هؤلاء التجار وبضائعهم، ولكن ثمة استثناء كان يُمنح لتجار الكوسة، وذلك لأنها من الخضروات سريعة التلف، ولذا كان يسمح لبائعي الكوسة فقط بالدخول والمرور من الأبواب في أي وقت. وفي إحدى الليالي ثار التجار وتذمروا وصاح أحدهم بصوت عالٍ، قائلًا: «آه ما هي كوسة»، ومن هنا صار المصريون يستخدمون هذا التعبير كناية عن أي شيء يقوم على المحسوبية والمحاباة.

اعجبت القصة الحاضرين، هزوا رؤوسهم وابتسموا، لكن التعب كان قد هدّ قواهم، حاول عثمان أن يرفع من آمالهم مجددًا، ويزيد من شغفهم قبل الوصول إلى القاهرة، أشار بسبابته وهو يصيح بصوت جهوري ملأ صداه صحراء الوادي: - انظروا يا سادة إلى تلك المباني الهرمية العملاقة!

سكت عثمان قليلًا حتى شعر بأن الذهول والفضول قد امتلكهم، فاستكمل متباهيًا بنفسه وعلمه: - قليل من الناس من يعرف أصل تلك الأهرامات القديمة، يقولون إنها بنيت منذ قرون بعيدة، ولا أحد يعرف أسباب بنائها ولا ما فيها ولا كيفية دخولها.

عاد الجندي إلى سكوته ليزيد من حماس المستمعين، تاركًا فضولهم ينسيهم التعب الذي انتابهم من وعثاء السفر.

صاح سهيل: أخبرنا يا عثمان عن تلك المباني العظيمة التي لم أر مثلها من قبل.

- سأقول لكم، ولكنه سر عظيم عليكم حفظه، لقد عرفت من علمائنا الأجلاء...

هزوا رؤوسهم باهتمام وتابع عثمان:

- أنهم توصلوا أخيرًا بعد دراسات استمرت لأعوام أن تلك البيوت هي لقوم ثمود.... نعم يا سادة قوم ثمود «الذين جابوا الصخر بالواد».

صاح الشيخ:

- وكيف يعقل ذلك يا أخي؟

- لقد فسر العلماء القصة بأنه لا يمكن لبشر عاديين أن ينقلوا تلك الحجارة الضخمة إلى تلك المنطقة النائية التي لا يوجد فيها صخر ولا حياة إلا قوم أشداء لم يخلق الله مثلهم من قبل، وعندما بحثوا، لم يجدوا أجدر من قوم ثمود على فعل ذلك، ولقد تركه الله عظة وعبرة لأولي الألباب.

قاطع أويس:

- ولكن أين هو ذلك الوادي الذي جلبوا منه الصخر؟

- يقولون إن الوادي هنا هو وادي النيل الذي نقلوا به حجارتهم بالمراكب العتية القوية.

قاطع صوت الشيخ الصباغ المرتبك الحديث، مطلقًا صرخة قوية سمعها كل من بالقافلة: - قل أعوذ برب الناس.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ما هذا

المسخ العجيب.. ما هذا الصنع المهيب.. اسد براس إنسان، والله لم ار كفرًا كهذا من قبل، يعبثون بخلق الله، هنيئًا لهم الدرك الأسفل من النار.

ضحك عثمان من رد فعل الشيخ، بينما استمر ذهول الباقين، قال عثمان محاولًا تهدئة الشيخ: - يا شيخنا الجليل إنهم يسمونه «أبو الأهوال» وهو في الحقيقة صنم لا نعرف ما فائدته، طالما يحذرون الأطفال من الاقتراب منه خاصة في ساعات الليل، بعد أن تناثرت حكايات أطفال ذهبوا للهو في تلك المنطقة ولم يعثر عليهم قط!

تحدث سهيل:

- وماذا يعتقد الناس؟

- البعض يدعي أنه بيت للجن والشياطين وآخرون يقولون إن هذا الصنم تدب فيه الحياة ليلًا ليعمل حارسًا، يلتهم كل من يحاول الاقتراب منه، ولكن على أية حال، سواء كانت تلك القصص حقيقة أم خيالًا، لا تخافوا فإنه في الصباح لا يضر ولا ينفع.

حاول أن ينهي القائد ابن زيدون الحوار الدائر الذي لم يحاول المشاركة فيه، مكتفيًا بالتأمل في صنع تلك الأحجار، قائلًا بسخرية: - انظروا يا سادة أمامكم واتركوا تلك الأصنام لأصحابها، فقد عاد الإسلام إلينا من جديد وظهرت مآذن مساجد القاهرة من بعيد.

***

(٧)

توجه السلطان إلى غرفته وتبعه الوزير بخطى سريعة، ليبلغه بآخر الأخبار قبل أن يبدأ السلطان وصلته اليومية في قراءة القرآن والتسبيح حتى صلاة العشاء، اجتاز الوزير باب الجناح الملكي المصنوع من الذهب، غاصت قدماه في البساط الحريري الذي يفترش منتصف الجناح، وسجاجيد الريش الفارسية، وجلود التماسيح السودانية التي تغطي كل أجناب الغرفة، حاول الوزير البحث عن السلطان، ألقى بنظره على الفراش المصنوعة قواعده من عاج أفيال بلاد السنغال فلم يجده، نظر إلى يساره حيث خزانة ملابسه الضخمة المصنوعة من أجود أخشاب بلاد سمرقند، التي تكفي لكساء شعوب وقبائل، ولكنه لم يكن هناك أيضًا.

كان السلطان جالسًا في شرفته على الأرض كعادته، يراقب بكل تركيز وحرص حركة الجنود في ساحة القلعة، وحملة الغسيل والنظافة في المساجد المحيطة، خروج ودخول أصحاب المظالم إلى الدواوين، وأصوات ضربات اللحامين والحدادين من خلف أسوار ورش السلاح.

يراقب السلطان كل تلك المشاهد في صمت حتى يصل بأنظاره إلى سور القلعة ومن خلفها مقابر المسلمين، وما إن تلامست تلك المقابر مع قلبه، حتى تحول السلطان المعظم إلى طفل هائم، شارد وأحيانًا باكٍ، ينظر إلى تلك القرافة لساعات متصلة، يراقب ما فيها من بكاء الرجال وصرخات النساء وأدعية الشيوخ وأصوات الفؤوس وهي تضرب الأرض، لتفتح فمها لابتلاع جثث الموتى ومواراتها الثرى.

كان كلما وصل الوزير إلى تلك الشرفة ليصاحب السلطان، تعجب من أمره، فقد ترك أجمل بقاع القلعة الضخمة التي بناها القائد بهاء الدين قراقوش خادم صلاح الدين الوفي، على أعلى تلال القاهرة، لتكون أعظم وأبهى ما بنى المسلمون، لؤلؤة من الجبل تشرف على القاهرة الفاطمية من الجهة الشمالية، وعلى مدينة الفسطاط والقرافة الكبرى وبركة الحبش من الجهة الجنوبية، ويكون النيل زينة لها فى الجهة الغربية وجبل المقطم ظهرها وسدها المنيع على الجهة الشرقية، لم تكن تمتلك القلعة بقصورها العديدة وأجنحتها المديدة، أكثر من المناظر الخلابة لأجمل ما يمكن أن تراه العين من بيوت وأسواق القاهرة الفاطمية، بمساجدها المشيدة البهية ونيلها المنحدر وأراضيها الخضراء الشاسعة، ولكن السلطان اختار أن تكون وجهته القرافة بكآبتها، ورائحة الموت التي تحوم حولها.

حاول الوزير سريعًا أن يقطع تلك الحالة التي وصل إليها السلطان قبل أن

تصعب العودة منها:

- أيها السلطان المعظم والحاكم الجليل، لقد جاءنا النبأ بأن السفارة الأندلسية القادمة من غرناطة قد وصلت منذ أيام إلى ميناء الإسكندرية، وهم في طريقهم إليك يا سيدي، لاستطلاع آخر ما توصنا إليه مع الحاكم العثماني، السلطان بايزيد لإسعاف غرناطة المنكوبة.

تنهد السلطان، بدا وكأنه محمل بعبء ثقيل وقلة حيلة كبيرة:

- يا قانصوه لقد أرسل لنا بايزيد، وأرسلنا له عشرات الخطابات بضرورة إلقاء خلافاتنا جانبنا، وإنقاذ ما تبقى من أراضي المسلمين في الأندلس بعد أن تساقطت المدن واحدة تلو الأخرى، وعلى الرغم من تأكيدات هذا السلطان بأنه على استعداد لنجدتهم فإنني أشك في الأمر.

- ولكنه يا مولاي أعلن في آخر رسائله أنه يعد جيشًا جرارًا لغزو صقلية، وإشغال بابا الفاتيكان وقواته عن إمداد الملكين الكاثوليكيين إيزابيلا وفرناندو، بينما نحن نتجه إلى غرناطة لنقضي على جيوش الكفار.

- ورغم ذلك فإنني لا أصدقه، فليست تلك تصرفاته ولا غايته، فهو يحلم بأن يعتلي عرش كل ممالك المسلمين، وأول تلك العروش هو عرش مصر والشام وبلاد الحجاز، وليس من شيمه أن يترك أحدًا يعتلي مشهد القائد عليه، فكيف يعقل أن يتركنا نذهب نحن لننقذ غرناطة، بينما يقوم هو بدور المناورات العسكرية!

- أتعتقد أنها المكيدة يا مولاي؟

- إني لأظنه يخطط لشيء كبير، وأخاف على ملكي وملك أولادي من الزوال، أنسيت حرب الخنجر التي استمرت لعامين بيننا وبينهم؟

- ومن يا سيدي ينسى ذلك الخنجر الملعون الذي سرقه قطاع الطرق من قافلة قادمة من بلاد الهند، كانت تحمل هدايا للسلطان بايزيد، ومنها ذلك الخنجر المصنوع من الألماس.

- إنني حتى اليوم لا أفهم لماذا كان كل ذلك الغضب، هل سرقة قافلة في أراضٍ تحت لواء مملكتي تكون سببًا لحرب؟

- يا مولاي أنت تعلم أنه كان يحمل لنا غلًّا وكرهًا، وكان يستعد لغزونا وتحقيق أطماعه على أية حال، منذ أن آوينا أخاه الأمير جم وسمحنا له بالحج، رغم حربهما لسنوات على حكم قسطنطينية بعد موت أبيهما محمد الفاتح، فما كان ذلك الخنجر المسروق إلا وسيلة لإعلان الحرب والانتقام منا، وما

يؤكد حجتي اننا قبضنا على اللصوص واعدنا الخنجر إليه ولكنه اساء معاملة رسولنا وطرده وتلك إهانة لا تغتفر.

- عليه اللعنة في كل وقت وفي كل حين، إنني لن أحرك جنديًّا حتى يذهب هو بجنوده أولًا إلى صقلية، فلن أسمح له باستغلال إرسال جنودنا لنصرة الأندلس، ليغزو الأتراك مملكتي ويستولوا عليها.

- عين العقل يا سيدي، ولكن ماذا سنقول للسفارة الغرناطية القادمة إلينا؟

- طمئنهم بأن الأمور تسير في نصابها، وأخر لقائي بهم عدة أيام حتى نرسل خطابًا إلى بايزيد، نستعلم فيه عن موعد تحرك جيشه إلى بلاد الروم كما وعد.

- وماذا عن غرناطة يا سيدي، يقولون إن جيش القشتالة أسقط آلمرية آخر مدن المملكة الساحلية ويستعد لحصار المدينة.

- لغرناطة رب يحميها يا قانصوه!

يقطع أحد الجنود حديثهما فجأة وهو يكاد يلتقط أنفاسه:

- اعذرني أيها السلطان المعظم، ولكن الأمر لا يحتمل الانتظار، إن الركب الطاهر قد وصل، وهو في انتظارك، وجب خروجك إليهم لتبارك لهم رحلتهم، حانت اللحظة المنتظرة.

***

(٨)

كانت القاهرة قد تجملت بأجمل الأثواب وتزينت بأحلى الألوان وأرق العطور، تحولت لعروس في ليلة ليست ككل الليالي، ليلة اكتمل فيها البدر وامتزج فيها الحب مع نسيم الهواء البارد، ليعلن عن قدوم الربيع بعد شتاء بارد قاسٍ.

يوم زواج وفرح، الكل مدعو لحضوره والكل يفرح من قلبه بل إنهم لمنتظرون منذ زمن طويل، يحصون الأيام تباعًا في شوق لتلك اللحظة وهذا الأنس الكريم، الكل يسعى لترك هموم أيامه ويدعو في تلك الساعة المباركة أن ترفع كروبه وتغفر ذنوبه، يوم ارتداء أشرف ما وجد على وجه تلك الأرض كسوتها الحريرية السوداء الجديدة لتستعد باستقبال آلاف الحجاج لزيارتها، والطواف حولها وهي في أجمل صورها، إنه اليوم العظيم للمصريين، يوم يعلن عن بدء موسم الحج، تدور فيه البركة بين شوارع المحروسة، تحمل الجمال أطهر أثواب الدنيا لتدور بها بين حارات القاهرة، ترحل كسوة الكعبة مودعة محبيها ومريديها من محكى قلعة صلاح الدين إلى مكة المكرمة.

«أخيرًا وصلنا»، صرخ سهيل في مرح وحماس، تناسى أوجاع السفر الطويل، وساعات من الملل طالته فور أن رأى أول أبواب القاهرة يفتح أمامه، وبدأت حوانيت القاهرة وحاراتها بالظهور، والاندماج مع المارة.

كان الزحام شديدًا، تلاصقت أكتاف الناس، وتحولت الشوارع إلى ساحات مصنوعة من أجساد البشر، بعد أن وصل النازحون من كل شتات الأرض ليشهدوا اليوم المبارك، لم يكن أحد يجلس مستأنسًا في وحدة، الجميع مشغول غارق في الجد والعمل.

كان أويس وسهيل ينظران للحضور بتعجب بعد أن افترشوا كل بقاع الأرض وجلسوا أسفل أسقف الحوانيت والمحلات التي زينها أصحابها بأجمل الورود والأقمشة الملونة، بينما قام الآخرون بتعليق لافتات تبارك الحاضرين وتهنئهم بوصولهم وفوزهم بمشاهدة دوران المحمل، ترك سهيل بقية السفارة سائرًا خلف صوت يبحث عن مصدره، لحقه الباقون خوفًا من فقدان بعضهم، وقف سهيل ومن حوله الباقون أمام مجموعة من الحرافيش، تكرروا في كل شارع، أضاعوا ساعات الانتظار بالغناء للمحمل بأصوات عذبة صادقة استعدادًا للتمتع برؤيته:

عليك صلاة الله وسلامه

شفاعة يا جد الحسين

دا محملك رجعت ايامه

هنيه واتهنت به العين

تسامر الناس وتهاتفوا، جلسوا في حالة استنفار استعدادًا للنداء الأخير، ضربات مدافع تدوي شظاياها في السماء، ومن بعدها تبدأ صرخات يطلقها حراس القلعة في كل جانب، يتجولون هاتفين «دوران المحمل آت..». كانت الكلمات رغم بساطتها أكثر دويًّا من طبول الحرب وأكثر قوة على آذان المصريين من نفير الخطر، مع دعوات الحرس تحولت الشوارع إلى حلبة مصارعة بين الحاضرين على اقتناص الصفوف الأولى، للحصول على أفضل مشاهدة في أفضل مكان.

شكل الحضور صفوفًا، بدأت من باب النصر وحتى باب الرميلة الذي تأتي من خلفه أسوار القلعة، صرخ عثمان الجندي المملوكي في أويس:

- أسرعوا يا سادة حتى لا ينغلق علينا الطريق، سأرشدكم إلى باب الرميلة لننعم بلقاء أخير مع المحمل قبل رحيله.

وقف سهيل مجاورًا لأويس تحمل أعينهما السعادة الغامرة بما يستعدان للقائه، وإلى جوارهما الشيخ الصباغ لا يتوقف عن التسبيح لترويض نفسه المتحمسة على الانتظار، بينما وقف القائد ابن زيدون بوجه جامد ونظرة جادة يشاهد فقط هتافات وحماس المصطفين باقتراب قدوم المحمل.

كان الجميع يشاهد في ترقب وحذر، يقفون على أطراف أصابعهم، بعد أن بدت بعض خيالات لفرسان تظهر من بعيد، تعالت أصوات الناس بالهتاف، صاح عثمان:

- لقد جاء عفاريت المحمل.

كانوا جنودًا من المماليك ارتدوا أدرعة ذهبية وفضية وخوذًا طليت عليها أحرف عربية شكلت كلمات «لا إله إلا الله»، تركض تلك الخيالة قبل المحمل لتنتزع آهات الجماهير بدقات عسكرية من الطبول وحركات بهلوانية مميزة، بدأوا في استعراض مهارتهم بالقتال بالرماح، وآخرون وقفوا على ظهور أحصنتهم رافعين سيوفهم في فخر وتباهٍ.

من خلفهم تجلى الموكب المنتظر، الهودج الفائز بحمل الكسوة المعظمة، يسير بخطى ثابتة قصيرة، مغطى بأقمشة ملونة من الحرير حاملًا على سناميه قبة فضية في نهايتها هلال نحاسي لامع، تتزين القبة بخطوط كوفية بديعة، تخطف الأنظار والقلوب، كان الجمل محاطًا برجال أشداء، أصحاب أجسام فارهة، تحرس المحمل وتمنع محاولات الانقضاض عليه أو حتى

ملامسته.

شق الموكب طريقه حتى وصل لنهاية الطريق، واجتاز باب الرميلة حتى وقف عند سور القلعة، أسفل شرفة السلطان، صاحب المحمل أمير الحجاج المختار، القائد المملوكي، بشبك الجمالي، منتظرًا خروج السلطان ليأذن له بالخروج ويعلن بدء موسم الحج.

خرج السلطان الأشرف قايتباي في لهفة، يجاوره الوزير قانصوه المحمودي وأمير السلاح المملوكي جانك قلقيز، صاح العامة المحيطون: مرحبًا بسلطان مصر والشام، مرحبًا بخادم الحرمين، رفع السلطان كفه إلى أعلى ليأذن للمحمل بالسفر إلى بلاد الحجاز.

انطلقت أصوات الطبول والموسيقى النحاسية فجأة، وغير المحمل طريقه استعدادًا للرحيل، ومن خلفهم هتافات الحاضرين يهرولون وراءه مودعين، حتى بدأت أصوات الناس تهدأ رويدًا ومعها اختفى المحمل بين الرمال والتلال.

بدأ الجميع في الهمة بالرحيل، ومعهم تحرك عثمان ومعه السفارة الغرناطية، نظر إلى وجوههم السعيدة:

- سنذهب الآن لأحد بيوت التجار، يؤجرونه لتجار الأقمشة للإقامة فيه وعرض بضاعتهم به، أعرف صاحبه وإني لأظنه من المرحبين لاستضافتكم، فهو أجمل فنادق الفسطاط، يطل بشرفته على مسجد عمرو بن العاص.

نظر أويس لعثمان متعجبًا، يحاول الاستفسار:

- ألن نقابل السلطان اليوم؟

رد عثمان بابتسامة مصطنعة:

- سيكون من الصعب لقاء السلطان اليوم، فلترتاحوا من أيام السفر الطويلة، وغدًا بإذن الله تقابلون السلطان المعظم.

***

(٩)

أوراق وصحف وأختام، صرخات وبكاء وآلام، ظلم وكره وانتقام، أشياء كثيرة يحملها ذلك المكان الذي على الرغم من أنه يتواجد في رحاب أقوى وأعظم قلاع الأرض وبين أجمل وأفخم قصور الدنيا، فإنها كانت بقعة الدنس على ذلك الثوب الأبيض، النقطة السوداء في ماضي وحاضر تلك الأمة.

«باب المظالم»، الوجه الآخر المشوه للقاهرة وحكامها، الثغر الصارخ بالحق والكاشف لظلم المماليك وطغيانهم، هو الباب الفاضح للأطماع والعاكس لشهوات السلطة والسلاطين، من يقدر على قمعه، هل سيجلدون باب المظالم حتى لا ينطق، هل يقتلون أصحاب الشكاوى حتى لا يراهم حاكم ولا قاضٍ.

كانت ساحة ديوان المظالم كعادتها منذ ألف عام، تعج بالمشتكين وأصحاب النفوس النازفة والقلوب المنقسمة، كانت بحق توحد سكان الأرض، بعد أن جمعت كل النفوس من كل الأعراق والأجناس، من أهل الشام إلى دول البلقان، ومن أحراش أفريقيا إلى أمازيغ المغرب، ومن ساكني الصحراء إلى مزارعي الثمار، اختلفوا في اللغات واللكنات وفي الملابس والحلي، تلون الديوان بشتى ألوان البشر من الأبيض للأسود ومن الأصفر إلى القمحي. اختلفت الأعراق وتوحدت المظالم، جمعتهم القلعة ووحدت شوكتهم المهانة والذل.

صرخات مدوية، تخرق آذان كل ظالم، «أعيدوا أرضنا»، «أخرجوا الفلاحين من السجون»، «ارفعوا عنا الضرائب»، «أوقفوا طغيان الأمراء»، «اعدلوا في جمع الخراج»، «رمموا البيوت وجددوا الحارات»، «نموا الزرع وأوقفوا السرقات»، «أصلحوا النفوس وأقيموا العدل».. هكذا يعيد أصحاب الأقلام وموظفو الديوان تدوين الشكاوى مصحوبة باسم صاحب الشكوى ومدينته، في الصحيفة الضخمة ذات الأوراق المتآكلة والأحبار المتسخة، يكتبون ولكنهم لا يقرأون، لا ترفع مظلمة ولا يقام عدل على تلك الأراضي الشاسعة.

جلس القائد ابن زيدون والشيخ الصباغ وأويس وسهيل على إحدى المصاطب الخشبية الغليظة الواقعة في منتصف الساحة، لا يجلس عليها سوى القادة وذوي الشأن، أما أصحاب الشكاوى فعليهم أن يفترشوا الأرض أو تُقطع أرجلهم من ساعات الوقوف، كان المشهد قاسيًا ومربكًا، يجبر الرجال الأربعة على استنزاف مشاعرهم بمراقبة ما يحدث أمامهم من عبث.

قطع الشيخ الصباغ حالة الصمت:

- ماذا تتوقعون من السلطان او اي سلطان ان يفعل لنا وبلاد المسلمين غارقة في بحر من الظلم والمظالم؟!

رد القائد ابن زيدون:

- إن هؤلاء يصرخون لمال قد سرق أو ماشية قد نهبت، ولكننا نصرخ لإنقاذ أرض ضاعت وهيبة مسلمين دنست.. ولا يصح لأي مسلم أن يسمع عما يجري في بلاد الأندلس ويقف مكتوف الأيدي.

قاطع سهيل في غضب:

- وبماذا تفسر أيها الفارس أفعال سلطانهم، مرت ثلاثة أسابيع على وصولنا مصر وما زال يتحجج بأعذار لتأجيل لقائنا.

برر ابن زيدون محاولًا تهدئتهم:

- إنه يحكم مملكة عرضها يمتد من المحيط إلى الخليج، فلتعذره أو لترحل من حيث جئت.

حاول أويس أن يهدئ من وتيرة الحوار الذي اشتد بين أصحابه: - يا سادة، قابلنا وزير السلطان، قانصوه المحمودي عدة مرات، وقد طمأننا، بأن السلطان على علم بما تؤول إليه الأمور.. فلنعذره، لقد أتينا في أعظم المواسم، موسم الحج، وفي كل الأحوال، الأمر ليس بيد السلطان، نحن جميعًا في انتظار موعد تحرك السلطنة العثمانية لبلاد الصليبيين.

عاد سهيل محافظًا على نفس وتيرة غضبه: - لقد مللت الانتظار يا أويس، العدو لن ينتظرنا.

رد ابن زيدون غاضبًا هو الآخر:

- وماذا تريدنا أن نفعل؟

قاطع الشيخ الصباغ الحوار مبتسمًا: - نذهب لسلطان السلاطين وملك الملوك، حاكم السماء والأرض الذي لا يرد مظلمة ولا يُغلق عنده باب... فلنلحق بركاب الحجاج ونتشرف بتأدية ركن الإسلام الخامس وندعو الله أن ينقذ غرناطة وما عليها.

تابع ابن زيدون:

- ولكن على أحد منا أن يبقى هنا، ليتابع آخر التطورات.

صاح أويس في حسم:

- اذهبوا يا سادة وانعموا بالشرف العظيم، أنا من ولي بقيادة الوفد، وأنا من

سابقى للقاء السلطان وعند عودتكم ستجدونني إن شاء الله من المبشرين، ومعي جيش لا يُرى مداه ولا يُعد جنوده.

قاطع سهيل ساخرًا كعادته:

- ولكن يا صديقي عليك أن تفعل ما هو أهم عندما أعود من الحج.

- وما هو ذلك الشيء الأهم؟

- تعترف أني أعلى منك شأنًا وأكثر منك علمًا، عليك أن تعاملني معاملة الشيوخ الأجلاء، فأنا الحاج سهيل الإشبيلي، وأنت رحمك الله أويس بن الناسطوري، تاجر زيتون.

ثم عاد وختم حديثه بضحكات عالية.

ضحك أويس قائلًا:

- سأفتقدك يا أخي الذي لم تلده أمي.

احتضن سهيل أويس قائلًا له:

- سندعو بأن تُنصر غرناطة بإذن الله على يدك، وتتخلص من هذا الإرث الثقيل المعقود في عنقك.

جاء صوت الشيخ الصباغ من بعيد يطالب سهيل بالحضور في الحال للذهاب لسوق الحجاج للتجهز للسفر.

قبل أن يودع الصديقان بعضهما بعضًا، أشار أويس رافعًا يده في اتجاه ساحة المظالم وأصوات المظلومين: - لا تنس يا سهيل أن تدعو لهؤلاء العامة المظلومين بأن يفك الله كروبهم ويرفع عنهم المظالم، فهم الأحق بالدعاء.

حاول سهيل قبل رحيله أن يخفف عن أويس حزنه بفراق الباقين، مازحًا: - إذن فلتفعل شيئًا مفيدًا، اختر مظلومًا من تلك الساحة وأنصفه بمقابلة مع الوزير المحمودي لعلك تفك كرب مسلم.

ضحك أويس:

- إذن فلتختر أنت ذلك الشخص.

ألقى سهيل بنظره بين الساحة الممتلئة عن آخرها، بحث بين الوجوه، التي حمل أغلبها من الأسى ما يجعلها موضع اختياره، ظل يتطرق بنظره في كل اتجاه محاولًا أن يختار الفائز، حتى سمعت أذناه صوت نحيب متقطع، حاول أن يبحث عن مصدر ذلك الصوت الحزين، حتى وجد صاحبته، فتاة أخفت وجهها بكفيها من أثر البكاء، ترتدي جلبابًا طويلًا اختلطت فيه ألوان الأحمر مع

الاسود، لتشكل لونًا داكنًا ولكنه براق، لم يكن ذلك الزي يشبه ما ترتديه سيدات مصر ولا ما حولها من بلدان، بدا أنه من مكان لم يره أو يزوره من قبل، لم يبدُ من ملامح تلك البنت صاحبة الصوت الباكي الحزين سوى لون كفيها ناصعي البياض، وضفائرها البنية المعقودة بخصلات شعر ناعمة.

لم يعرف لماذا أعطى لتلك السيدة كل ذلك الاهتمام، ولكنه شعر أنها صاحبة النصيب، سحب أويس من ذراعه في اتجاه صاحبة الضفائر البنية ثم اقترب منها ببطء حتى لا تفزع، قائلًا بصوت هادئ: - يا امرأة، ما اسمك؟

كشفت البنت عن وجهها، ظهرت ملامحها للمرة الأولى، شابة مكتملة الجمال، ذات وجه ناصع أبيض وخدين مكتنزين، وجبهة عريضة، وأنف حاد رشيق، وشفتين صغيرتين ورديتين، بدا عنقها طويلًا كالغزلان، كانت نظرات عينيها العسليتين البريئتين وحركة شفتيها، كافيتين لخطف اهتمام أويس الذي ظل ينظر إليها متأملًا دون أن ينطق بكلمة واحدة.

أعاد سهيل سؤالها عن اسمها، فنظرت لهما متفحصة، فركت عينيها من أثر البكاء، تفحصت ملامحهما محاولة أن تفسر سبب السؤال أو تكتشف هويتهما.

ظلت حائرة لا تعرف من يكون هذان الرجلان، فبدا وجهاهما بعيدين كل البعد عن المصريين، وجهان بملامح بلاد لم تخطها من قبل، ولكنها استشعرت الأمان، ربما من مظهرهما الطيب وملابسهما الفخيمة التي تعكس شأنهما، قالت بصوت مبحوح من أثر نحيب وبكاء لساعات طويلة: - اسمي جنين، جئت من قرية بعيدة تُدعى «بورغاس» تقبع في الأراضي البلغارية.

***

(١٠)

أتعلمين لماذا دُفن قيس وليلى في قبرين متقاربين، أتدركين لماذا عشق عنتر عبلة إلى حد أنه لهث في صحراء العرب لاقتناص حبها، أتفهمين من أين جاءت تلك الجراءة التي جعلت عروة يلقي بخاتمه في إناء اللبن ليصل لحبيبته عفراء، ليبقى حبهما خالدًا إلى الأبد، هل تساءلت يومًا، لماذا ظل جميل يجلس بالقرب من شرفة حبيبته بثينة في صمت ليملي عينه بوجهها، كلما أشرقت عليه شمس جديدة لسنوات طويلة رغم زواجها.

إن قصص الحب العربية دائمًا ما تعج بحكايات كثيرة وغاية واحدة، رسالة نبيلة على كل عاشق أن يحفظها، الحب مشكاة لدنيانا البائسة والعشق دواء لوحدتنا المتجددة، فكلاهما أبدًا لا يموتان، يبقيان بيننا، يعيشان في القلوب، يحتميان بالضلوع ويتنفسان من الوجدان.

الحب يا جنين هو المطهر لعذابنا، وهو المبرد لوحشتنا، وتشرد قلوبنا بحثًا عن شيء نجهله، ولكننا على يقين أنه ضائع منا، انظري يا حبيبتي لذلك البدر المتوهج الساطع في السماء، إنه يشبهك، يعكس بنوره ظلالنا على الأرض، هو هادينا الوحيد في ساعات الليل الطويلة، ورغم أن نوره خافت، لكن لا غنى عنه لتخطي سواد طويل.

وأنت كذلك، مثل هذا القمر الذي تعكس بركة الفيل جوهرة القاهرة، وأجمل ما خلق الله بحي السيدة زينب، صورته. ورغم عذوبة المياه وبرودة الرياح وخفة حركة الأشجار، ومن حولها زهور التمرحنة من سكرة الرياح، فإنك تبدين مكسورة كانعكاس القمر على تلك المياه، صورة مشوهة لقمر مضيء، تخفي أمواج المياه ملامحه الجميلة وتبرز أحزانه، تحملين أهوال العمر رغم طفولتك النقية ومصائب القدر، رغم رحمة الله بنا.

مرت ثلاثة أشهر يا حبيبتي وما زلت تبكين كل ليلة على أخيكِ المخطوف وأبيك المرحوم من عذاب لم يرد الله أن يشهده، فكان الموت داء لمرض انفطار قلبه حزنًا على أخيكِ.

الحب لا يعيش فقط بين المتحابين والمتزوجين، الحب صلة زرعها الله في القلوب لنبقى متصلين، نعلم أننا سنقابل أحباءنا يومًا ولو بعد حين، سيبقى ذلك الشوق طاغيًا ولكنه لن يدوم.

لا تبكي يا جنين، فإني على يقين أن أخاك بخير، وعزائي أنه تربى على صلابة الفرسان وفراسة المحاربين في قصر الباب العالي بإسطنبول.

تلتقط جنين أنفاسها في محاولة لإنهاء بكائها الذي لا يتوقف، تنظر إلى وجه

اويس، وتحاول ان تصرخ دون جدوى بعد ان بُح صوتها، تقول بصوت خافت:

- لم تمنعهم حرمة البيوت ولم يصونوا المحارم، اقتحموا قريتنا ودهسوا كرامتنا قبل أن يدهسوا أجسادنا، سرقوا الأطفال من أحضان أمهاتهم، وعندما وقفنا نرجوهم متشفعين، قطعوا الرؤوس وسفكوا الدماء، وحرقوا البيوت وسبوا النساء. ما زالت رائحة نيران القرية وشظايا الأخشاب المحترقة في أنفي، ودماء أهلها تملأ الأرض من حولي. ما زلت أستيقظ كل يوم لأرى يديَّ ملطختين بدماء والدي، تراودني لحظة طعنة فرسان الانكشارية التركية له كل ليلة في أحلامي، ما زلت أسمع صوت بكائه حزنًا على أخي. لم يراعوا كبر سنه، ولا عزته بدفاعه عن ابنه الصغير، تركوه بطعنته يقابل الموت وهو يكرر، «لا تسلبوه مني فقد أوصتني عليه أمه». لم يشفع لهم يُتم طفل ماتت أمه بعد ولادته بلحظات.

لا يكتمل كابوسي كل ليلة إلا وأنا أرى حوافر أحصنتهم، وأسنان سيوفهم تضرب الأرض، تخفي خوذهم شرًّا مفظعًا بالنفوس.

حملوا على أحصنتهم سبعين طفلًا ورحلوا، انطفأ نور الشمس فجأة، وحل ظلام دامس دون أن نشعر بتسربه بيننا، صاحبه سكون رزين لم يرد كسر صدمتنا. استيقظنا على يوم جديد دون صوت قدم في الطريق، لم يذهب المزارعون إلى أرضهم ولا الصيادون إلى مراكبهم، فقد ضاعت بهجة القرية وتحولت لعزاء كبير، غابت ضحكات الصغار وصراخهم عند اللهو بين الغصون والبيوت، اختفت ضحكات البراءة. فقدت بورغاس عذريتها وفقد أهلها دوافعهم للحياة، وكيف تكون هناك حياة في بلد تدفن رجالها، وتودع أبناءها، وتبكي على ما أصابها.

توقفت جنين، عادت لتحفز صوتها المشجون دون فائدة، همست وقد خارت قوة جسدها:

- لم أفِ بعهدي إلى والدي للمرة الأولى، وخرجت من قريتنا بزاد قليل وجلباب واحد على حمارتنا الجميلة، فلتعذرني يا أبي فلم تعد بورغاس-كما قلت- حصنًا يحمينا، وما فائدة وطن غابت عشيرته!

أيام مرت لا أعلم ما هي وجهتي، هل أذهب إلى إسطنبول لأقابل سلطانهم بايزيد الثاني، وأدعوه ليعتق أخي، ونعود معًا لقريتنا، لكني تذكرت جيوشه التي تستعد لسفك دماء جديدة في بحر البلقان للسيطرة على بلاد البلغار، فهل رجل وحشي كهذا سيأخذ بحديث امرأة نصرانية، وهو يعد العدة لقتل آلاف جديدة من النصارى. فكرت من جديد هل أطرق باب روما وأدعو أشقاءنا، أبناء ديننا الواحد، المسيحيين الكاثوليك لنجدتنا. ولكن طالما حذرونا

من شر ابناء الكاثوليك الذين ذبحوا الالاف من اشقائهم الارثوذوكس بامر من بابا الفاتيكان، نصرًا لمذهبه وقربانًا لزيادة سطوته.

لم يعد أمامي طريق أسلكه سوى تلك الدولة، التي احتمى بها المسيح ومريم العذراء، لمقابلة السلطان القابع على رأس تلك البلاد، سمعنا عن عدله الممزوج بالظلم، حذرني الناس بأنه لن ينصف مسيحية مثلي قادمة من بلاد الثلج والبرد على مسلم، مهما كانت العداوة بينهما، ولكني علمت أن الكره بين الأتراك والمماليك قد ملأ الأنهار والبحار وأن الحرب دائرة بينهما، ولا يوجد على الأرض من هو قادر على أن يعيد أخي المختطف ويثأر لأبي الشهيد سوى ذلك العبد المملوك القادم من أرض الجراكسة، الذي أصبح حاكمًا على أعظم عروش الأرض وسيدًا يلقبه مبجلوه بخادم الحرم الشريف.

ابتسم أويس للمرة الأولى محاولًا التخفيف من مرارة جنين:

- إنهما حرمان يا ابنة بلغاريا وليس حرمًا واحدًا، مكة المكرمة التي بها الكعبة، والمدينة المنورة حيث مسجد رسول الله وقبره.

ابتسمت جنين ببلاهة الأطفال:

- ما زلت أحتاج لتعلم الكثير لفهم دينكم، أتعلم يا أويس أن أكثر ما جذبني إليك هو غزارة معرفتك بالمسيحية وأصولها، وهو أمر نادر أن تجد مسلمًا عالمًا بالمسيحية.

- في الأندلس يا عزيزتي، عاشت كل الأديان متجاورة، وعندما دخل المسلمون البلاد لم يطمسوا الأديان بل حافظوا على معتقدات البشر، قبل بيوت عبادتهم.

- إذن لماذا يختلف العثمانيون عن أهل بلادك، ألستم جميعًا تؤمنون برب واحد وكتاب واحد؟

- الإسلام واحد، لكن المسلمين هم من يختلفون.

- أتعلم يا أويس لقد بدأت أدرك حجم الاختلاف ما بين المسلمين والعثمانيين عندما وصلت لمصر، وآمنت أن البشر باختلافاتهم يمكنهم أن يعيشوا متحابين في مكان واحد.

- إن أكثر ما يصبرني على غربتي وبعدي عن غرناطة تشابهها مع القاهرة في تآلف القلوب وتسامح الجميع.

- هل تعلم يا أويس، أنني في إحدى الليالي أثناء صلاتي لأخي في الكنيسة المعلقة، رأيت إمام مسجد عمرو بن العاص يستأذن أبانا في أخذ بعض من

اثاث الكنيسة، لسد عجز المسجد في استضافة بعض مشايخ جاءوا من الشام، وكان شديد الامتنان.

- عندما تتآلف القلوب يا حبيبتي يصبح العالم أكثر جمالًا للعيش فيه.

- ولكن أغرب شيء لاحظته في المصريين، تقديسهم للموتى، فلم أر في حياتي شعبًا يحتفل في الأعياد بالخروج لزيارة القبور والجلوس مع الموتى وتوزيع القرص والحلوى بمناسبة ذهابهم للقرافة.

- لا والله، ما رأيت أعجب من نظامهم الغريب في تقديس أولياء الله الصالحين ومشاهد المساجد. يزور المصريون وخاصة النساء الأضرحة طبقًا لجدول زمني، فهن يخرجن يوم السبت والثلاثاء لزيارة ضريح السيدة نفيسة بنت الحسن بن على بن أبي طالب. وفي يوم الاثنين يتجهن لمسجد الإمام الحسين وفي يوم الخميس يذهبن للدعاء بجوار قبة الإمام الشافعي، أما في يوم الجمعة فيخرج الجميع للاستمتاع بأهم متنزهات القاهرة، وهي القرافة.

ضحكت جنين حتى ظهرت أسنانها البيضاء اللامعة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يشهد أويس ضحكتها الجميلة منذ أن سرقت قلبه عندما رآها للمرة الأولى في ساحة أصحاب الشكاوى، وسمع حكايتها ترويها لوزير السلطان. شعر في تلك اللحظة بأن هذا هو الحب الذي دائمًا ما يذكره المحبون، قلب يُعتصر فرحًا، ونفس تنتفض كالصغار، وقت يمر دون أن تشعر، ورعشة تضرب الأبدان عندما تتلامس أيديهما صدفة عن غير قصد، ساعات يستطيع أن يسرح أويس في عيني جنين دون ملل، يشعر كالأطفال بسعادة طاغية كلما رآها تنظر إليه أو تنادي اسمه، بالتأكيد هذا هو الحب الذي تحاكى عنه شعراء الأندلس.

حاولت جنين أن تتملص من حرجها بعد أن احمر خداها من تحديق أويس فيها:

- ولكني رغم استشعاري بتسامح وطيبة المصريين وحفاوتهم بالجميع فإنني لا أشعر أن سلطانهم مثلهم، لقد جلست على بابه لثلاثة أسابيع أحاول أن أقابله، ولكنهم يمنعونني بكل الحجج حتى أرسلك الرب لي وقابلنا وزيره ووعدنا بطرح المشكلة على السلطان.

- إن السلطان مشغول ولعله معذور، اصبري يا جنين، إن الله مع الصابرين.

ضحكت جنين ثم قالت بسخرية:

- الآن تتحدث كالشيوخ، ولأنك رجل مؤمن وتقي، فلقد أحضرت لك طعامًا مصريًّا أصيلًا يأكله العوام والحرافيش.

اسماك تدفن في صناديق بين رمال الصحراء، وتترك من العام إلى العام، رائحتها نفاذة ولكنهم يقولون إن طعمها طيب، أحضرتها لك بنفسي من سوق باب الفتوح يسمونها «فسيخ»، ومعها جنين السمك يسمونه بطارخ.

فور أن كشفت جنين عن الطعام، انتشرت رائحة الفسيخ في أنف أويس، أحس أنه سيتقيأ من قبل أن تكمل جنين جملتها، وهي تصف مدى سعادة المصريين وحبهم لذلك السمك المتعفن والملقى في الرمال.

حك أويس رأسه راسمًا ابتسامة بلهاء على وجهه:

- سنأكل سريعًا ثم أذهب لمقابلة السلطان.

***

غرناطة

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي عبد الله محمد الثاني عشر أمير غرناطة إلى الأشرف قايتباي المحمودي خليفة المسلمين بمصر والشام وخادم الحرمين الشريفين.

«الحمد لله الذي جعل آية السيف ناسخة لكثير من الآيات، وفاسخة لعقود أولي الشك والشبهات والذي رفع بعض الخلق على بعض درجات، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يتلّذذ بذكرها اللّسان، وتتعطّر بنفحاتها الأفواه... ونصلّي على سيدنا محمد الذي أكرمنا الله به صلّى الله عليه وعلى آه وبعد،

الحمد لله على أن أحمد عواقب الأمور، وأظهر للإسلام سلطانًا اشتدت به للأمة الظّهور، فألهمنا الله تعالى الصبر والسلوان ضد جيوش النصارى الغفيرة وأسلحتهم الوفيرة وقوة مدافعهم وذخيرة الأنشاط النائرة. ما زالت لم تفلح محاولتهم الواهية في اقتحام درة المدن غرناطة، تقف جدرانها صامدة وفرسانها يقظة ضد أي غدر وشعبنا أبي قوي يرفض أي تنازل.

لقد زحفت أحزاب الطواغيت عليهم ومد الصليب ذراعه إلى أراضينا ولكننا ما زلنا صامدين لا نمل ولا نكل في انتظار فرج الله القريب وضعه الله في قلوبكم وجعلكم على رأس المجاهدين وأنتم أهل البر والتقوى.

وإنا ننتظر خطابكم بكل اهتمام حاملًا بشرة النصرة والنصر، وهو دينكم فانصروه وجواركم القريب فلا تخفروه وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه.. أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت.

الحمد لله ما زالت عزائمنا قوية على ما أريناه من دواعي الصلاح، مؤمنين آمنين بسرعة تدخلكم وتضامنكم.

وفّق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح.

أبو عبد الله محمد الثاني عشر

أمير مملكة غرناطة

المحرم ٨٩٦ هـ

***

إسطنبول

يناير ١٤٩١

بسم االله الرحمن الرحيم

الأشرف قايتباي المحمودي سلطان مصر والشام.

بعد السلام والتحية، إن الله عز وجل، جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة، وشرفنا بدين الإسلام وأيدنا، وندبنا لإقامة مناره وسددنا للحق والصواب.

أغرتم علينا، ودخلتم أراضينا على حين غفلة من أهلها، وقتلتم وفسقتم وهتكتم محارم الله من غير مهلة مما أشعل لهيب الحرب بيننا وبينكم لسنوات طويلة، ولكن جاء اليوم الذي نقدم فيه النية وأن نلاقيكم بغاية صادقة، وقلوب على الحميَّة للدين موافقة؛ فمزقناكم كل مُمزق، ثم رفعنا عنكم حكم السيف البتّار.

فكان من تلك الحروب والمعارك تشتيت لأمور ديننا ودنيانا وتمزيق لثوب الدين الواحد الذي يجمعنا استغلته الكنيسة البابوية القابعة في روما بعد أن وحد البابا جويلس الثاني بلاد وممالك النصارى بكل خبث ودناوة، فهجم البولنديون على مولدافيا، وبلغنا تحرك جنود المجر والبندقية إلى ترانسلفانيا.

وإن الأمر قد أصبح حتميًّا وبكل أسف وحزن، تعذر علينا إرسال جيوشنا إلى صقلية كما كان الاتفاق السابق أو حتى إرسال جنود إلى غرناطة بعد أن أصبح الشر يوثق من أراضينا من كل جانب، وعلى جيشنا المجاهد أن يتوجه إلى عاصمة مملكة صوفيا لمحاصرة البلغراد لوقف الهجوم وقطع المؤن.

وإني لأعرض عليكم السلام وإعلاء كتاب الله وإسلامه، فنرجع الآن في إصلاح الرعايا، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا فقد انضرت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها ولتكونوا عونًا لنا في إعلاء كلمة الإسلام وجهاده في بلاد النصارى ولتحموا ظهورنا من أي شر.

فقد وجب علينا التَّمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتّحاد، وبذل الإخلاص بحيث تعمر ممالك المسلمين وبلادها وندعو الله من كل قلوبنا بأن يحمي بلاد الأندلس ومسلميها من كل داء، ويسكن الفتنة الثائرة في تلك البلاد ويعم السلام من جديد.

وفي النهاية أنت تعلم أيِّها السلطان الجليل، أننا معتقدون الإسلام قولًا وعملًا ونية، عاملون بفروضه في كل وصية ونؤمن أن الديار المصرية، ستقدر ظروفنا وتحمي ظهورنا. وإنا ننتظر رسالتكم لنعلم بأن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية؛ ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم،

والسلام الطيب منا عليكم. إن شاء الله تعالى.

بايزيد بن محمد الفاتح بن عثمان بن أرطغل

خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

صفر ٨٩٦ هـ

***

(١٢)

هبطت الرسالة كسقوط أوراق الشجر وضمور الزهور، كان حلولها كحلول فصل الخريف الذي دائمًا ما يأتي خلسة وينتهي فجأة، ذبلت الحدائق وتبدلت أفرع الشجر بأخرى مشوهة، تحول الأخضر إلى أصفر، واختفت أصوات الطيور المسبحة، ونسائم الرياح المنعشة، واسودت الدنيا في وجه أويس كما اسود العالم بحلول الفصل التعيس.

كان السلطان يراقب وجهه بكل دقة وحذر، يحاول أن يقرأ ما يدور في باله، قبل أن يلقي بأي حديث فهو لا يأمن رد فعله تعليقًا على هذا الحديث.

ظل السلطان يفكر منذ الوهلة الأولى التي قرأ فيها ذلك الخطاب المرسل من الباب العالي، في الخطوة المقبلة. تمازجت نواياه مع شكوكه، تناسى أهل غرناطة كما تناساها من قبله بايزيد الثاني، عندما يقترب الخطر من العروش تختفي الصداقة وتذوب الأخوة، ويصبح الملك أهم من الرعايا.

دارت أفكار في بال قايتباي، تيقن من داخله أنها مناورة من العثمانيين لاقتناص عرشه، يخرج بجنوده ليجاهد الصليبيين في غرناطة، بينما يطعنه العثمانيون باقتناص أرضه وملكه. لم يكن أبناء الأتراك يومًا يحملون بداخلهم كلمات الجهاد والاتحاد، كان يعلم أن تلك ليست نوايا العثمانيين الراغبين في السلطان والمشتهين لكل أرض وعرض.

كان عليه أن يجند خبرته، عشرين عامًا من حكم مصر وما حولها، للخروج من هذا الموقف الحرج، تناقش هو ووزيره باحثين عن حل يحفظ العرش، ولا يشوه مظهره أمام شعبه، الذي طالما قدم نفسه لهم على أنه المسلم الهمام والمجاهد صاحب العزم والدوام، في إنقاذ شتى مسلمي الأرض في كل بقاعها، فكيف بعد أن ظل يتحدث لسنوات على إنقاذ غرناطة، وإعلاء كلمة الإسلام فيها، يتخلى عنها بتلك البساطة هل تناسى أحلامه التي طغت على حماسه بأن يصل سلطانه إلى تلك البلاد البعيدة، ويصبح ملكًا عليها يملأ صيته الدنيا من الشرق إلى الغرب، ويسبح بعرشه الجميع.

انهارت كل تلك الأحلام، تساقطت مع كل حرف قرأه في الرسالة التي أضاعت أحلامه الشخصية مع أحلام ملايين من المسلمين الواقعين تحت حصار القشتالة المتربصين.

بعد أيام من النقاش والحوار وضعت الخطة المحبوكة للخروج من المأزق، وبدأت بانتظار حضور أويس دون أن يدعوه السلطان للقدوم لتبدو الأمور طبيعية ومعتادة. جمع وزيره ومساعديه وكبار القوم وأعلاهم. أجلس الجميع

حوله في الساحة الكبرى بالقصر الشرقي بعد ان غير ترتيبها وقرب مقاعدها وزينها بالزهور وعطرها بالبخور استعدادًا لإطلاق خطته. لم يختر أن يقرأ الخطاب للحاضرين أو يجعل وزيره يشرح ما آلت إليه الأمور، اختار أن يعطي الخطاب لأويس ليكون هو أول قارئيه على الجميع، ليشهدوا صدمته وطبائع الحزن على جبهته، لتبدأ خطته وتنجح نيته في إنقاذ ماء وجهه قبل إنقاذ أي مسلم أو مملكة.

ظل يراقب بحذر ملامح أويس، كان يبحث عن تلك اللحظة المناسبة لاقتناصها، يمكنه فيها أن يلقي بشباكه لاصطياد ذلك التاجر الغرناطي. هي اللحظة المعتادة في تلك المواقف، اليأس، الفشل الذي يصاحبه ضيق في التنفس وارتفاع في ضغط الدم، إفراز غزير في العرق وارتجاف في اليد وسرعة في دقات القلب، عوامل لا يلاحظها سوى أمهر الحكماء والفلاسفة.

حانت اللحظة المنتظرة، لم تستطع يد أويس أن تحمل الرسالة لأكثر من ذلك. سقطت ليقتنصها السلطان، نظر إلى الجميع ليتأكد أن الوجوم أصبح على الحاضرين ثم اعتدل في جلسته، وتلاعب في بعض شعيرات لحيته وقال في صوت رزين:

- وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، أعلم أن صدمتكم كبيرة، أشعر بكم، تالله إن النوم فارقني، وفقد بالي راحته منذ أن قرأت ذلك الخطاب الملعون.

قام السلطان من مكانه بعد أن بدت الصرامة أكثر وضوحًا على وجهه:

- ولكن ماذا تنتظرون من حاكم يتخلى عن إخوته، ويتركهم يواجهون مصيرهم، طمعًا في ملك أكبر ونفوذ أوسع لعنة الله عليه في الدنيا والآخرة.

كان التفوه باللعنات إشارة إلى الوزير المحمودي بمقاطعة السلطان طبقًا للخطة المسبقة. رفع الوزير يده مقاطعًا السلطان:

- ولكن يا سيدي، ماذا نحن فاعلون؟

قال السلطان متأسفًا:

- إن قرار إرسال الجنود أصبح أمرًا مستحيلًا في الوقت الراهن، والحل العسكري يجب أن يؤجل إلى أجله الذي وضعه الله، فهو أعلم ونحن لا نعلم.

سكت السلطان لحظة حتى تعالت الأصوات المعترضة والمشككة والبائسة. ودب اليأس أكثر في النفوس ثم عاد السلطان رافعًا يديه آمرًا بالهدوء:

- لم يأتِ اليوم الذي يقال فيه تخلت مصر عن أهلها وإخوانها، وإنني بفضل الله توصلت لحل يقف خلف تلك الأبواب، سيعيد القشتالة الأنجاس من حيث

جاءوا ويضمن لنا وقتًا نستطيع فيه ان نعد جيشًا قويّا يحمي غرناطة ويعيد أمجادها.

تعالت الأصوات من جديد يستعجلون السلطان بالسماح للشخص الذي يحمل الحل بالدخول، ينظرون إلى الأبواب في انتظار فتحها، الكل كان مثارًا، على موعد بمعرفة ما ستؤول إليه الأمور، إلا أويس الذي ظل واقفًا في مكانه، تجمدت ملامحه وسيطر اليأس على خلايا عقله.

أمر الوزير الحراس بالسماح للمنتظرين بالخارج في الدخول لمقابلة السلطان.

فُتحت الأبواب وظهرت ملامح أشخاص ارتدوا جميعًا نفس الزي، ملابس سوداء داكنة وغطاء رأس أسود مزخرفًا، يعلوه حجر كريم بارز، وعلى صدورهم ظهرت سلاسل على هيئة صلبان بعضها مصنوع من الخشب وأخرى فضية، تعكس أحجارها الكريمة ضوءًا وافرًا.

صاح الوزير:

- مرحبًا بقساوسة كنيسة القيامة في بيت المقدس، وكنيسة المهد في بيت لحم ورهبان المغطس بنهر الأردن وقساوسة الكنيسة المعلقة بالفسطاط، مرحبًا بكم أيها الكرام في رحاب السلطان.

انحنى القساوسة للسلطان. دون اكتراث من السلطان الذي رفع يده موجهًا إياها لحارسه فأعطاه ثلاث رسائل مغلفة ثم قال ناظرًا إليهم:

- اقترب أيها القس الجليل وخذ تلك الرسائل، قسموا أنفسكم إلى ثلاثة وفود، وأعدوا العدة واجلبوا الزاد، أمامكم مهمة كبيرة.

نظر القساوسة بعضهم لبعضٍ بعد أن شعروا بعدم ارتياح، كان المشهد المزدحم بالحاضرين يثير القلق والريبة، تعالت الأصوات بين القساوسة حتى قال أحدهم للسلطان: إن اختيار سلطان مصر المعظم لنا للقيام بمهمة خاصة لهو شرف كبير، ولكننا ما زلنا منذ أن حل علينا الجنود وأمرونا بالسفر إليكم، ونحن لا نفهم طبيعة مهمتنا ودورنا.

نظر السلطان إلى الوزير فتحرك ببطء تجاه القساوسة واضعًا يده على كتف أحدهم:

- إنكم تعلمون ما آلت إليه الأمور في الأندلس، وما تتعرض له غرناطة ومن قبلها آلمرية ومالقة من بطش أعداء الله القشتالة الذين يسعون في الأرض فسادًا، ويسفكون دماء المسلمين ويهدمون البيوت ويقضون على الأخضر

واليابس، ويجبرون الجميع على التنصر ويهدمون المساجد ويرفعون على مآذنها الصلبان.

سكت الوزير لوهلة ونظر القساوسة بعضهم لبعضٍ بعد أن زاد قلقهم، حاول كبيرهم السيطرة على الموقف واجتيازه، وخاطب السلطان قائلًا:

- هم على خطية، وقد خرجوا عن تعاليم المسيحية السمحة.

لم يبالِ الوزير بكلمات القس واستكمل ما بدأه مستفيضًا:

- وإنكم لتعلمون أن تلك الحروب الصليبية تباركها الكنيسة البابوية، وتناصرها، وإن سلطاننا، أعانه الله وأكرمه، يرفض أن يواجه السيف بالسيف ويدعو للسلام بين جميع الأديان، دون سفك للدماء وقتل لنفس زكية. ولذلك وقع اختيارنا عليكم لعلو شأنكم ومكانتكم وثقة سلطاننا فيكم وعلمنا بصداقتكم مع أنطوان الثامن بابا روما. وبناء عليه فقد قررنا أن تتكرموا بحمل رسائل السلطان في ثلاثة وفود، وفد يغادر إلى روما لمقابلة بابا الكاثوليك، ووفد يغادر إلى ملك نابولي الدون فرانتي، والثالث إلى ملوك القشتالة إيزابيلا وزوجها فرناندو، تحذرونهم فيها من استمرار محاولات القشتالة في المس بمعتقدات الإسلام وقتل المسلمين، وتطالبونهم بالانسحاب الفوري، والكامل من أراضي مملكة غرناطة.

حاول أحد القساوسة إخفاء ابتسامته المستهزئة بالفكرة وضعف حيلتها قائلًا:

- ولكن يا سيدي ما الذي يجعلهم يوافقون على مطالبنا؟

نظر قايتباي إلى القساوسة بوجه جامد وحاد:

- قل لهم أيها القس إن سلطان مصر والشام يحذركم إن لم تتوقفوا عن طغيانكم، فإن المجانيق تحاصر كنيسة القيامة وقبر يسوع لهدمها على من يقيمون فيها، وإن السيف سيكون بوابة مرور كل حاج نصراني لبيت المقدس.

كان وقع الكلمات صادمًا للجميع، جعل الحاضرين يتهامسون من قسوة الكلمات وخطورة القرار. بدا الغضب واضحًا على القساوسة، بدأ البعض في إبداء اعتراض على السلطان وجنونه، ولكن تحرك القس أنطونيو ميلان رئيس دير بيت المقدس سريعًا محاولًا امتصاص غضب الجميع:

- أيعقل هذا يا مولاي السلطان، نرد الإساءة بالإساءة، ونمنع انتهاك حرمة المسلمين، بانتهاك أهم مقدسات المسيحيين. ما عهدناك يا سيدي تصلح الظلم بظلم.

اجاب السلطان بنبرة حاسمة:

- أيها القس لقد تمادى هؤلاء الفسقة في طغيانهم وهتكوا حرماتنا، وإن لم يتوقفوا ويعيدوا ما سرقوه من إخواننا، سيكون ردي أكثر قسوة مما تتخيلون. فخير لنا ولهم أن يتوقفوا، قولوا لهم إن رعايانا من النصارى في الأراضي تحت سلطاني تفوق أضعاف رعاياهم من المسلمين، وإني لقادر بضربة سيف أن أجبر الجميع على أن يكونوا مسلمين، ولكني لن أفعل طالما عادت الجرذان إلى جحورها!

***

سانتا في

«مدينة لا يدخلها الكافرون» هكذا دوِّن على كل بيت وعلى كل لوح خشب من أسوار المدينة الناشئة «سانتا في» أو الوادي المقدس، على كل بيت وضع الصليب بارزًا. خلقت المدينة فقط لتكون ظلًّا لغرناطة الخالدة، تسير على خطاها في كل شيء. بنيت على بعد كيلومترات قليلة منها، وعلى نهر واحد «شنيل» تتغذى المدينتان. تحيط الهضاب الصغيرة بالمدينة الوليدة من كل جانب، تنعم بنسيم هادئ كعادة الأندلس ومدنها، خاصة في تلك الأوقات من فصل الصيف.

ورغم أن المدينة ما زالت قيد الإنشاء فإن أهلها تكاثروا بسرعة مقلقة بأوامر ملكية صارمة لتكون شوكة في حلق المسلمين الكافرين. كانت تلك أوامر الملكة إيزابيلا حاكمة مملكة القشتالة وزوجها الملك فرناندو حاكم مملكة الأرجوان، مدينة جديدة تولد من رحم الأندلس. لم ولن يخطوها مسلم ولا يهودي، لا يقطنها كافر أو تطأها قدم مخطئ أو عاصٍ، مدينة الرب، ترفع اسم الصليب وتكون نواة للنصر الأخير وتحرير المدينة اليائسة غرناطة التي دام احتلالها قرونًا طويلة.

كان نور الصباح قد تمكن من إنارة أركان المدينة وبدا متسللًا من شرفات البيوت والأكواخ الخشبية، يخطو بينها برشاقة وحذر حتى وصل للقصر الصغير ذي القبة الذهبية والأعمدة الفضية اللامعة الذي بني على أعلى هضاب المدينة. لم يكن بالفخم مقارنة بالقصر الملكي للزوجين بإشبيلية، ولكنه بدا أكبر ما في المدينة وأجملها.

كانت أشعة النور تخطو باحثة عن مدخل للقصر المغلق بالأبواب والحرس، حتى عثرت على شرفة صغيرة مرتفعة يطل منها الجناح الملكي، تسلل منه الضوء بخفة ليلقي بظلاله على ما بداخلها.

عكس الضوء ملامح الغرفة. لم تكن فخمة كأجنحة الملوك العريقة، امتلأت بأثاث مزين بذهب تقطعه أحجار كريمة، وعلى الحائط وضعت لوحة زيتية كبيرة لرجل ارتدى ملابس العامة يقضم تفاحة واضعًا قدميه في ماء ساخن، وأسفل تلك اللوحة كان يقطن الفراش الملكي العملاق. زينت رؤوس أعمدة الفراش بتماثيل صغيرة لأطفال بأجنحة ترمز لملائكة الرحمة الحارسة، ومن فوق الفراش أسدلت ستائر عملاقة من الحرير.

تحت الستائر، ظهرت إيزابيلا مستلقية كجثة بلا روح، بدا جسدها الممتلئ بارزًا في الضوء، عكس شعر رأسها البني المتعرج. ارتدت فستانًا أبيض

ضخمًا، صنع قوامه من القطن الناعم، واطرافه من ريش النعام، بدت مستاءة كسحابة تائهة في سماء صافية، تبحث عن ما يعكر صفوها.

صرخت إيزابيلا بصوت قوي مهيب:

- أين أنت يا فرناندو، هل عليَّ أن أنتظرك العمر كله.

يفتح فرناندو أحد أبواب الغرفة، رجل قصير القامة تخفي الظلمة ملامحه. تسللت الإضاءة إلى وجهه، بدا شاحبًا وأنفه شديد الاحمرار. على الرغم من ذلك كان وجه فرناندو منتفخًا بسبب اللغد الكبير وعيونه الجاحظة. ارتدى قميصًا أبيض مزينًا بنقش من أوراق الشجر، وأسفله سروال داخلي ضيق. لم يتكلم فرناندو، كان يعي جيدًا أن الأحاديث لن تفيد، وأن الأمر بات محسومًا وعليه أن ينفذه.

توجه ببطء تجاه الفراش، رفع الستار الذي بدا ثقيلًا على غير عادته، نظر إلى إيزابيلا محاولًا خلق ابتسامة ودودة، بدت مصطنعة لكنها أدت الغرض. لم تبالِ إيزابيلا، ظل وجهها باردًا دون استجابة، اقترب منها يلاطفها، قبل يديها ببطء وهدوء، ثم ذراعها، فرقبتها لكنها لم تكن مثارة. ظلت إيزابيلا لا تتحرك، تركته، دون تعليق أو مشاركة، مستمرًّا في مهمته، يقبلها بطرف لسانه، يمسك يديها ثم يمسك فخذيها محاولًا إثارتها دون جدوى، خلع رداءها المعقود بعشرات الحبال الصغيرة، قال لها:

- كم أكره تلك اللحظة!

ابتسمت دون أن تعلق.

نجح فرناندو في مهمته، سقط الرداء وظهر نهدا إيزابيلا الصغيران والمتعبان من دهر الزمن وأرذل العمر. حاول فركهما بأصابعه في محاولة يائسة وأخيرة لاستثارة مشاعرها الجامدة، ولكنها كعادتها، لم تحرك ساكنًا، ظلت مستلقية بوجه واحد صارم لا تتحدث ولا تطلق أي انفعالات.

توقف فرناندو وألقى نظرة طويلة على وجهها بعد أن أصابه الملل. ظل يحاول أن يفهم ما تحتاجه، يدور في باله:

- ألست أنتِ من طلبتِ أن نتقابل في الفراش بعد أن تذمرتِ من جفاف علاقتنا، ماذا الآن؟!

لم يجد إجابة ولم يكن قادرًا على إلقاء نفسه في جحيم النقاش والخلاف مع إيزابيلا بسؤالها، قرر أن ينتهي من مهمته الثقيلة بسرعة، خلع نعليه وملابسه وانقض عليها بعنف كأسد لم يكن جائعًا قط، ولكنه يهاجم ليتجنب أن يُهجم

عليه. تحرك فرناندو من فوقها ببطء، يتجنب النظر إليها، يرغب في ان ينتهي سريعًا بعد أن فشلت محاولاته لإثارة نفسه، تذكّر جاريته المفضلة مورنيا بوجهها الملائكي، وجسدها الممشوق ونهديها الناضرين، ومن غيره يقطفهما، حاول أن يتذكر لياليه وسهراته في مضاجعته لأجمل ما رأت عينه وأكثر من ملأت قلبه بأنوثتها الطاغية، لكنه لم يستطع أن يبقي على صورة جاريته في مخيلته. تذكر زواجه من الطاغية المتسلطة إيزابيلا التي تقضي على ملذاته، ولكنه يحاول أن يهدئ من روعه:

- لا يجد المرء كل ما يتمناه، حتى الملوك لا يحصلون على كل ما يشتهون. زواج بائس يوحد مملكة الأرجوان مع القشتالة ويعطي نفوذًا واسعًا وسلطة لا يحلم بها أعظم ملوك أوروبا، خير من ملك يحكم مقاطعة صغيرة تنام حبيبته إلى جواره. تضحية مطلوبة وغاية عظيمة ستكتمل بإعادة توحيد إسبانيا من جديد بعد تحرير غرناطة من هؤلاء المسلمين الذين احتلوا أرضنا لقرون طويلة، ولكن حان وقت رحيلهم، وإن كان الرب معنا، فمن علينا.

يستيقظ فرناندو فجأة من أحلامه، ليرى إيزابيلا تتحرك للمرة الأولى، اعتلت شفتيها ابتسامة لا يراها كثيرًا لكنه يعرفها جيدًا. ابتسامة القوة والتسلط، أمسكت ذراعه بقبضة قوية ثم ألقته من فوقها ليسقط مستلقيًا على الفراش. اقتنصت إيزابيلا الفرصة وقد احمر وجهها بشدة. وبرشاقة معاكسة لجسدها الممتلئ، ألقت بجسدها الهائل فوق جسد فرناندو، استلقت فوقه تمامًا وانتعشت أوصالها ودبت الدماء في جسدها، كانت مستثارة بشدة كثور هائج يبحث عن إشباع غرائزه الجائعة.

أوثقت ذراعيه بعد أن ثبتتهما بقبضة يديها لتجعلهما ملتصقتين بالفراش، وصرخت صرخة مدوية تبعتها حركة سريعة، تصعد وتخفت دون توقف، تطلق معها أنين المتعة الممزوجة بالنصر، لذة تصحبها قوة، إثارة تحكمها القيادة.

بدا فرناندو من تحتها ذليلًا قليل الحيلة، ظل ينظر إليها متأملًا، لا يسعى للمقاومة، كان قادرًا على تحويل تلك المضاجعة الزوجية إلى حلبة مصارعة، ولكنه كان أكثر دهاء من ذلك، يوازن الأمور ويحركها طبقًا لمصالحه ونواياه.

ظل ساكنًا يراقب سعادتها ولذتها اللتين لا يراهما كثيرًا، تتحرك من فوقه كثور هائج حتى انتهت. استلقت بجواره في تعب تلتقط أنفاسها بصعوبة، ولكنها كانت لا تزال سكرى من لذة انتصارها.

نظر فرناندو إليها ليطمئن أن الفرصة سانحة، وقد حان الوقت ليلقي عليها طلباته، ويقتنص موافقتها بسهولة دون الجدال المعتاد، وهل بعد مضاجعة ترضيها كتلك يمكنها أن ترد له طلبًا.

اقترب فرناندو منها محاولا احتضانها بإحدى ذراعيه لتبدو الامور اكثر رومانسية:

- إيزابيلا حبيبتي، أريد أن أحدثك في أمر مهم.

حركت إيزابيلا وجهها نحوه وهي تحمل نظرات العتاب بعد أن أضاع راحتها وذهب بنشوتها. ولكنه لم يعطها وقتًا لكي ترد، حدثها بنبرة هادئة:

- لقد مر أكثر من سبعة أشهر في حصارنا المقدس لغرناطة، وبفضل الرب ضعفت أبدانهم وخارت قواهم ونقص زادهم، واشتعلت الفتن فيما بينهم، وأصبح النصر أقرب من أي وقت كان، ولكننا نحتاج إلى ضربة أخيرة قاصمة، تعجل بتحرير غرناطة وطرد هؤلاء الكافرين من أرضنا.

رفعت إيزابيلا جسدها المتراخي واعتدلت تنصت باهتمام، بعد أن جذبتها مقدمة فرناندو الحماسية، أكمل فرناندو حديثه بعد أن تأكد من أنه قد استحوذ على اهتمامها:

- تعلمين يا حبيبتي أنه «ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم»..

هزت إيزابيلا رأسها بالموافقة دون أن تقاطعه:

- لقد وصلنا لفكرة ذكية ستدق المسمار الأخير في نعش المسلمين، وعليكِ أن تقومي معي الآن لمقابلة منتظرينا للاطلاع على الخطة.

خرجت إيزابيلا عن صمتها للمرة الأولى، قالت بصوت هادئ:

- وما تكون تلك الخطة، فلتقلها الآن.

- عزيزتي لا تتعجلي، ارتدي ملابسك، ولنتوجه إليهم في الحال.

- إذن اذهب وقابلهم في قاعة استقبال القصر، وسألحق بكم فيما بعد

- لا إيزابيلا، لن يكون الاجتماع في القصر، سنقابلهم في كاتدرائية الوادي المقدس، فالأمر يحتاج إلى سرية تامة.

- فليكن ما تريد يا فرناندو، ولكن على الدوق فرانثيسكو خيمينيث أن يحضر معنا.

بدا الغضب قد شب في وجه فرناندو بعدما سمع اسم الدوق:

- لا أعلم لم تحبين هذا الرجل، لصلعته أم لوزنه الزائد؟

- إنه كاتم أسراري وشفيعي في الكنيسة، وسيكون مطهر إسبانيا الجديدة

من اليهود والمسلمين بعد سقوط غرناطة بمشيئة الرب.

- وكيف سيكون ذلك؟

- سأجعله رئيسًا على محاكم التفتيش.

هز رأسه مبتسمًا ابتسامته المعتادة:

- رغم كرهي لهذا الرجل، ولكنه للأسف الرجل المناسب في المكان المناسب، فهو الرجل الوحيد الذي ولدته أمه بلا قلب!

***

أبريل ١٤٥٣م

الكل صائم، والكل قائم، يركع ويسجد، نفير الحرب قد أزف، والنهاية كان عليها أن تقترب، إما نسقط أو هم يسقطون، أيام طويلة مرت على المقاتلين دون فائدة، حر وبرد، ونسيم شارد يمر ليدفئ القلوب الصابرة المؤمنة بأن الحق قد اقترب والباطل زائل لا محالة. الكل يسمع صهيل الأحصنة ويرى غبار القتال أمامه ومن خلفه تلك الأسوار الراسية منذ أزمان ماضية، مدينة عمرها ألف عام، عاصمة الصليب الأعظم، حامية دين ضل طريقه، وحرفت آياته وبطلت أوامره ونواياه.

تتحرك الأحصنة بين ثكنات الجنود وخيامهم تحمل على ظهورها شيوخًا وقورين بعباءات عثمانية طويلة ولحى مهذبة، وأخرى تحمل رجالًا ارتدوا القمصان البيضاء والعمائم الحمراء، امتطوا الشعر وألجموا القصائد بلغتهم الصوفية المعقودة، يصرخون في الجنود بآيات قرآنية محكمة قد حسُن اختيارها: }أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ{

ثم تأتي من بعدها آية أخرى: }الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{.

ثم تأتي من خلفها أشعار صوفية الهوى، تحث على القتال: يا نفس إِلا تقتلي تموتي

هذا حمام الموت قد لقيت

وما تمنيت فقد أُعطي

وإِن تأخرت فقد شقيت

يظهر فجأة رجل تخطى من العمر أرذله، يتلقى تحيات كل من يقابله: - مرحبًا بالشيخ الجليل وصاحب العلم الوفير، فقيه الأمة ومعلمها، أق شمس الدين.

يحيي شمس الدين أنصاره، يمازحهم: - نسيتم أهم الألقاب

يصرخون في حماس: - وما هو يا سيدنا؟

- معلم السلطان محمد مراد ومرشده.

ثم تبعها قهقهة رجل مسن، لم يكن صوته وحده أصابه العجز بل بدا على جسده كله الوهن، ولكن ذلك الوهن لم يفترس أبدًا عزيمته وحماسته. وقف على حصانه صامدًا يراقب الجنود، يشاهد إلى أي مدى ارتقت أرواحهم وهل

اصبحوا معدين ليلقوا بارواحهم من فوق تلك الاسوار العاتية التي وقفت تعاند قادة المسلمين منذ الأمويين وحتى آخر خلفاء العثمانيين.

كان يحلم السلطان الشاب محمد مراد الثاني بأن يحقق ما فشل فيه أجداده وأجداد أجداده، وينال ذلك المجد المفعم بالحافز الديني. أعظم مكاسب الدين أن تحقق على يده، نبوءة الرسول الكريم بأن تفتح قسطنطينية وتغمر أنهار الإسلام شوارعها ويصبح هو سيد الحكام وسلطان أعظم ممالك الأرض وأقدمها، فهل يفلح؟

يسمع السلطان العثماني أصوات الشيخ شمس الدين قادمة من بعيد، يصرخ محفزًا في الجنود. يزيح السلطان الشاب ستار خيمته ليسمع كلمات معلمه الأول فينعم هو أيضًا بتحفيزات الشيخ الملهمة. يرى السلطان الشيخ الكبير راكبًا حصانه رافعًا مصحفًا في يده اليمنى يصرخ مكررًا كلمات رسول الله: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ».

تحرك الكلمات قلوبهم، وتصاحب الكلمات طبول الحرب لتشعل لهيبهم، يصرخ القادة «الله أكبر»، ومن خلفهم الجنود يهتفون ثم يتحركون في صفوف متوازية. تقف مدافع اللهيب والمجانيق في المقدمة، وفي المنتصف يقف أعظم ما عرفته البشرية من أسلحة وأكثرها فتكًا على تلك البسيطة، مدفع «مهيب»، وزنه سبعة أطنان، يجره ستون ثورًا، سموه بالفاتح تيمنًا بالنصر القريب، ومن خلفهم أبراج خشبية بللت بالماء لتواجه نيران الأعداء، واعتلتها القناصة بسهامهم لحمايتها حتى تكون سلمًا للصعود إلى المدينة، وفي الخلف يصطف الجنود قابضين على سيوفهم وفي قلوبهم عزم كبير.

يمتطي السلطان حصانه ليستعد لتولي إدارة الحرب من أعلى هضاب المعركة. يحمل أعباء ومشاعر لا يعرفها سوى قادة الحروب، مهابة من هزيمة وإيمان بمجد ونصر وعزة، يمر أمام عينه شريط بأيام حرب، بدأت منذ العاشر من ربيع الثاني الموافق بتاريخهم العشرين من أبريل، طلب في ذلك اليوم من الملك قسطنطين تسليم المدينة دون إراقة دماء، كان أمرًا محتومًا أن يرفض، قالها له بكل حسم. «قسطنطينية ليست بقلعة نتنازل عنها، إنما هي تاج إمبراطوري مسيحي عمره ألف وخمسمائة عام».

بدأت جيوش جرارة تحاصر المدينة الصليبية، ستون ألفًا من خيرة المسلمين يقفون خلف مدافع العثمانيين تدك حوائط المدينة الباسلة دون أن تهتز. وفي الوقت ذاته، تتحرك الأساطيل البحرية لتحكم قبضتها على المدينة وتفرض حصارًا لا هوادة فيه، تتقدم السفن العثمانية تجاه مضيق المدينة، ولكن دروع المدينة البحرية باغتتهم وأصابتهم بهزيمة قاسية، وأصبح البحر

مفتوحًا لاي إمداد قادم من روما يقوي شوكة المدينة المحاصرة.

لم يعد أمامهم سوى عبور المضيق وإغلاق ميناء القرن الذهبي لوقف الإمدادات، ولكن كيف يمكنهم أن يتخطوا بسفنهم تلك السلاسل الحديدية القوية التي لا تقضي عليها نار المدافع ولا لهيب الأنفال. يدب اليأس وينخفض حماس الجنود، وتعلو أصوات رفع الحصار والعودة للوطن ولكن السلطان يتمسك.

تعلو وجه السلطان ابتسامة، وهو يتذكر ذلك اليوم المشهود الذي مهما كانت نتيجة تلك الحرب من نصر أو هزيمة، لن ينسى صدمة أبناء قسطنطينية عندما استيقظوا في صباح يوم الواحد والعشرين من أبريل على أصوات تكبيرات المسلمين، تهلل فرحًا بعبور سبعين سفينة عثمانية للميناء الذهبي، والكل في صدمة من تلك المعجزة، سفن ترسو في الميناء ولم تطلق دانة سفينة ولم تنكسر سلسلة الميناء.

فكرة جهنمية سبعون سفينة تعبر إلى الميناء سيرًا على الأرض، تتحرك من خلف هضاب غليظة، وكأن اليابس قد أصبح ماء. وضع الجنود ألواح الخشب لمسافة ثلاثة أميال وأغرقوها بالشحوم والزيوت لتنزلق من عليها السفن ليلًا، وشغلت ضربات المدافع العدو من الجانب الآخر.

يا له من نصر عظيم ويوم جليل أعاد للمسلمين هيبتهم بعد هزيمة قاسية! ولكنها لم تكن كافية، ظلت الحرب سجالًا، كلما تقدمنا خطوة، عدنا في اليوم التالي خطوة إلى الخلف.

امتلأت أسوار المدينة بالثقوب ولكن من يجرؤ على اجتيازها فالزيوت المغلية والنيران الإغريقية في انتظاره، حُفرت الأنفاق ورُدمت الخنادق ليعبر الجيش ولكن بسالة مقاتلي المدينة تقف بالمرصاد، وشقت سهام الجنود المتربصين داخل أبراج المدينة صدور مئات المسلمين. عشرات من القتلى والأسرى أحاطت جثثهم السور الشرقي.

أراد السلطان إنقاذ ما تبقى من عزيمة الجنود، فأمر بصناعة أبراج خشبية تكون سلمًا لاجتياز السور، ولكنها لم تسلم هي ومن فيها من نيران قسطنطينية الحارقة.

حاول قسطنطين أن يقضي على عزيمة المسلمين نهائيًّا، فقتل في يوم واحد مائة وخمسين من أسرى المسلمين وألقى بجثثهم، لتكون على مرأى من العثمانيين.

وهنت العزيمة ورفعت المصاحف وتعالت أصوات الانسحاب من جديد: -

فعلت ما استطعت يا سلطان، مات الالاف فانقذ ما تبقى.

أصبح السلطان مخذولًا يائسًا، كيف يحيي ما مات من جديد.

ولكن الله كان يؤخر النصر إلى ذلك اليوم المهيب، يوم النصر الحقيقي، يوم أن حمد السلطان الله بأن وهبه الشيخ شمس الدين ليحيي ما مات.

صرخ أق الشمس يومها في القادة: - تجمعوا واسمعوا، لقد رأيت منامًا، وإنه لحق لا جدال فيه، جاءني الصاحبي الجليل أبو أيوب الأنصاري الذي مات، وهو في جيش يزيد بن معاوية يسعى لفتح القسطنطينية ودفن على أبوابها، وأخذني إلى قبره ثم صرخ «أرحني في تربتي يا شمس الدين كما أرحت رسول الله في بيتي بعد أن هاجر للمدينة المنورة».

جمع الشيخ القادة وذهب بهم إلى حيث دفن أبو أيوب الأنصاري وقال فيهم: - هنا أخذني أبو أيوب.

ثم أشار بيده إلى سور المدينة: - وهنا يطالبكم بأن تريحوه.

صعد السلطان إلى تبة القيادة، توجه إلى القبلة وتوجه معه آلاف الجنود، صلوا الفجر، ومع بزوغ أول شعاع كان الهجوم قد بدأ.

أطنان من شظايا الحديد والنيران تطلقها المدفعيَّة دون توقف حتى غطى الغبار أسوار المدينة، وعلى موجة واحدة كانت فرق الجوقات تضرب بأبواقها وطبولها أنغامًا للحفاظ على حماس الجنود. أق الشمس ورجاله يتجولون بين الصفوف، يصرخون: - ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها.

انطلقت فرقة المشاة الأولى متسللة من بين ستار النيران، تحاول تسلق بوَّابة رومانوس، بوابة المدينة الرئيسية التي تخلخلت من شدة ضربات المدافع. أما فرق الفرسان الانكشارية فقد ركزت هجومها على غرب المدينة. وهنت الأسوار للمرة الأولى أمام النيران العثمانية، وظهر من خلفها ثغرات أشرقت نورًا من بعيد.

فور أن رآها السلطان، أمر جنوده باقتحام الثغرات ونقل الحرب إلى داخل المدينة وقد كان، عبر الجنود الأسوار واشتد القتال واختلطت دماء القاتلين مع المقتولين. تلوثت الأرض بروث الأحصنة ودموع المختبئين تحت البيوت. ازداد القتلى فتكدسوا حتى أصبحوا تلالًا من الجثث، تسد الثغرات وتحجب الشمس ولكن الحرب دائرة بلا هوادة، والضغط يزداد والبعض يهرب من هول الموت، الذي يكتنس الجميع داخل الكنائس.

رأى السُلطان أن المعركة قد احتدمت وقد حان حسمها. دفع بخيرة الجُنود

إلى القتال، انقضت كتيبة الانكشاريّة الشرهة للقتل والبطش بالاعداء، على جنود قسطنطين حتى يتراجعوا ويستسلموا، ولكن أصوات أجراس الكنيسة ما زالت تطرق آذانهم والانسحاب عار لن يفعلوه.

تساقطت الجثث وازداد التعب وضعفت همة الجنود من الطرفين. ظلت المعركة تتجه إلى نهاية غير محسومة حتى ظهر ذلك الجندي الشجاع حسن الألوباطلي، شاب بجسد صغير وقامة قصيرة، ألقى بسلاحه غير مكترث بمن حوله، وتسلق برج المدينة الكبير حتى يكون على مرأى من الجميع، أمسك بالجندي القناص وألقى به إلى الأسفل، ثم وقف على قمة البرج وخلع الصليب من مقعده وصرخ بأعلى ما تمكنت به حنجرته: - ها هو صليبكم فخذوه.

ثم رفع علم العثمانيين على البرج حتى شاهده كل من كان في المعركة، تعالت التكبيرات وانتفض حماس الجنود من جديد، تناسوا التعب وأحسوا أن النصر قد اقترب.

لم يصمد علم العثمانيين ولا حامله كثيرًا، في لحظة واحدة اخترق جسد حسن سبعة وعشرون سهمًا جاءت من كل اتجاه، سقط حسن وارتقت هامات الجنود.

أُصيب القائد القوي يوحنَّا جوستنياني في ذراعه فانسحب ناجيًا بحياته، فصرخ المسلمون للمرة الثانية «الله أكبر»، فتراجع العدو في هلع، لم يعثروا على قائدهم ولم يجدوا ملكهم الذي لم يجد مفرًّا سوى القتال حتى النهاية. سقط تحت أقدام الفرس وسقطت معه قسطنطينية.

كان حماس الجنود العثمانية ما زال في بدايته، لم يتوقفوا عن الضرب والقتل، اجتاحوا المدينة وقد فقدوا عقولهم من هول الانتصار وشدة القتال. تحول حماسهم إلى وحشية دامية، تناسوا إنسانيتهم وفقدوا السيطرة على غرائزهم، قتلوا كل من صادفهم رجالًا كانوا أو نساء، لم يكن أحد قادرًا على ردعهم، الرعب انتاب كل من سكن المدينة، والموت كان على موعد مع كل من قابل جنديًّا عثمانيًّا.

نهب وسلب لكل بيت فُتح أمامهم، ظلوا يتجولون كالذئاب الجائعة المتربصة باحثة عن فريستها التي طالما حاولت أن تظفر بها، دخلوا الكنائس وقسموا المحتمين فيها بين سبايا وعبيد، أراقوا الدماء حتى ملئت أنهار القسطنطينية كلها.

كانت ليلة قاسية على أهالي المدينة، سلم من هرب من أعين الجنود ولم ينجُ من وقف أمامهم. قُطع رأس الملك قسطنطين وعلق في الساحة الكبيرة

المطلة على كاتدرائية ايا صوفيا، وقتل معه كل اولاده ما عدا صغيرهم الذي حاول بعض من حافظ على جزء من عقله أن يحميه لصغر سنه. علقت جثث كل قادة المعركة المستسلمين بعد أن قطعت أوصالهم حتى لقوا حتفهم ساكنين.

لم يكن أحد قادرًا على إنهاء تلك المآسي سوى بزوغ يوم جديد، وإشراق الشمس على جثث الموتى ليراها القاتلون. في صباح اليوم التالي هدأ المقاتلون وأعدت العدة وجهز الطريق لاستقبال السلطان.

تغير المشهد الدامي تمامًا وكأن حربًا لم تقم. غُسلت الطرق الملوثة بالدماء والأشلاء، وأزيلت الأسوار المتهدمة ورصف مدخل المدينة، وزينت الواجهة بالورود وسُقيت حوانيتها بالعطور.

من قلب بوابة رامنوس أزيحت آثار الدمار وأكوام الصخور المترامية وتحرك الجنود في هيئة صفوف نظامية، امتدت من البوابة حتى ساحة كاتدرائية أيا صوفيا. ارتدى الجنود أذرعًا من الحديد وخوذًا فولاذية لامعة، ارتدى بعضهم رداءً أخضر، وآخرون ظهروا برداء أحمر، طبع على الرداءين شعار الدولة العثمانية، قرص الشمس مسقوف بهلال ونجمة.

ظل الجميع في انتظار دخول السلطان ومعه كبار رجال الدولة وقضاة المدينة ورهبانها المستسلمون، ومن خلفهم سكان تلك المدينة البائسة، ينتظرون رؤية حاكمهم الجديد وما يحمل في جعبته.

ظهر أخيرًا السلطان اليافع طويل القامة، بدا وجهه عريضًا بسبب كثافة لحيته التي اكتست لونًا بنيًّا داكنًا، اعتلى حصانه الأبيض البراق الذي اكتسى برداء أزرق. ارتدى السلطان درعه وسيفه المرسومين بأدق التفاصيل، والمزينين بأحجار كريمة توسطت الدرع والسيف. قبض السلطان على سيفه، تعلو شفتيه ابتسامة مجد عظيم وشعور بالنصر لم يحققه أحد من قبل، تحققت نبوءة الرسول وتحقق حلمه القديم وستعلم البلاد والعباد عن السلطان الخالد الذي حفر اسمه ليحيا مهما طال الزمن. نظر السلطان إلى وجوه السكان البائسين، شعر بحجم ما تحمله وجوههم من أهوال الحرب وقسوتها، لكنها لن تعكر صفو انتصاره اليوم.

وصل السلطان أخيرًا إلى باحة أيا صوفيا الكبيرة حيث وقف الجميع في استقباله، ترجل من على حصانه وألقى بنظرة طويلة على الكاتدرائية العملاقة المهيبة، ثم خلع خوذته، وسجد سجدة طويلة تمتم فيها بكلمات لم يسمعها الحاضرون ثم قام ليلقي خطاب انتصاره.

نظر السلطان للمجتمعين قائلًا: - اليوم أشرق الإسلام على تلك المدينة

وحل النور بين حوانيتها، فمبارك لها. لقد اوصانا رسول الله بالرحمة عند المقدرة. ولذلك لقد أمنت عليكم حياتكم ودينكم وبيوتكم وعرضكم، اذهبوا يا أهل القسطنطينية فأنتم طلقاء.

ثم وجه حديثه إلى قادته وشيوخه ومعهم رهبان وأساقفة المدينة: - ضعوا رايات الإسلام على كل برج وأذنوا للصلاة من كل بيت وأعلنوا للجميع أن لقسطنطينية اسمًا جديدًا وهو إسلامبول، وأننا سنصلي العصر اليوم في مسجد أيا صوفيا.

تصاعدت الأحاديث الجانبية وحاول الأساقفة الاعتراض، ولكنهم لم يتمكنوا. قطع أق الشمس تلك الأحاديث في حماس، صارخًا بأعلى صوته: - مرحبًا بسلطاننا ومولانا، مرحبًا بفاتح قسطنطينية.. محمد الفاتح.

***

(١٥)

سار الحجيج إلى رحاب الرحمــة

تهفو القلوب لترتقي عرفـــــات

سبحان من فرض الوقوف ببقعـة

تزهــو بما فيها من الرحمــــــات

أيام معـــــــدودات فهـــي غنيمـــــــــــــــــة

فيها تجلت أعظــــــم الآيــــــــــات

هذا غنــــي وذا فقيـــــر سواسيـــــــــــة

لا فرق قد ساروا في الطرقـات

هذا أعجمــــــي وأجنبـــي في اللغـــــة

جمعت خطاهم أطهر البقعات

ظل يشدو الشيخ الصباغ بصوت مرتل ومنشد جميل حتى جمع قافلة الحج العائدة إلى القاهرة حوله، ليس فقط للاستمتاع بصوته العذب الذي فاجأ سهيل والقائد ابن زيدون، ولكن احتفالًا بالنصر العظيم، لقد أتموا الفريضة الخامسة. ذهبوا محملين بالذنوب وعادوا حجاجًا أطهارًا بقلوب نظيفة.

كان الوقت يمر ببطء، الكل مشتاق لأهله، مرت أكثر من أربعة أشهر في ذلك الطريق الوعر. اجتازوا صحراء الشرقية، وباتوا على بعد ساعات من الوصول للقاهرة، كان الجميع كلما سمع كلمات حرس القافلة تدوي بأن النهاية قد اقتربت، تراقصت قلوبهم واستعدوا بارتداء أجمل الأثواب وتعطروا بالمسك والعنبر. بدأوا في الاستعداد لمحفل استقبال الحجاج العظيم وأفراح المحروسة بعودة القافلة المباركة.

فمنذ سنوات غير معدودة، امتازت القاهرة باستقبال يفوق استقبال الملوك. تُعلق الفوانيس على كل باب وترفع جذوع النخيل عند كل سور، يلهو الأطفال بين الشوارع بالكتابة على حوائط بيوت كل حاج بكلمات كبيرة وألوان زاهية «حج مبرور وذنب مغفور».

يخرج الآلاف بالدفوف يغردون مهنئين بعودة الأطهار ليباركوا تلك الأرض:
بيض المآزر والقلــــــوب نقيــــة

وحناجر تكثر من الدعـــــــــــوات

تركوا المكاسب والنساء وصبية

وجاءوا يلبـــون غافر الـــــــزلات

رباه يا رباه نفسي وديـــــعـــــــــــة

فاغفر لنا واختم لنا بثبـــــــات

وأعد حجيجك سالمين بصحـــة

لديارهم قد أدركوا الجنـــــــات

جاء الصوت تلك المرة من أمير الحجاج، بشبك الجمالي، صرخ بأعلى صوت وهو يتجول بفرسه بين الحجيج: - هنيئًا يا سادة نحن على مشارف المحروسة.

نزلت الكلمات على القافلة كالصعيق، أصبح الجميع في حالة استعداد بعد أن امتلأت السماء بالعطور وخرجت النساء من المحمل للمرة الأولى، لتشاهد الحشد المنتظر، الكل يراقب تلك اللحظة المنتظرة منذ أن أنهوا طواف الوداع.

اقتربت القافلة من باب الفتوح بحركة بطيئة، كان الهدوء سيد الموقف. لم تكن الفوانيس معلقة كالمعتاد ولم يكن أحد على مشارف الباب لاستقبال الحجاج، حتى حراس أبواب القاهرة غابوا عن أماكنهم، اختفت أصوات الترحاب ولم يبق سوى أزيز الرياح، وحتى أصوات الباعة الجائلين المعتادة يوميًّا على أبواب القاهرة لم تكن حاضرة، بدا الأمر كأن أحدًا قد جمد الحياة في تلك المدينة أو أن أهلها هجروها في يوم واحد، لا صوت لقدم في الشارع.

اجتازت القافلة مدخل القاهرة والجميع قد امتلكتهم الريبة. البعض اعتلاه الخوف، أين ذهب الجميع، كل الأبواب مغلقة وكل النوافذ مسكرة، من يصدق أن سوق مسجد ابن طولون أعظم الأسواق زحامًا خاوٍ تمامًا على عروشه، لماذا لا يلعب الأطفال في الساحة بين مسجد الرفاعي والسلطان حسن.

حانت صلاة العصر ولم تؤذن مساجد القاهرة بذلك، نظر سهيل للشيخ الصباغ مصدومًا وبنبرات صوت مرتبكة قال: - انظر يا شيخ، يا ويلاه حتى مسجد الحسين أغلقت أبوابه، ماذا حل بتلك المدينة؟ لماذا أصبحت خاوية مقفرة لا يطويها سوى التراب؟!

لم يرد الصباغ بعد أن أصم القلق وجدانه.

أمر أمير الحجاج الذي بدا مرتابًا أن يبقى الجميع على حاله، ويسيروا في جمع واحد دون تفرقة. بدأ الحجاج يتناقلون الشائعات بينهم.

«عاصفة رملية القت بالجميع إلى تهلكة، جيش من الجن يحكم المدينة، كمين من الصليبيين فتك بهم، قوات من العثمانيين احتلت القاهرة وبطشت بالسلطان!»

الكل يترقب، يبحث عن إجابة لما آلت إليه القاهرة التي تبدلت إلى مقهورة في يوم وليلة. انهارت بعض نساء القافلة وبدأن بالبكاء. وأخريات أصابتهن الحسرة وجلسن يندبن على ما حل بالبلاد، والحرس يأمرونهن بالسكوت وإلا قيدوا أفواههن.

سارت القافلة بحركة بطيئة في اتجاه القلعة، فهي الحل لتلك الأحجية المجهولة. اجتازت القافلة الطريق الممتد من باب الفتوح إلى باب النصر دون أن تقابل أحدًا لا إنسيًّا ولا حتى كلبًا ضالًّا. الحوانيت مغلقة ولا حياة بين الحارات. وصلت القافلة إلى مشارف المنطقة الشمالية للقلعة بين مقابر الحسينية والقرافة الكبرى.

كان الهدوء المريب يسيطر على الجميع. ظهرت أصوات خافتة للمرة الأولى، سمع سهيل تمتمات رجل جاءت من بين دروب القبور. كلما اقتربت منها القافلة ارتفعت أصوات وسمعوا أحزابًا من القرآن يتلوها شيوخ ومعها تعالت صرخات النساء وعويلهن.

على مدخل القرافة جلس رجل مشرد بائس واضعًا يده على أحد خديه ينشد شعرًا ويحمل نايًا: يا طالب الموت قم واغتنـم

هذا أوان الموت ما فاتـــا

قد رخص الموت على أهله

ومات من لا عمر ماتــا

كلما اقتربت القافلة أكثر من القبور واجتازت قبرًا تلو الآخر، ارتفعت التمتمات الباكية. ظن البعض أن رجلًا مهمًّا بالمدينة قد مات، وأن كل المدينة في عزائه مشيعون، ولكن الأمر تجدد مرة أخرى وبصورة أكثر قسوة، امرأة تضرب الأرض بقبضتها وتصرخ في فزع «ضاع أولادي». ومن حولها نساء أخريات يهدئن من جزعها. يأتي رجل تبدو عليه علامات العلم والوقار، ولكن اتساخ ملابسه محت ملامحه، يقترب من المرأة المتألمة ثم يصرخ في النساء من حولها أن يتراجعن بعيدًا. يرفض البعض إطاعة الأوامر، فيركل النساء بعنف ويطلب من رجال آخرين إزاحة أولئك النساء عن طريقه، ثم يأتي رجلان أخفى كل منهما وجهه بوشاح وارتدى عمامة بيضاء وجلبابًا واسعًا ليحملا المرأة إلى جهة مجهولة.

اصيب ركاب القافلة بالفزع، لم يجدوا من يجيب على اسئلتهم سوى رائحة الموت التي تحوم من كل جانب، جثث بلا صاحب ملقاة على جانبي الطريق ورجال ألقوا بأجسادهم على قواعد القبور بعد أن انتابهم تعب شديد. لم تكن تمر القافلة على قبر أو قبرين إلا كان الموت حاضرًا والمشيعون يدفنون وأحيانًا يحمل القبر جثتين أو أكثر، أطفالًا وشيوخًا، رجالًا ورضع، نساء وكهولًا حتى الكلاب والقطط كانت نافقة على الطريق. ولا يوجد من يكسر ذلك الهاجس الصامت سوى أدعية الشيوخ بالرحمة وإنجاد الأمة.

صاح سهيل بعد أن صعد إلى مقدمة القافلة ليلاقي أميرها المصدوم: - ماذا جرى لكِ يا بلد، أين ذهب الخلق يا أمير، هل تحول أهل القاهرة إلى موتى ومشيعين، إلى صمتى ونادبين.

كان أمير القافلة يسمع. ولا يرد، كل ما بوسعه هو أن يجتاز ما تبقى من الطريق للوصول للقلعة ليبحث لنفسه عن إجابة.

اجتازت القافلة مدافن الحسينية ولم يتبق سوى المرور من قرافة القلعة لتجاوز ذلك الكابوس المزعج.

جاء هتاف من أقصى المدينة لرجل يسعى إليهم صارخًا: - يا أمير بشبك، توقف أرجوك، حذار من العبور.

نظر الأمير إلى الشخص القادم: - من أنت؟

- قائد حرس باب الجبل، علمت بعودتكم وجئت لاستقبالكم

ابتسم الأمير بسخرية: - قافلة حجاج الديار المصرية يستقبلها حارس بوابة!

- ألم تعلم يا سيدي بما أصابنا؟ لقد ضربنا الوباء وأصاب الداء البلاد والعباد، هجم علينا الطاعون متسللًا من الإسكندرية، قاذفًا كل من يقف في طريقه حتى وصل القاهرة. وفي غضون أيام، كانت الطرقات قد جافت بالموتى، وامتلأت المساجد والخانات بجثث لا تجد من يدفنها حتى أصبحت الكلاب تنهش في الأبدان والديدان تتنقل بين الجثامين ورائحة الأجساد المتحللة تضرب الدروب، لقد توقفت الحياة يا سيدي تمامًا، تعطلت الأسواق وجفت أوراق الشجر وبركت مراكب الصيادين ولم تجد المواشي من يطعمها، فنفقت حتى قيل إن المرض يحصد ثلاثمائة نفر كل ليلة.

- يا ويلاه، وأين أطباء وحكماء البيمارستان؟

- كان الوباء أسرع من أي دواء أو علاج، في كل ليلة تمتلئ الشوارع بمرضى احمرت عيونهم وانتشرت البقع الحمراء في وجوههم وأصبحوا

اجسادًا بلا روح وعقولا اصابها الوهن وكل مفزوع مجزوع من الاقتراب منهم.

- وأين السلطان من كل ذلك؟

- لقد ماتت زوجة السلطان وابنته في يوم واحد، لم يسعفهم أمهر الأطباء ولا جبال المال المخزنة في القلعة، رحلتا في ليلة واحدة ورحل معهما السلطان، اعتزل الدنيا في غرفته تاركًا المرض ينهش في مملكته.

- أيعقل ذلك، سأذهب إليه الآن لأبلغه بعودتنا.

- لن تجده يا سيدي، فقد خرج من صومعته منذ عدة أيام، وطلب منا أمرًا عجيبًا!

- ماذا كان ذلك الطلب؟

- أمر بجمع كل الحرس وقادة الجيوش في اجتماع، وأمرهم أن يجوبوا المحروسة باحثين عن أربعين رجلًا يكونون جميعًا أشرافًا من نسل النبي، ويحملون نفس الاسم «محمد» وأن يلقوا القبض عليهم ويسجنوهم في جامع الأزهر، بعد أن هجره المصلون، حتى يكتمل العدد المطلوب، ولا نعلم حتى الآن ماذا سيفعل بهم، ولكن العدد قد اكتمل والسلطان الآن في طريقه إلى الأزهر.

***

(١٦)

انتهى الطريق في المدينة الوليدة ببيوتها قيد الإنشاء، وأهلها المرغمون على استيطانها، لم يكن قد اكتمل في تلك المدينة سوى قصر الحاكم والكنيسة الأم ذات الأقواس البارزة والأكتاف المعقودة، بنيت على هيئة كاتدرائية إشبيلية، أعظم كاتدرائيات إسبانيا.

امتلأت الساحة المقابلة للكاتدرائية بجنود الملك والملكة بعد أن اصطفوا حتى مدخل الكنيسة ليشكلوا طريقًا بأجسادهم يمر من خلاله إيزابيلا وفرناندو.

أمام المدخل، وقف عدد من الرجال يستقبلون الموكب الملكي المعظم. كان في المقدمة الكاردينال توماس دي توركيمادا، كهل في السبعين، ارتدى جلبابه الأبيض المرصع بصليب زين باللون الأحمر الداكن، يلقبه محبوه بمطرقة الزنادقة بعد أن قضى نصف عمره يلاحق اليهود، ويعذبهم بما اقترفوه في حق يسوع من خيانة، حتى أصبح مقدسًا يسافر له الناس من سائر المدن لينعموا برؤية نور المسيحية على الأرض، ويقبلوا كفه ويتناولوا التوبة من يديه.

وإلى جواره كان ذلك القصير المترهل، الأسقف خيمنيث يقف منحنيًا منذ زمن في انتظار اللحظة التي ستصل فيها الملكة لينقض على يديها مقبلًا، أما ثالثهما فكان رجلًا بدا مسكينًا فقيرًا بملابس راعي أغنام بسيطة، وجسد نحيل ولحية ناصعة البياض طويلة، كان يقف بوجه جامد وعينين متيقظتين.

وصلت إيزابيلا أخيرًا إلى الكاتدرائية الجديدة، فاجأت الجميع بانحنائها أمام تمثال يوحنا المعمدان الذي نحت حديثًا ليزين واجهة المدخل. أمسكت إيزابيلا بقدم التمثال ثم تلت صلاة سريعة وبعدها رسمت الصليب على جسدها تبركًا، وتمتمت بكلمات من الإنجيل «لاَ تَخَفْ، لأَنَّ الَّذِينَ مَعَنَا أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ مَعَهُمْ». ثم اعتدلت لتستكمل طريقها إلى داخل ردهة الكنيسة.

سلم الرجل صاحب اللحية الطويلة على الملك فرناندو محاولًا تقبيل يده، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة فاترة: - هل تعلم يا سيدي ومولاي المعظم أن المسلمين أيضًا يؤمنون بيوحنا المعمدان؟

نظر فرناندو له متعجبًا:

- وكيف ذلك؟

- إنه نبي عندهم اسمه يحيى.

- عندهم؟ الست بمسلم يا شيخ مقرئ؟

- أنا لا أنتمي لهذا العالم، ولا لتلك الأرض، أنا مجرد رجل وهب عمره يبحث عن الحق.

- وهل وجدته يا مقرئ؟

- سأجده معك يا سيدي بمشيئة الرب.

ابتسم فرناندو في زهو معجبًا برد الشيخ العجوز. مر الجميع من الصحن الكبير للكاتدرائية الجديدة المحاصر بأجنحة أصغر حجمًا وأقل شأنًا، تفصل بينهم أعمدة شاهقة، تحمل قبة ذهبية، زينت بفتحات صغيرة ونقوش مبهرة لبطرس الرسول، والقديسة مريم المجدلية. على جانبي الرواق، كانت تنتشر التماثيل الصغيرة التي نحتت بمهارة لتعكس حيوية وعاطفة القديسين والملائكة المعصومة من الخطايا.

اجتاز فرناندو ومقرئ الصحن، ووصلوا إلى الرواق الأخير حيث المذبح، وقفت إيزابيلا ومعها الكاردينال والأسقف، تحمل تعبيرات وجه قاسية، بدت مستاءة، نظرت لمقرئ: - من الأفضل لك أن تكون مفيدًا بحق وإلا كانت نهايتك قد اقتربت.

اعتدل الشيخ في وقفته، لم يبدُ عليه أنه يبالي بتلك الكلمات الحادة المتوعدة، وقف يستعد لإلقاء خطاب طويل: - جلالة الملكة ونور إسبانيا الهادي للحق والصواب، وسيدي ملك الملوك وموحد الممالك، إنه بفضل الرب ورعايته، أصبح النصر قريبًا ودحر الكفار وشيكًا بعد أن طرق الجوع كل باب في غرناطة، وانتشرت المجاعات والفتن بين الشوارع، ودب اليأس في النفوس، والكل عالم بأن أميرهم ضعيف بائس.

توقف مقرئ واخشن صوته ليبدو متأثرًا وحزينًا: - ولكنهم يا مولاتي، رغم كل ذلك ما زالوا صامدين.

ردت الملكة:

- صدقت وإني أسأل نفسي، كيف بعد كل ذلك لا يزالون يقاومون!

- الأمل يا سيدتي.. الأمل كالماء، يبقي الحياة على الأرض مهما نضبت الثمار، إذا لم يقتلع الأمل من جذوره دبت الحياة في الشجر ونضجت النفوس.

- ومن أين يأتي ذلك الأمل؟

- إنهم يعتقدون أن جيوشًا هائلة من أعوانهم المماليك والعثمانيين ستأتي

لنجدتهم

- إنه أمل بعيد وبائس.

- ولكنه يظل أملًا.

- وكيف نقضي عليه؟

- عمر بن حفصون يا سيدتي..

وقعت الكلمات على الجميع كماء بارد، من هو ذلك العمر الذي سيفتح غرناطة ويقضي على أمل المسلمين، وكيف لرجل يحمل اسمًا عربيًّا مسلمًا أن يقضي على إخوانه، علت الأصوات بين الحاضرين محاولين تفسير كلمات الشيخ.

لم يكن يعلم أحد من هو عمر بن حفصون سوى الراهب الدومانيكي توماس دي توركيمادا الذي نظر للشيخ متعجبًا وهو يحكي عنه للحاضرين: - إنه محارب عظيم وقائد جليل ظهر منذ زمن بعيد ما يقرب من خمسمائة عام، كان أول من حمل سيفه حاميًا للمسيحية وناصرًا الحق. ارتد عن دينهم وانقلب على الأمويين المحتلين، جمع جيشًا من أبناء إسبانيا المخلصين، وأطلق ثورة كعاصفة متأججة، تنطح الحامية تلو الأخرى حتى استعاد ما يقرب من شرق الأندلس بالكامل.

صاح خيمنيث في حماس:

- المجد للرب في العلى!

استكمل دي توركيمادا:

- ولكنه لم يجد من يعاونه من حاكمي الممالك الأخرى، الكل خائف من معاداة العرب، وكل يحمي ملكه من الزوال. ظل يقاوم ويحارب لنصف قرن حتى وافته المنية، فتقاسم أولاده مملكته وحملوا من بعده راية النضال حتى هزمهم الخليفة الأموي الملعون عبد الرحمن الناصر واستعاد شرق الأندلس من جديد، ولكني لا أفهم ولا أعتقد أن من الحاضرين من يفسر كيف لفارس خالد ومناضل جاسر كعمر بن حفصون أن يكون المسمار الأخير في عرش المسلمين؟

ابتسم الشيخ بعد أن تيقن أنه قد أسر قلوبهم وعقولهم ثم قال مفسرًا: - إن عمر كان إسبانيًّا أصيلًا، ولد على تلك الأرض مسيحيًّا، وارتد مجبرًا ككثيرين ممَن يسمونهم الآن بالمولدين، كناية عن أنهم قد ولدوا من جديد بعد أن دخلوا في الإسلام. وقد جمع عمر بن حفصون حوله هؤلاء المولدين الوطنيين

ليحاربوا العرب والبربر الذين احتلوا المناصب، واخذوا خيرات الاندلس لهم، دون غيرهم، وهو ما لا يزال يحدث حتى اللحظة.

إذا كنتِ يا مولاتي تبحثين عن نصر قريب وحاسم، فعليكم أن تبدأوا بأنفسكم، غيروا من فكركم وازرعوا القلاقل والفتن بينهم، انشروا اسم عمر بن حفصون وحكايته البطولية بين أهل غرناطة، اجعلوا من جواسيسكم جسرًا تمرون عليه، قولوا لهم إنكم جئتم لاستعادة أرضكم وأرضهم المسروقة، تحملون نور المسيحية لإعادة الحقوق لأصحابها وسكانها الأصليين أبناء إسبانيا من المولدين. احكوا لسكان المدينة المحاصرة أنكم قادمون لطرد العرب والبربر، وأنه بطرد هؤلاء، هم يحكمون ويرثون ما أخذه العرب. أطلقوا اسم عمر بن حفصون على كتائبكم المحاصرة لأسوار غرناطة واجعلوا غايتكم نبيلة شعارها «نصرًا للأمة وتحريرًا للأرض وإقامة للعدل».

حسمت كلمات مقرئ نفوس المستمعين. اشتعلت الفكرة في النفوس كالهشيم، بدا الكل معجبًا وهائمًا بأحلامه التي دستها كلمات الشيخ. يا لها من فكرة نبيلة لم تخطر على بال بشر من قبل!

نظر فرناندو إلى زوجته فوجدها صامتة شاردة، كان يحفظها عن ظهر قلب، لقد استطاع ذلك الشيخ المجهول أن يفتن قلبها ويثير إعجابها، مثلما فعل في فرناندو عندما طرق بابه، ولا يعلم لماذا وافق أن يقابله لكنه أفلح بمقابلته.

ظل فرناندو هائمًا سارحًا:

جيش وطني وقوة ضاربة تحمل على عاتقها إسبانيا المحررة. ظل يتخيل حجم الفتنة التي ستشتعل بين العرب والبربر والمولدين. ثورات داخلية وانقلاب شعبي، يفتح الباب على مصراعيه لدخول آخر معاقل الأندلس وأصعبها على الإطلاق، يا لها من خطة تفوق الخيال.

كان عليه أن يخبئ حماسه الشديد أمام الشيخ المجهول صاحب الفكرة، حتى يعلم ماذا يكون مطلبه مقابل الفكرة الخبيثة، نظر فرناندو لمقرئ بوجه جاد دون مشاعر: - ما طلباتك لنحققها لك؟

- رضاك سيدي هو غايتي.

- ألا تحتاج مالًا أو سلطانًا؟

- لقد بلغت من العمر عتيًّا ومللت الدنيا.

نظر فرناندو متعجبًا:

- إذن لماذا ساعدتنا؟

ابتسم الشيخ منحنيًا في إشارة لرغبته في الرحيل: - لكل زمن حاكم، وانتم حكام هذا الزمن!

***

(١٧)

الوجوم سيد الموقف، الفرح نادر كالذهب، لم تعد شمس الأمل تشرق على غرناطة، تراجع حماس الرجال وهمم الشباب. اختفت خطابات الجهاد وشحذ الهمم المعتادة منذ بدء الحصار الصليبي. فرغت ساحات البازيين وباب الرملة من آنسيها. السير في الطرقات كالحداء في مدينة من الموتى أو الجلوس في مقابر جنود مجهولة ماتوا قبل أن تزهق أرواحهم، لا أصوات في الحوانيت ولا في الأسواق بعد أن فرغت المخازن من كل شيء.

الأطفال ساكنة والأمهات باكية والرجال يدعون والشباب مصدومون، والكل صامت حتى البعير والطيور، لم يقطع ذلك المشهد البائس سوى أصوات حوافر حصان تضرب الأرض من بعيد، ترن أصواتها في أنحاء غرناطة رغم أنه جواد واحد يحمل على ظهره فارسًا شجاعًا.

اخترق الفارس شوارع غرناطة رافعًا راية خضراء يصرخ بعلو صوته:

- لغرناطة رجال تحميها، حي على الفلاح.

ظل يصرخ ويتبعه صدى صوته بين كل سرداب وحانة، يجوب الشوارع حتى قطع الهضبة الكبرى صاعدًا إلى قصر الحمراء استجابة لدعوة الأمير عبد الله الصغير في اجتماع عاجل.

فور أن وصل إلى حديقة العريف ورأى تجمع أهل العلم والحرب، علم أن في الأمر شيئًا مريبًا.

اخترق بهو السباع ومنها إلى قمارش حتى سمع أصوات الرجال تتصارع، تشجب وتندد، تؤيد وتعارض. سكت الحاضرون فور دخوله، لم يكن أحد على استعداد أن يبلغه بقرار الأمير الأخير، والزائر القادم بعد قليل. نظر الأمير إلى وزيره ابن كماشة ليتولى مسؤولية إبلاغ الفارس، ابتسم الوزير في قلق:

- مرحبًا بالفارس الشجاع موسى بن أبي غسان في حضرة الأمير.

خلع موسى خوذته غير مبالٍ بتلك الكلمات الرسمية، وجلس على أقرب مصاطب القاعة، بوجه جامد وقاسٍ دون أن يرد السلام على أحد من الحاضرين.

حاول ابن كماشة أن يستعيد توازنه، بعد تلك الحركة متمالكًا غضبه، بادره بابتسامة شاحبة وأكمل:

- لقد انتهت مفاوضاتنا مع القشتالة والتي استمرت لقرابة شهرين، وسيأتي وفد من القشتالة يرأسه قائد الجيوش القشتالية فرناندو دي ثافرا لتوقيع

الاتفاق مع الامير.

نظر موسى في ذهول متسائلًا:

- عن أي اتفاق تتحدثون. هل سيعود الصليبيون لبلادهم؟

- لا يا أبا غسان. ولكنهم سيرفعون عنا الحصار ويؤمنوننا على بيوتنا وأموالنا ودييننا وصلاح أمرنا، ويتركوننا نعيش كما هو حالنا الآن.

- في مقابل ماذا؟

- نفتح لهم المدينة.

- يا ويلاه، ستسلمون آخر ما تبقى من عزة المسلمين بأنفسكم للصليبيين. والله لن أكون شاهدًا على تلك الخيانة.

- اهدأ يا موسى، ولا تحدثنا بلغة الخائنين لأوطاننا، إن الحصار وصل لشهره السابع، نفدت خزائننا واشتعلت السرقات والفتن. أصبح المسلمون يقتلون بعضهم البعض.. لم تعد الأم قادرة على إرضاع ابنها، ولا الراعي على إطعام غنمه، حتى بقايا الطعام وأسوأه اندثرت. وإذا بقي الحال على هذا إما أن نموت في بيوتنا أو نأكل بعضنا بعضًا.

- لم تنفد كل مواردنا بعد، بل ما نفد هو أملنا وعزتنا وكرامتنا، فلنعمل على إثارة الشعب من جديد ولنضع السلاح في يده ولنخرج للعدو نقاتله حتى آخر نسمة.

- لم تعد الكلمات الحماسية تلمس القلوب وأصبحنا واهنين. علينا أن نعترف بهزيمتنا يا موسى.

- كيف لي أن أعترف بهزيمة لم تحدث. والله لو بقي الحصار ألف عام، فلن تخترق أسوار غرناطة. الله يحميها بجبال شلير من الشرق ومن الجنوب تقف أسوارنا وأبراجنا شامخة أمامهم، ولدينا من الرجال ما يفوق أضعاف جنودهم، فعن أي هزيمة تتحدث؟

- يا موسى، إنها ليست هزيمة كاملة، انظر لبنود الاتفاق واقرأها، لقد نجحنا في كسب عشرات الامتيازات لصالح أمتنا. فديننا مصان ونساؤنا وأولادنا في أمان، وأملاكنا ومساجدنا محرمة على القشتالة، على مر كل الأزمان.

- أنسيت يا ابن كماشة أم أصابتك الشيخوخة! افتح كتب التاريخ واقرأ عن سقوط طليطلة ولشبونة وقرطبة وسرقسطة وإشبيلية وبلنسية وأخيرًا مالقة وآلمرية، ماذا حدث لتلك المدن وأهلها، هل بقيت فيها مئذنة أو ظل فيها إسلام، أين ذهب المسلمون فيها وأين راحت عزتهم؟ تنصَّر من تنصَّر، وهرب

من هرب، وضاع مجد العرب الذي بقي مئات الاعوام. استقيموا يرحمكم الله!

- لقد قضي الأمر يا موسى، علينا أن نرحم أهلنا من عذاب الجوع وبؤس الحياة. سيحضر مندوب القشتالة بعد قليل ويوقع الاتفاق. وتُسلم المدينة في مطلع عامهم الجديد، أي بعد شهرين من الآن، وقد اتفقنا على أن نتشارك جميعًا في التوقيع على تلك الوثيقة. فنحن في أحلك الظروف وأعصاها، وعلينا أن نقف وقفة رجل واحد في تلك اللحظات. نريدك معنا حتى لا تنتشر الفتن بين الأسر والأصدقاء.

قام موسى من مقعده في غضب محموم:

- قولوا لملك النصارى عندما يحضر أن عليه أن يعلم أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة، في المكان الذي أموت مدافعًا عنه، من عار أحمله في أفخم قصور الدنيا نغنمها بالخضوع لأعداء الدين. فلتدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه. باب الخيانة والخزي والعار الذي سيلاحقكم حتى تقوم الساعة.

ثم ارتدى موسى خوذته ورفع سيفه:

- إني ذاهب للقاء ربي، أما أنتم فدمتم خائنين لأوطانكم.

***

رفرفت الأعلام الخضراء من كل جانب، يحملها رجال احتلت التجاعيد وجوههم السمراء، تغطيها عمامات خضراء، يصرخون في وجوه الجنود الذين أحاطوا جامع الأزهر المهيب الذي بدا على غير عادته ساكنًا مستقرًّا بأسواره المبنية بأحجار رملية، وقبابه الكبيرة المعشقة بالعقود المقوسة. بينما ظل جسد المسجد يعكس جمال الفنون والنحت بمشربياته الصغيرة والحلية من الزجاج المعشق، الذي أقامه السلطان قايتباي فور توليه حكم البلاد ضمن مجموعة إصلاحات للمسجد القديم، منها واجهات من الرخام، ومئذنة رشيقة تسجل باسمه تضاف لمآذن الأزهر المشرفة.

كان الجنود يغلقون بأجسادهم أبواب المسجد التسعة مانعين أن يدخله أي داخل. ظل أصحاب الأعلام الخضراء يصرخون في العوام الذين وقفوا يشاهدون ما يحدث ويحتجون في وجه الجنود:

- أما زلتم تتساءلون لماذا حل الوباء علينا وجعل نعوش الموت تضرب بيوتنا. تغلقون المساجد وتمنعون الصلاة وتحتجزون الصالحين فيها ثم تستعجبون من غضب الله!

حاول أحدهم اقتحام الحاجز البشري بجسده العملاق، ولكنه لم يفلح، ركله الجنود بكل شدة وقسوة، ولكنه ظل يجذب في دروعهم ويركلهم بأقدامه ثم يقول لهم:

- أتظنون أنفسكم أقوياء، والله لن تكونوا أقوى من هامان وجنوده، عليكم لعنكم الله في كل عصر أيها الفاسقون!

كان المشهد أكثر بؤسًا مما ظنه أمير الحجاج الذي صاحبه ابن زيدون وسهيل. حاول الثلاثة أن يعثروا على السلطان المفقود بينما كان سهيل قلقًا يبحث عن صديقه الغائب أويس، ولكن المشهد كان قاسيًا على القلوب، موتى ومشيعون فى القبور، فقراء يلعقون التراب بألسنتهم، ونساء راحت أصواتها حزنًا على موتاهن، وأشراف محتجزون، وجثث تحللت بين الدروب، وثورات محتدمة تسب السلطان في قلب المحروسة. ماذا حل بكِ يا مصر!

كان أمير حراس القلعة يقف ومعه القائد المملوكي عثمان القرطبي عند مدخل جامع الأزهر خلف جنوده يحاول أن يهدئ من روع المتظاهرين، ولكن لا نفع في هداية ثور هائج.

نادى ابن زيدون على عثمان حتى سمعه، فتح لهم الطريق ليدخلوا بين الجند والمتظاهرين، احتضن عثمان ابن زيدون وسهيل:

- مرحبًا بالحجاج الاطهار، والله إني لارى في وجوهكم المباركة الطاهرة رسالة من الله بانقضاء الغمة.

قاطعه سهيل:

- ماذا يحدث يا عثمان؟ هل فقد الجميع عقولهم؟ وأين السلطان وما حكاية الأشراف المحتجزين في صحن المسجد؟

- إن الثوار هم أهالي وأنصار الأشراف المحتجزين، وقد جمعوا العشرات من الحرافيش والعامة بعد أن أقنعوهم بأن الله لن يرفع غضبه عن مصر إلا بعتق الأشراف من حجز السلطان. أما السلطان فهو الآن في صحن المسجد ومعه الأربعون شيخًا الذي أمرنا السلطان بالبحث عنهم وتحفظ عليهم.

- وماذا سيفعل بهم السلطان؟

- لا أحد يعلم نوايا السلطان بالتحديد، إلا أنهم يقولون أن رسول الله قد جاء لسلطاننا في المنام بعد أن ماتت زوجته وابنته، وأكد له أنه لا حل لانقضاء الغمة إلا بجمعه لأربعين شريفًا من نسل الرسول يحملون اسمه ويجتمعون جميعًا حول منبر الأزهر، ولكننا لا نعلم ماذا سيفعل بهم السلطان بعد أن جمعهم.

همس سهيل في أذن ابن زيدون:

- والله إني لأظن أن السلطان قد فقد عقله هو الآخر.

كتم ابن زيدون على أنفاس سهيل:

- اسكت يا بني ولا تجعلهم يسمعون هرطقتك.

ثم سحب سهيل من يده وبدأوا في دخول الجامع سائرين على أطراف أصابعهم. كان الأزهر مختلفًا عن كل مرة. زينت جوانبه بالورود ووضع إناء يحمل ماء الورد في أركان المسجد الأربعة وأشعلت أعواد البخور الهندية برائحتها الزكية حتى غيم دخانها على الساحة. كان المكان هادئًا لا يوجد سوى أصوات متفرقة، جاءت من حلقة بعيدة، اجتمع فيها الأشراف الأربعون، يقرأون آيات من القرآن بأمر من السلطان الذي وقف صامتًا ينظر إليهم دون همس.

ظلوا لساعات يقرأون لا يتوقفون، والسلطان يراقبهم لا يحرك ساكنًا حتى جاء موعد صلاة العصر. توقف الأشراف عن القراءة وبدأوا الوقوف والاصطفاف في اتجاه القبلة بكل همة وفقًا لاتفاق ونظام بدا أنهم عقدوه مع السلطان قبل أن يبدأوا، رفع الشيوخ أيديهم اليمنى إلى جانب آذانهم،

وبصوت واحد ولحن متحد، اذن الاربعون لصلاة العصر مجتمعين.

كان بالحق مشهدًا يخطف القلوب الشاردة، كما خطف قلبي ابن زيدون وسهيل. فكم مرة في العمر يمكنك أن ترى أربعين صوتًا عذبًا مجتمعين يطربون العقول!

ظل سهيل وابن زيدون شاردين مع الأصوات العذبة حتى قطعتها يد وضعت على كتفيهما وصوت سيئ جاء ليذهب بالهالة والخشوع والأجواء المقدسة:

- هل تظنون حقًّا أن هذا الدجل سيذهب بوباء دون دواء شافٍ له، بل هل تعتقدون حتى أن رسول الله من الممكن أن يأتي لذلك السلطان الضال في المنام؟

نظر ابن زيدون وسهيل خلفهما لصاحب الصوت الذي يحفظانه عن ظهر قلب. احتضن سهيل أويس:

- اشتقت إليك يا أخي الذي لم تلده أمي.

بينما ضحك ابن زيدون:

- والله خشينا أن يكون قد ابتلعك الوباء كما ابتلع الآلاف.

- أنت تعرف يا فارسنا الشجاع أن الموت يخشى أن يطرق بابي، فعلها في مالقة ولم يفلح، فهل تعتقد أنه سيخطئ الطريق مرتين. احكوا لي كيف كانت رحلتكم الكريمة المباركة؟

يصرخ سهيل في وجه أويس وهو يبكي بسعادة:

- أكاد لا أصدق عينيَّ. جمعتنا الدنيا مجددًا، أشعر أن الأيام تعاد، وكأني ما زلت أنتظرك أمام حمَّام البركة في غرناطة.

ثم حشر سهيل أنفه بين إبطيه ليشم رائحة عرقه قائلًا بحماس:

- ياه حمَّام البركة! فلنذهب لأحد حمَّامات السيدة زينب، إني لم أغتسل منذ أشهر طويلة وجوفي يمتلئ بالرمال.

يمسك أويس بكتف سهيل محاولًا أن يثنيه عن الرحيل:

- انتظر يا أخي أريد أن أعرفك على جنين.

- ومن تكون جنين تلك؟

- زوجتي التي عرفتني عليها!

***

غرناطة

يبدو أنه حلم جميل.. لا، إنه لم يكن قط حلمًا، إنه واقع، نصر من الرب وعزة من روحه بثت فينا لننشر نوره الخالد بين أراضي الكافرين، ها هي أبواب غرناطة تفتح أمامنا دون صرخة ولا صليل سيف، نخترق أبوابها بسرية تعدادها ثلاثمائة جندي وقسيس، ارتدوا أجمل حليهم وزينتهم وتلفحوا برداء النصر الأحمر المرصع بالصليب المذهب، وشعار دولتنا المعظمة «الأسد ذو الأنياب».

وفي المقدمة كان القسيس الملكي يرتدي قبعته السوداء حاملًا في يده الصولجان الرسمي المنحوت على هيئة صليب صنع من أجمل أحجار الدنيا. وخلفه يسير قائد الجيوش القشتالية بيدرو دي مندوسا بسريته الصغيرة صاعدًا لقصر الحمراء. كانت سرائر الخوف تمتلك سكان المدينة الذين أحكموا إغلاق النوافذ واختبأ بعضهم تحت روافع الموائد، الكل خائف من بطش هؤلاء الجنود القلائل، كانت نظرة الخوف في أعين الأهالي تثير حماس الجنود وتشعرهم بحجم الانتصار المحقق.

وصل الجنود إلى ساحة قمارش الجميلة، كان الأمير عبد الله واقفًا يحمل العار في عينيه، والابتسامة البلهاء على وجهه، ومن خلفه وقف قائد الجيوش ووزير الأمير يوسف ابن كماشة. رفع بيدرو دي مندوسا يده وحياهم بالإسبانية: - السلام على المؤمنين.

رد الأمير بالعربية: - وعليكم السلام.

- اسمح لي أيها الأمير أن يفتش جنودي أرجاء القصر ويصعد الباقون على أبراج الحمراء.

كان وقع الكلمات قاسيًا، لكنه أجاب مجبرًا: - لك ذلك، هل من شيء آخر؟

- إن الملك فرناندو حماه الرب في انتظارك الآن في الموقع المتفق عليه لاستلام مفتاح المدينة.

سكت القائد للحظة، ثم قال بلغة آمرة: - عليك التحرك فورًا.

- هل هذا أمر أيها القائد؟

- لا يا سيدي، إنه واقع وعليك أن تقبله.

لم يجد الأمير عبد الله الصغير ما يقوله. نظر إلى وزيره ابن كماشة ليتأكد أن ترتيبات رحيله تسير كما أمر، نادى الوزير على الجنود فجاءوا بعد أن خلعوا رداءهم الدال على أنهم حرس قصر الحمراء، وحمل أحدهم خوذة

فضية تخفي ملامح الوجه، سلم الجندي الخوذة للامير الذي سارع بارتدائها، ثم هموا جميعهم بالرحيل من الباب الخلفي للقصر.

حاول الأمير أن يتجنب النظر إلى القائد القشتالي، إلا أنه لم يترك له مجالًا للهروب، قطع طريقه قائلًا: - أيها الأمير لنا رجاء أخير، سنطلق من مدفعكم الملكي دانة واحدة، لنعلن عن سيطرتنا على المدينة.

ثم ابتسم مستهزئًا قبل أن يسمع ردًّا من الأمير: - وإني لأذكرك يا سيدي، لا تنس أن تأخذ مفتاح غرناطة، وأنت ذاهب لمقابلة الملك.

بدأ جنود القشتالة في الصعود وإحكام السيطرة على القصر من كل جانب، فتحوا أبواب كل الغرف، لم يبالوا بمن يقطنها، ظلوا يغنون ويصرخون «ها قد عادت بلادنا.. حقًّا إن النصر ملاذنا»، أزالوا أعلام دولة بني الأحمر من على الأبراج ورفعوا مكانها العلم المصنوع من الحرير، مرسومًا عليه شعار المملكة الجديد، «قلعة حامية من كل داء وأسد منقض على الأعداء»، حتى وصلوا لبرج القصر الرئيسي الأعلى طولًا ومقامًا، حمل القسيس صليبًا خشبيًّا كبيرًا أمر بربطه في جانب البرج المطل على المدينة ليكون على مرأى لكل من نظر لأعلى. فور أن انتهوا، اجتمع الجنود في ساحة قمارش، جثوا جميعًا على ركبهم، حمل بعضهم الشموع وأعلن القسيس الأعظم إقامة صلاة الحمد والشكر te deum laudamus للمرة الأولى من قلب قصر الحمراء.

اصطفت فرقة الرهبان الملكية لتبدأ الغناء، ومن خلفهم وقف أحد الرهبان يمسك بقارورة صغيرة مصنوعة من الفضة تحمل ماء مطهرًا حمل خصيصًا من بحيرة طبرية حيث عمد المسيح، ألقى بالمياه في أركان الغرفة الأربعة وأصوات الجنود والرهبان تمتزج بتراتيل الإنجيل وأنغام النصر.

فور أن انتهت الصلاة توجهوا جميعًا إلى البرج، رفع قائد الجيوش القشتالية بيدرو دي مندوسا يده ليستعدوا بتجهيز المدفع، كان ذلك هو الإعلان الأخير لتحرير المدينة من المسلمين المغتصبين لقرون طويلة. أطلق المدفع ثلاث ضربات. كان صوت الضربات مدويًا أعلى من أي مرة أطلقها ذلك المدفع، اهتزت المدينة بشدة، تحركت الحوائط وزلزلت الأسوار، ظل صدى صوت المدفع يحوم في كل جانب حتى وصل لأرجاء مدينة سانتا في. سمعتها الملكة إيزابيلا للمرة الأولى، ومن حولها كان بعض العامة ورجال الدولة مجتمعين، ذرفت الدموع للمرة الأولى. كانت تلك المرة الأولى التي تبكي فيها أمام الحاضرين في تلك المدينة الناشئة، لم يتمالك البعض نفسه وبدأ يتراقص فرحًا، احتضن الرجال بعضهم بعضًا. ظلت إيزابيلا تبكي وهي تعيد كلمات بطرس الرسول «شُكْرًا ِللهِ الَّذِي يُعْطِينَا الْغَلَبَةَ بِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ» ثم تعيدها

مجددًا دون توقف.

أطلقت أجراس الكنائس في المدينة الصغيرة، ظلت أصوات تلك الأجراس تطلق رنينها لساعات دون توقف، حتى حل الظلام ومر اليوم الأول، وأشرقت شمس جديدة على غرناطة المسيحية. سُمح لأطنان من الدقيق والخضروات بدخول المدينة لإنقاذ سكانها الصامدين لثمانية أشهر، رفعت رايات القشتالة في كل شوارع المدينة الراكدة بعد أن زينتها الورود وطيبتها العطور استعدادًا لاستقبال ملكيها الجديدين في كاتدرائية غرناطة الجديدة، مسجد غرناطة الكبير سابقًا.

***

(٢٠)

معاشر أهل الدين هبوا لصعقــــــــة
وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنــــــــــه
وزعزع من أكنافه مستطيرهـــــــا
فوا حسرتاه كم من مساجد حولت
وكانت بيت الحرام شطورهـــــــــــا
ووا أسفاه كم من صوامع أوحشــــت
وقد كان معتاد الأذان يزورهـــــــا
وكم من صغير في حجــــــــر أمــــــــــــه
فأكبادها حراء لفــــــح هجيرهــــــــــــا
وكم صغيــــــــــر بــــدل الدهـــر دينــــــــــــه
وهل يتبع الشيطان إلا صغيرهـــــــــا
سلام عليكم من عبيــــــد تخلفـــــــــوا
بأندلس بالغرب في أرض غربــــــــــــــة

نظر الشيخ الصباغ إلى سهيل وابن زيدون بعد أن أتم الثلاثة قراءة المرسال الغامض القادم من غرناطة من مرسل مجهول: - ما هذا بالله عليكم؟

استند سهيل برأسه على أحد الحوائط بعد أن استنشق نفسًا عميقًا محاولًا التخفيف من آلام ظهره وقلقه مما يحمله الخطاب: - لا أحد يعلم يا شيخ. وجدت الخطاب ملقى عند عتبة داري، وقد بدا أنه هنا منذ زمن بعيد، فقد كان متسخًا محاطًا بالأتربة.

- هل تظن أننا تأخرنا؟ هل ضاعت غرناطة هي الأخرى؟

- اهدأ يا شيخ صباغ، ما أمامنا مجرد أشعار قاسية، ورثاء لشاعر حزين على أرضه وأهله، وربما مجرد تحذير من اقتراب السقوط، لكنها ليست يقينًا بضياع المملكة.

يقاطع ابن زيدون:

- هل علمتم ان بعثة الرهبان التي ارسلها السلطان قد عادت امس بعد رحلة اقتربت من عام، وقد حملوا رسالة من القشتالة وبعض الهدايا والأحجار.

- وماذا كان في الخطاب يا ابن زيدون؟

- يقولون إن الملعون فرناندو وزوجته قابلا الرسل بود وحفاوة وبعثا بخطاب عظّما فيه السلطان وألقيا عليه السلام، واكتفيا بكلمات قليلة يقولان فيها أنهما لا يفرقان بين الرعايا من المسيحيين والمسلمين، ولكنهما لن يتركا أراضي آبائهما وأجدادهما في يد الأجانب. وإن المسلمين إن شاءوا حياة في ظل حكمهما، فإنهم سوف يلقون نفس ما يلقاه الآخرون من رعاية وحقوق.

يقف سهيل فجأة في غضب محموم:

- وما معنى تلك الهرطقة؟

يحاول ابن زيدون أن يتمالك نفسه بعد أن انتابه الغضب هو الآخر: - أظن أنها تعني أنهم ماضون في حربهم ضد الإسلام...

يقاطع الصباغ محافظًا على هدوئه:

- ولكن ماذا تظنون السلطان قايتباي بفاعل؟

يضحك ابن زيدون مستهزئًا:

- لن يفعل شيئًا يا شيخ، فلن يترك عرشه في مهب الريح ويذهب إلى بلاد الأندلس لنصرة شعب لا يعرفه.

يصرخ الصباغ متحسرًا:

- وماذا عن الإسلام والجهاد ونصرة أبناء الدين الواحد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، هل ضاعت الأندلس يا سادة!

يحاول ابن زيدون أن يهدئ من روع الحاضرين: - ادعوا لغرناطة، فلها رجال يحمونها وهم قادرون.

يقطع سهيل لحظات صمته الطويلة قائلًا:

- إذن علينا أن نحزم زادنا وأمتعتنا ونهم بالرحيل.

الصباغ:

- إلى أين؟

سهيل:

- إلى وطننا الذي اخطانا عندما تركناه، واصبح الان مهددًا بالزوال.

ابن زيدون:

- ولكن ماذا سنقول لأهالينا عندما نصل، عدنا إليكم بخفي حنين وزيارة لبيت الله الحرام!

الصباغ:

- قل لهم ذهبنا بحثًا عن أخ ينصركم أو صديق يفي بوعده، فلم نجد سوى كلاب الصحراء ترافقنا في سفرنا.

يقول سهيل في غضب:

- أهذا وقت تأنيب يا صباغ؟

الصباغ:

- ليس تأنيبًا ولكن أتطلبون مناصرة الغرباء وأنتم أول من تخاذلتم عن مناصرة إخوانكم في كل ربوع الأندلس، تبحثون عمن يحمي دنياكم باسم دينكم وأنتم لا تعلمون من أمور دينكم إلا ما يخدم دنياكم.

يقف ابن زيدون وقد احمر وجهه من شدة الغضب: - أتظنني من المنافقين يا شيخ السلاطين.

يحاول سهيل تهدئة الموقف:

- هدئوا من روعكم يا سادة. نحن مستثارون من شدة الموقف. دعونا نهم بالرحيل، فالوقت يداهمنا.

ينظر ابن زيدون إلى سهيل:

- أليس من المفترض أن يشاركنا أويس القرار أم أنك قد قررت مقاطعة صديقك إلى الأبد.

- ليس لي صديق هنا ولا حبيب، إن أردت الرحيل معنا فمرحبًا بك، وإن قصدت البقاء فافعل، أما أنا فعائد إلى وطني.

***

(٢١)

يبدو أن الثلث الأخير من الليل قد اقترب. ازدادت وحشة السماء واشتد نور القمر الذي حاول الضباب تشتيته دون فلاح، ملأ الظلام الحارات، خفتت الأصوات ولم يتبقَّ سوى ظلال نور خافت يضيء الممر الصغير بين مسجدي الرفاعي والسلطان حسن، ليرشد معتكفي الليل إلى طريقهم، يا لها من قاهرة بحق، تقهر قلوب سكانها في الصباح من زحام القادمين من شتى أرجاء المحروسة، وتكدس أسواق المغتربين من المغرب الأقصى لبلاد الرافدين. وفي المساء تقهر القلوب من وحشتها واختفاء دلائل الحياة فيها.

يمر نسيم هواء بارد يعلن عن اقتراب قدوم فصل الشتاء، يحرك عباءة أويس وخصلات شعره الساقطة من عمامته، يستنشق سريعًا ذرات ذلك النسيم ليُهدئ من دقات قلبه المتسارعة وصعوبة التقاط أنفاسه المتراكمة. يأتي صوت مغرد من جانب بعيد يكسر الصمت القابع، كانت أشعارًا ينشدها رجل كفيف، أسند ظهره إلى سور مسجد السلطان حسن، حاملًا حبلًا وحبارة وقماشة بيضاء، وجلس يغني أبياتًا للإمام الشافعي ويعيدها:

أحـب الصالحيـن ولسـت منهـم

لعلـي أن أنـال بـهـم شفـاعــــــــة

نعيـب زماننـا والعيـب فيـنـــــــــــــا

وما لزماننا عـيـب سـوانــــــــــــــا

ونهجو ذا الزمـان بغيـر ذنـــــــب

ولـو نطـق الزمـان لنـا هجانـــا

أنصت أويس للكلمات التي لمست قلبه الخائف، أحس أن النسيم البارد وأناشيد الكفيف، والصمت الجامد، والنور الخافت، كل تلك الأوجه اجتمعت من أجله، ظل يفكر شاردًا:

وكيف لا يكون وكل ما يحمله ذلك النسيم من رائحة وبرودة تنعش قلبه، وكل كلمة ترددها الأبيات تنير عقله المتصدئ بذكريات بلاده الباهتة. يحمل حنينًا لذلك الوطن الذي مر على الرحيل منه سنوات عدة والعودة إليه واجب حتمي مهما تكلف الأمر، ولكن متى نعود لأوطاننا المنكوبة ربما كان سهيل على حق، إن باءت مساعينا بالفشل، فلنعد حتى وإن طأطأت رؤوسنا من خذل، فهي أفضل من خيانة بلادنا، بعدم اللحاق بصفوف مجاهديها والقتال على جبهتها. ولكن من قال إن المساعي قد فشلت والسلطان يمهد، ويؤكد

انه لن يترك غرناطة وحيدة وهو الناصر باسم الإسلام. فربما تكون هي الخيانة بحق إن تركنا مصر الآن وعدنا، ولعلنا نكون علة السلطان إذا تنحى عن إرسال خير أجناد الأرض إلى الأندلس.

يتوقف أويس عن التفكير، يتحسس أبواب وبيوت الحارات بعد أن حجب الظلام ملامح الطرق وامتلأت الحوانيت بالوحشة. ارتطمت قدماه أخيرًا بعتبة باب دار سهيل. تصبب عرقًا وزادت دقات قلبه أكثر فأكثر وراحت الأفكار تتطارح في عقله، هل يغلق الباب في وجهي، هل جن جنونه فيصفعني عندما يراني، كنت أعلم أن سهيل يفقد عقله في بعض الأوقات، لكني لم أكن لأتوقع يومًا أن يلعن أيام صداقتنا، ويقاطعني بسبب زواجي.

لم أخالف شرع الله أو أوامره، لم أنكث عهدًا أو أخرق تقليدًا بزواجي من السيدة التي أحببتها، ملاك اسمه جنين، أراد الله أن يجمعنا، فأزاح العوائق، ومهد بلدانًا، وقرب القلوب، وسبب الأسباب لنتقابل في بلد نحن فيها أغراب.

لقد أصابت غرناطة عقله بالجنون، واختلط الحابل بالنابل، يتهمني بالعار والخيانة لأني أحببت مسيحية، وهل تفرق القلوب عندما تتلاقى بين الأديان والأجناس، هل يعرف الحب الفرق بين السجود وترسيم الصليب، أيحرم سهيل علينا ما أحل الله لنا، ولكنه معذور من قلب امتلأ بالبغض والغل، مما رآه من دماء تسفك وبيوت تهدم، وحرم تخدش باسم الرب، رجال يحملون الصليب يقتلون وينهبون باسم الدين والأديان بريئة من نجاستهم، ولكن هل هذا عذر لأن يختلط علينا الأمر، فلا نفرق بين مسيحيين جاءوا من أراضٍ عندما تغيب عنها الشمس، تشرق في بلادنا، هل أصبح أهل البلقان أعداءنًا مثلما القشتالة، لأن كليهما على دين واحد، لو سار العالم بهذا المنطق لكان على جنين قتلي لأني على دين من قتل أباها وسرق أخاها، لا والله يا سهيل، لو أني لم أقرأ الإنجيل لظننت أن هناك دينين يحملان نفس الاسم. فالدين أيًّا كان، وفي أي مكان وزمان حاكم منصف للخير، حانث رافض للشر.

يعود أويس خطوات قليلة إلى الخلف، بعد أن استشعر أن الوقت قد مضى في لحظات شروده الطويلة، استجمع قواه وطرق الباب، لم تمر ثوانٍ حتى فتح سهيل بابه، وكان متيقظًا بعينين جاحظتين وبال مشغول، أدار سهيل ظهره تاركًا الباب مفتوحًا دون أن ينطق بكلمة.

نظر أويس لسهيل وهو يستكمل إعداد الأمتعة والتجهيز بالرحيل:

- أتتركني في بلاد غريبة، جئنا فيها رفقاء ونرحل عنها غرماء.

- لم تعد وحيدًا، ولم نعد أصدقاء.

- يا سهيل، الحياة اقصر من ان نقضيها في خلاف.

- لا سماح في كبيرة، ولا مغفرة في خطيئة.

- لن أناقشك في هذا الكلام، فهذا ليس مجالنا الآن.. ولكن يا سهيل، أتترك بلادك؟

- وكيف لي أن أترك بلادي، وأنا راحل إليها.

- انقضاء الأمل في قلبك وجنوحك عن مهمتك خيانة لبلادك.

- في بعض الأحيان تكون الحقيقة أوضح من الشمس، ولكننا لا نمتلك سوى أن نخفي رؤوسنا في الرمال.

- وماذا يعني ذلك؟

- أعني أن الأمر بيِّن، والمهمة انتهت والبقاء هنا لا جدوى منه.

- يا أخي الذي لم تلده أمي، قبل أن تستسلم، فكر، لماذا صمدت كل تلك المدة؟

- إنه ليس استسلامًا بل استيقاظ من وهم أنت وحدك من تعيش فيه، عقلك ينكر أن المهمة فشلت وقلبك يلهو مع الصبايا والنساء.

- حذار يا سهيل، فأنت تتحدث عن زوجتي، وإياك أن تحكم عليَّ وأنت لا تعلم ما أشعر به.

- أترى كيف أغوتك امرأة وأعصتك على أخيك وأهلك ووطنك، اخرج من داري، فاليوم كلانا اختار طريقًا يسلكه.

يفتح أويس الباب وهو يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة:

- هل تعلم يا سهيل، ما أصعب أنواع الخيانة.. عندما تأتي من صديق!

***

(٢٢)

اشتدت العاصفة وانطفأ القمر، غارت أسراب من الغمام، وانسالت على الراكبين بقطرات ممطرة مدوية كالسهام قانصة، تعالت أصوات شوشت عليها أصوات البرق، تصرخ من قلب السفينة:

- انجدونا، السفينة تغرق.

بدأت السفينة في الغوص ببطء وهدوء، الكل قد أصابه الهلع، امتلأت أجواف السفينة بمياه البحر وسيول الأمطار حتى انفجرت جوانحها لتنذر بموت قريب. أصوات أجساد مجهولة تتساقط من السفينة ترتطم مع مياه البحر، صراخ وعويل وصخب وهمس، أدعية وصلوات بنجاة من الغرق المحقق.

احتضنت جنين ابنتها الصغيرة القابعة في سرداب السفينة، كانت لا تزال نائمة لم يستطع جحيم المطر وشدة العاصفة إيقاظ الملاك الصغيرة من نومها العميق.

صرخت الأم في وجه زوجها:

- ما لك لا تبالي، الموت يحاصرنا والمياه فوق رؤوسنا وأنت قابع شارد، ألم يحن الوقت أن تستيقظ من غفوتك الطويلة.

تسلل النور الباقي من ضوء القمر إلى السرداب، وتسلط على وجه أويس، عكس أطلالًا من السواد المتراكم أسفل عينيه وخصلات شعره التي ابيضت وتتكاثر يومًا بعد يوم. نظر أويس لجنين بطرف عينيه المرهقتين دون أن يطلق صوتًا ثم عاد إلى هدوئه من جديد، احمر وجه جنين، وازداد إحكام قبضتها على جسد ابنتها الصغير، بدا من انكماش جبهتها أن أويس قد نجح في إشعال غضبها الكامن منذ فترة طويلة.

وقفت جنين بأداء حاد وغاضب، ركلت قدم زوجها صارخة:

- ألا يكفيك سنوات من العذاب والبؤس أثقلت بها حياتنا، يومًا بعد يوم منذ رحيل أصدقائك، وأنت تبتعد عني وعن ابنتك الوليدة «رقية» وعن الحياة كلها، توقفت عن عملك ولم تعد تبالي بمظهرك، مع كل يوم يمر يملأ البؤس بيتنا، كلما زاد العمر يومًا، قل حديثك وندرت كلماتك، لا أفهمك في الحقيقة، لم أعد أفهمك منذ زمن طويل، ظننت أن مشكلتنا في رغبتك بالعودة إلى غرناطة. عرقلتنا المصائب وعاندنا القدر لسنوات طويلة، وها نحن تركنا بيوتنا وأموالنا وتخفينا كاللصوص والعبيد، والموت حولنا من أجل تحقيق حلمك بلقاء

بلادك، ها نحن يا اويس عائدون!

توقفت جنين عن الكلام، تحاول التقاط أنفاسها بعد أن كتم الضيق على قصبتها الهوائية، وجسدها الطافح كبركان هائج بالحمم. انتظرت تبحث عن رد أو إجابة، لكن أويس ظل محافظًا على صمته، صامدًا لا يحرك ساكنًا، لم يكسر ذلك المشهد سوى أصوات اصطدام المياه مع هيكل السفينة الصامد.

انفجرت جنين في البكاء، تساقطت دموعها على جفون ابنتها، كانت الدموع أقوى من أصوات الرعد وهطول المطر وضربات العواصف التي فشلت في إيقاظ الصغيرة، ولكن دموع أمها كانت كفيلة، امتزج نحيب الأم مع بكاء الابنة المفزوعة وامتلأت سماء السرداب بالشجون والبكاء، حاولت جنين تمالك نفسها، كتمت أنفاسها لحظة ثم انفجرت من جديد دون جدوى، قالت بصوت باكٍ وهي تنظر لزوجها:

- طرقت البيوت وجبت الشوارع بحثًا عن طريق لترك القاهرة. بكيت تحت أقدام أمراء المماليك، وقبلت أيادي الشيوخ لنجدتنا. في كل مرة كانت الأمور تزداد تعقيدًا، مات السلطان قايتباي وتشتتت المحروسة فريسة شاردة مغلوبة على أمرها في غابة من السباع الجائعة. تفتتت مملكة المماليك بين الذئاب العثمانية تنهش في أراضي الشام، والغربان البرتغالية تمزق أساطيل المماليك البحرية في الغرب، ازداد فقر المصريين فقرًا، شحت غلالهم، توقفت التجارة عن بلادهم، وانقطعت الطرق وجفت الأسواق.

هل ذنبي أن البرتغاليين غيروا مسار تجارتهم باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. هل عليَّ أن أتحمل تحول طريق الحرير بين أفريقيا وأوروبا إلى منطقة حرب وساحة قتال بين أساطيل المماليك الخاسرة ضد سفن الإسبان والبرتغال، من المسؤول عن انقطاع السفر وتدهور الحال وخزائن الأمة الخاوية... زوجتك وابنتك؟

ظننت أن الرب أهداني زوجًا يعوضني عن أبي المقتول وأخي المخطوف، اعتقدت أن الحياة قد أشفقت عليَّ من عذابها وأهدتني جزءًا من كرمها بك، ولكنها زادت من همومي همًّا، وأثقلت عليَّ كما اعتادت، فلتغرق السفينة ولتكن مشيئتك، فعند الرب راحة، وبيده الرحمة، وبه تعزف ترانيم السلام.

جلست جنين بعد أن تمالكت نفسها، أفرغت حملًا ثقيلًا ظل حبيسًا في قلبها لزمن طويل. هدأت من روع ابنتها الخائفة بعد أن ازدادت هزات السفينة وصرخات الراكبين، وملأت المياه المتسربة أنحاء السفينة حتى غطت السطح والقاع.

بدأ أويس يشعر ببرودة في قدميه بعد أن بللتهما المياه، أيقظته من سباته

العميق وحالة الجمود التام. حرك راسه ناظرًا لزوجته وهي ترضع ابنته، نظر إلى خصلات شعرها الذهبية وعينيها الخضراوين، وكأنه يراهما لأول مرة، شعر برجفة في جسده ليس بسبب البرد القارس الضارب في جسد السفينة، ولكنها رجفة مغترب يهفو قلبه للقاء أهله بعد عقود من الزمن.

جلس شاردًا يحادث نفسه:

- نعم بقي جسدي المحبوس في القاهرة، ولكن عقلي قد رحل منذ زمن، عاد لوطنه الضائع وأهله الواقعين تحت رجفة الموت والتعذيب، سنوات طويلة مرت أبكي وحيدًا كل ليلة دون نحيب، كنت أسعى ألا يراني أحد بالطبع يا زوجتي الحبيبة، أنتِ لا تفهمين، فأنا لم أعد أفهم نفسي منذ أمد بعيد، الندم ينهش في جسدي كل ليلة، أظل شاردًا دون توقف، لا أستطيع أن أستيقظ من ذلك الحلم الطويل الذي لا يتوقف، وكلما أوشكت نهايته عاد من جديد.

بيوت محترقة، وجثث ممزقة، وأشلاء لا يُعرف صاحبها، مساجد مهدمة، وأخرى رفع عليها الصليب، حضارة تلاشت وملك ذاهب، وكل ذلك لأني أخفقت، لم أنصر أهلي، لم أحافظ على بيتي، لم أصن عرضي، حتى أقرب أصدقائي أدرك فشلي وأنا لم أدركه.

إن نجونا من تلك العاصفة الغابرة، سيكون أمامنا أيام على الوصول إلى غرناطة. على قدر سعادتي بتحقيق حلم بقيت بعيدًا عنه لسنوات، تبدو صعوبة لقائي بأهلي، كيف سنتلاقى، وماذا سأقول عند مصافحتي لهم. عذرًا، فشلت في إنقاذكم، حاولت بكل مقدرتي ولكن إخوانكم خذلوكم، هل أقول لهم إن الإسلام ضاع بين قلوب هوت السلطان والمال، أسوف تصدقونني لو قصصت عليكم قصتي مع سلطان ظنناه حليفًا، فما كان إلا خبيثًا بلغ من العمر عتيًّا. ومات بعد أن شقت الأندلس وتساقطت كأوراق الشجر، أم أحكي لكم عن مأساة مصر المحروسة بعد أن مات قايتباي، وتولى ابنه الأشرف أبو سعدات محمد، ظن المصريون كما ظننت أن سلطانًا قد رحل أخيرًا، واكتفى بملك عمره سبعة وعشرون عامًا وقد تجددت الدماء في حاكم شاب يعيد للأمة مجدها.

هل ستصدقونني يا أبناء غرناطة، إن قلت لكم إن ذلك السلطان الشاب أضاع أموال مصر وخيراتها، في فترة حكم مدتها عام واحد، أكثر مما فعل أبوه في سبعة وعشرين عامًا، هل يعقل المستمعون أن سلطانًا مجنونًا يتخفى منطلقًا في شوارع القاهرة يعبث بالخلق، ويصطاد رجالًا وأطفالًا ثم يقوم باصطحابهم إلى القلعة، لتبدأ حفلته السادية، يُربط المرء من قدميه، ثم تشد أوصاله وتنطلق أصوات الكرابيج على أجساده، يطلق الضحايا آهات

العذاب ممزوجة باستنجاد الرحمة والعطف، وما يكون رد فعل السلطان المتلذذ بحفلات التعذيب، إلا ضحكات مرتفعة ممزوجة بآهات المتعة وتحقيق الرغبة، ولكن في النهاية أقل من عام كان كافيًا على سلطان مجنون لا حل إلا بقتله.

هل تعتقدون يا أحبائي أن هذا هو شر البلية، وبموته تشرق شمس المملكة من جديد، لا والله بل إن شر ابن قايتباي كان أهون على مصر من شر ذلك المملوك الملعون، العادل أبو النصر طومان باي، ذلك العبد الحقير من مماليك جمدارية، مهمته في الحياة أن يختار للسلطان ملابسه، أصبح سببًا في زوال ملك تلو الآخر والتلاعب بأعظم عروش الأرض.

تصارع المتصارعون على حكم المملكة الخالدة المصونة في آيات الفرقان، يأتي التمرد تلك المرة من خال محمد بن قايتباي، الظاهر قانصوه الأشرفي حاكم الشام، خرج الناس متفائلين، يحملون في قلوبهم أملًا بانقضاء غمة التعذيب، وهبوب نسيم الربيع من جديد، ولكنهم لا يظهرونه، لعل الخال قانصوه يكون مهزومًا مقطوع الرأس أو مشنوق الجسد على أحد أبواب القاهرة، ويتحول النسيم إلى عاصفة تبيد من ساند وأبدى محاباة للتمرد.

قُتل قايتباي الصغير على يد أمرائه، والكل ينتظر ملء المنصب الشاغر، والبعض ظن أنه محسوم لصديق السلطان قايتباي المقرب وكاتم الأسرار والقائد الشجاع قاهر العثمان، الأمير أزبك بن تختخ، لكنه أبى واستكبر وقد بلغ من العمر عتيًّا، فما كان على أمراء المماليك الشرهين للمال والجاه سوى أن يختاروا رجلًا بمواصفات خاصة، دمًا سلطانيًّا، واليًا على أهم أقاليم المملكة، الشام، أميرًا متمردًا على ابن أخيه ورجلًا طامعًا في حكم مصر، منذ أن مات قايتباي الكبير، إنه الظاهر قانصوه الأشرفي.

تولى قانصوه السلطنة وجدد دماء حرسه وأعوانه، ظن أن مكافأة قتلة السلطان المقتول محمد بن قايتباي ستكون خير الوسائل لاتقاء شرهم وكسب وفائهم، عين قائد عملية اغتيال السلطان السابق، الأمير أبو النصر طومان باي داودارًا ومسؤولًا عن كتابات الملك، وشريكه جان بلاط أتابكًا للعسكر، قائدًا عامًّا للجيش المملوكي.

مر العام الأول وظن العامة والحرافيش أن أحوالهم قد استقرت، رغم استمرار سوئها، وأن بلادهم أخيرًا قد عرفت قائدًا رغم ضعفه، ولكن ذلك العصر لم يكن من عصور الاستقرار، لم يكمل قانصوه عامه الثاني حتى كان طريدًا هاربًا من قلعته، بعد أن ارتدى ملابس النساء، ملفًا لا ترتديه سوى سيدات مصر، يُدعى القانديز وخلخالًا لامعًا في قدميه ثم غطى وجهه بالبرقع،

هرب السلطان من بطش طومان باي وجان بلاط قتلة ابن اخيه ليختفي إلى الأبد، ويظل اختفاؤه حكاية يرددها المصريون ويتحاكون عنها كالأساطير.

عادت مصر من جديد تبحث عن أمير مملوكي يحكمها، وعاد المصريون يتنبأون باسم الحاكم الجديد، ظنوا متيقنين تلك المرة أن الحاكم الجديد لن يكون سوى العادل طومان باي، بعد أن تحول من عبد فقير إلى أقوى أمراء المملكة، يختار سلاطين مصر وحده قاتلًا أو منقلبًا.

ولكن استيقظ المصريون على أصوات مدافع القلعة ونداءات المعلنين تجوب القاهرة بأن لمصر سلطانًا جديدًا يُدعى الأشرف جان بلاط قائد الجيش، وأن طومان باي ما هو إلا معاون له. لم تمر أشهر قليلة حتى اشتعلت المملكة بين ثورات داخلية وانقلابات بدمشق، أرسل بلاط شريكه طومان باي إلى الشام لإنهاء الانقلاب وقتل قائده، رجل يدعى قاصروه، بعد أسابيع عاد الجيش إلى المحروسة، وقد زاد عدده وقوي تسليحه يقوده أبو النصر طومان باي، وخلفه يقف قاصروه، وما هي إلا ساعات حتى حُوصرت القلعة وزج جان بلاط في سجنها، وأخيرًا تحققت نبوءة المصريين بتولي أقوى الرجال العادل طومان باي منفردًا بالحكم لا منازع له.

في غضون أيام قليلة، علم سكان المملكة أن الأمر لم ينته، والقاهرة لن تهنأ بحاكم لها، استمر طومان باي في هوايته، مات بلاط مشنوقًا في سجنه، وعثر على قاصروه مسمومًا في غرفته، واجتاحت موجات الغضب قلوب أمراء المماليك بعد أن قلت أموالهم، وتقلصت أراضيهم. توقفت الدعوات للسلطان في صلاة الجمعة، وأصبح السلطان يصلي وحيدًا دون أمراء في صلاة الجمعة، بعد أن رفضوا أن يلبوا دعوته لهم، ولكن لم تكن تلك الدلائل حاسمة لطومان باي بأن نهايته قد اقتربت بعد، حتى سمع نكات المصريين وأمثالهم، يرددها الشيخ الكبير والطفل الصغير، سخرية من وضع مصر القائم وصراع المماليك المحتدم، استيقظ طومان باي يومًا فوجد أحد حوائط القلعة قد كتب عليه بخط ركيك رسالة طالما تناقلها المصريون من قرن إلى قرن، منذ أن حكم الأيوبيون المحروسة:

رسالة إلى سلطان مصر: «الحكم لمن غلب».

علم حينها أن النهاية قد اقتربت، جمع السلطان ما استطاع من مال وكنوز، وانتهج نفس نهج قانصوه هاربًا من الباب ذاته، بعد مائة يوم فقط من توليه السلطنة.

اضطربت البلاد وهاج العباد وضرب الفقر السراديب والحارات، وانتشرت السرقات، وأصبحت مصر فريسة شاردة ينهش العدو العثماني في شرقها،

وتغير عليها السفن البرتغالية في شمالها وتُسرق سفنها في الجنوب بعد ان فقدت تجارتها في بلاد الهند والصين، واحتكر الأوروبيون بحرها، وتقاتل أمراء المماليك وانقسموا، لم يكن أحد منهم يحظى بتأييد كبير يسنح له باقتناص السلطنة وحده، فاختاروا أكبرهم سنًّا، شيخًا كهلًا مريضًا يُدعى قانصوه الغوري، ظانين أنه واجهة ماسخة لدولة بائسة، منها يحكمون أراضيهم ويملأون أجوافهم بضرائب الفلاحين.

ولكن كما يقول الحرافيش في أمثالهم «الدهن في العتاقي»، فاجأهم الغوري بحنكته بعدد كل خصلة بيضاء نضرت في شعرات رأسه. لم تكن سوى طرح لخبرات رجل مسن، تراكمت على مجرى حياة طويلة. في غضون أشهر قليلة كانت السلطة قد استقرت ودب الأمان في الشوارع، واستأنست الذئاب المتوحشة على حدود المملكة، وندم هؤلاء الأمراء على اختيار ذلك الرجل الذي ظنوه مسكينًا، فبادرهم بقوته.

دبت الحياة في مصر من جديد، واستقرت على يد السلطان الجديد، ولكني لم أجنِ ثمار الاستقرار، اشتعلت الحروب مع مملكة البرتغال في موانئ وثغور البحر المتوسط، وبين المحيطات الهندية، انقطعت الطرق التجارية بين مصر وأوروبا، وتحول الساحل الأفريقي والجانب الأندلسي لمنطقة حرب مشتعلة لن تمر منها سفينة إلا مأسورة أو محروقة مقتول كل من فيها.

يبدو أن الأمور قد هدأت فجأة، توقفت ضربات المطر وقاذفات الرعد، بدا أن السفينة قد استعادت اتزانها، عادت السفينة إلى صمتها المعتاد منذ أن تلاقى ركابها منطلقين من ميناء الإسكندرية في طريقهم إلى البندقية، حتى الطفلة الصغيرة نامت في حضن جنين وسط دموع لم تتوقف لزوجته المقهورة.

استقام أويس في جلسته مرتديًا عباءته الصوفية ثم قرر الصعود إلى سطح السفينة للمرة الأولى منذ أيام، كانت الأمور قد هدأت بعد أن اجتازت السفينة العاصفة، وأصبحت في رحاب بحر هادئ وسماء صافية وشمس ساطعة، كان السطح غارقًا بالمياه وبقايا من أخشاب السفينة ملقاة في كل زاوية، الرجال ملقون على الأرض لا يتحركون لا تسمع سوى أصوات صدورهم تستجدي هواء يبقيهم أحياء، يبدو الأمر كما لو أن تلك السفينة قد خرجت من معركة دامية للتو، بعد مواجهة شرسة مع الطبيعة.

نظر أويس إلى البحر الواسع باحثًا عن مركب مرافق، لكنهم كانوا وحدهم يجتازون البحر، وضع أويس يده على فمه ثم صرخ:

- «يا ويلاه ألهذا الحد انقطعت طرق التجارة وتوقفت الحياة وغابت السفن

وانقطعت اوصال التجار!».

ظل أويس يراقب المشهد البائس الساكن، متذكرًا كيف كانت رحلاته مع والده وسط أسراب السفن التي تقطع البحار لتربط بين الشرق والغرب، وكيف كان طريق البخور التجاري الرابط بين بقاع الجزر الهندية وأواسط الحجاز وشمال البندقية وصقلية شاغرًا بالبضائع والتجار، أين ذهب الجميع؟

صاح بصوت عالٍ:

- «لعن الله رأس الرجاء الصالح الذي بدد شملنا وأضاع أموالنا وقطع علينا رزقنا».

لم يقطع شرود أويس سوى رائحة خمر قادمة من فم كريه، ويد وضعت على كتف أويس مصحوبة بتمتمات رجل عريض البنيان، ببطن كبير، ولحية بيضاء محناة بلون أحمر، قال الرجل لأويس ساخرًا:

ظننا أنك قفزت في البحر، سباحة لغرناطة.. اشتقنا إليك يا أخي، أيامًا لم تخرج من خلوتك.

نظر أويس للرجل بعينين ثابتتين دون ابتسامة، كان يرغب أن يركله بعيدًا أو يصرخ في وجهه للابتعاد عنه، لكن كيف يفعل ذلك مع قبطان السفينة، الرجل الذي سيحقق حلم عشر سنوات بالعودة للوطن.

قال أويس للقبطان غير مبالٍ بكلماته:

- متى نصل لميناء مالقة؟

- يومان أو ثلاثة على الأقصى لنصل إلى البندقية، ومنها تكون السفينة المتجهة للأندلس في انتظارك للسفر إلى جهتك الأخيرة.

حل الصمت مجددًا بين القبطان وأويس حتى كسره القبطان:

- ألا تعتقد أنه من الغباء أن تترك مصر المستقرة، لتعود إلى بلاد سمعنا أنها تلطخت بألوان الصليب وتراتيل الكنائس؟!

- الغباء هو أن نترك أوطاننا في يد أعدائنا، الوطن باقٍ أيها القبطان، وكلنا زائلون، فكيف نتركه؟

بدا أن الغضب قد ظهر على وجه القبطان السكران:

- أتصفني بالغبي يا هذا، أنسيت أنك تتكلم مع القائد؟! والله لولا أن حاميك هو الأمير عثمان الألفي، لكنت طعامًا للقروش قبل بزوغ فجر جديد.

ترك القبطان أويس غاضبًا، بعدما أمر أحد خدمه بأن يرشده لغرفته، ابتسم

اويس لاول مرة من خطوات القبطان المختل اتزانه، وصرخاته في خادمه المضحكة دون سبب، ثم عاد إلى الشرود الطويل من جديد متذكرًا يوم الانفراجة.

سنوات كان يدعو أويس الله أن يطيل في حكم قانصوه الغوري، ولا علم إلا عنده هل سيظل ذلك السلطان باقيًا وسط الدسائس والمؤامرات، بعد أن أصبح الأمير المملوكي ابن قرطبة البار، عثمان الألفي، من أقرب الأقربين إلى السلطان بعد أن عينه «جاشنكير» له، مسؤولًا عن طعام السلطان، كان ينتظر وعود عثمان الدائمة أن تتحقق باقتناص أي فرصة تجارية كانت أو عسكرية لركوب البحر والعبور لبلاد الأندلس المفقودة.

حتى جاء اليوم، طرق عثمان باب أويس بشدة، صرخ في وجهه: احزم أمتعتك وأحضر زوجتك وابنتك، وارحل إلى الإسكندرية فجر اليوم.

نظر أويس لعثمان في ذهول وكأنه لم يستوعب كلمة مما قال، أدرك عثمان ذلك فشرح له مختصرًا أن معركة كبيرة على وشك الاشتعال بين سفن السلطنة والبرتغاليين بالقرب من جزيرة ديو الهندية، وأن السلطان سيرسل سفارة من الأمراء إلى بابا الفاتيكان لحثه على أمر المملكة البرتغالية بسحب قواتها من بحر الهند الذي يأتي تحت حماية سلطاننا -حفظه الله- حقنًا للدماء، وأن السلطان قد وافق غير راضٍ على رحيلك معهم إلى البندقية، ومنها ستكون سفينة تاجر صديق من آلمرِية في انتظارك لترحل معه إلى غرناطة.

***

غرناطة

حان الموعد المحدد من كل أسبوع، مر جنود القشتالة على بيوت غرناطة وطرقوا كل باب بغلظة آمرين من فيها بسرعة الحضور إلى الميدان الكبير، كان الأمر يبدو عاديًّا في كل أحياء غرناطة عدا حيي البشرات والبازيين أو كما أصبح يطلق عليهما حيي المورسكيين، اللذين يجمعان ما تبقى من العرب والمسلمين المتنصرين. يحاصر جنود القشتالة البازيين والبشرات منذ الصباح، وتُقتحم البيوت ليخرج من فيها عنوة متجهين في طريق صنعه الجنود بأجسادهم ينتهي عند ميدان الرميلة الموعود، ومن يتخلف عن الحضور يكون السجن في انتظاره والعقاب حتميًّا بلا نقاش.

قبل وصول أهل البشرات والبازيين كان الأمر قد نفذ وامتلأ الميدان عن آخره، الكل يتجه بأنظاره إلى الصحن الكبير، ومجلس المدينة الوقور الشاهد على الحادثة. على اليمين يقف حاكم غرناطة الماركيز دي مونتخار، ويجاوره المحقق العام الأسقف توماس دي توريكمادا، وثالثهما ممثل جيش المملكة السيد فرناندو دي جرنادا أو كما كان يسمى سعد بن أبي حسن بني الأحمر، شقيق آخر أمراء غرناطة الإسلامية عبدالله الصغير، قبل تنصره. ارتدى الثلاثة الوشاح المقدس ذا اللون الذهبي وقد دقت عليه الصلبان، في إشارة إلى مكانتهم وعظمة سلطانهم الممهور بالقداسة الإلهية.

كان الميدان قد امتلأ عن آخره بالعامة، ومن قبل ذلك كانت غمامة دخانية داكنة، أخفت ملامح الميدان، وجعلت رؤية ما يدور في الصحن من حدث أمرًا مستعصيًا، ولكن الأغلب لم يكن يبالي، فالكل يعرف ما يحدث كل أسبوع. عندما جرى الأمر للمرة الأولى كان حدثًا مهيبًا مروعًا، بكى فيه الرجال وانتحبت النساء، وغاب النوم عن الشاهدين لأيام وشهور وأصوات المعذبين تملأ القلوب قبل الآذان، ولكن الأمر أصبح معتادًا بعد أن تحول إلى عادة أسبوعية لا يثير ضيق المشاهدين سوى رائحة الدخان التي تجعل الاختناق أمرًا محتملًا والتنفس مستحيلًا وسط مئات البشر.

الكل يعلم الخطوات التالية، يحضر الآثمون المذنبون بالعشرات، وكأنها حفلات تعذيب جماعي، تكبل أيديهم بالسلاسل من خلاف ويصلبون على عدة أعمدة في صحن واحد كبير، يصيح بعض العامة المدسوسين وهم يقذفون المكبلين بخضروات وبقايا طعام فاسدة: - اقتلوا الكفرة.. تخلصوا من المارقين.

تأتي اللحظة الحاسمة، تقرع الطبول ويدخل الميدان فريق من الجنود الملثمين أصحاب جبهات عريضة وأجساد مفتولة، يضع كل منهم كومة من

الحطب اسفل كل عمود في كل اتجاه ثم يضيفون اكوامًا من القش بين أرجل كل المقيدين، تتعالى أصوات الحاضرين مجددًا بين شامت سعيد، وآخرين ما زالت أصوات نحيبهم مسموعة بعد أن فاق المشهد مقدرتهم على التحمل، في حين بقيت فئة أخرى صامتة غير مكترثة، وكأنها لم تحضر.

يبدأ رهبان كنيسة سان خوسيه أو مسجد المرابطين سابقًا تلاوة تراتيل التوبة والسماح، داعين الرب بتطهير الكافرين من خطاياهم. تتجه أنظار من في الميدان إلى اللجنة الثلاثية، يقف المحقق العام دي تريكمادا ليلقي عظة قصيرة قبل أن يأمر ببدء التنفيذ، يقول: - يقول بطرس الرسول في رسالته الثانية إلى أهل قورنتس «فإنما هو محجوب عن الهالكين، أولئك الكفرة الذين أعمى إله هذا الدهر أبصارهم»، ويحادثنا الرب بأنه إذا عصاه ابن آدم فعقابه أن يُصلى نارًا ويلقى عذاب الحريق، ولقد عشتم في عصور مزقتها أديان الكفار، وحان الوقت بفضل القدير أن يسطع نور الحق من جديد، اليوم نطهر أنفسنا بنيران الرب المقدسة قبل أن نلبي رغبته في آخر حصن وثني في حرب الرب. فليطهرنا ويمجد خطانا آمين.

يرفع المحقق يده ليشير ببدء المراسم، تطلق كاتدرائية غرناطة العملاقة أجراسها المعلقة في مئذنة المسجد الكبير التي ضمت إلى كاتدرائية بعد أن وضع الصليب على رأسها، لتبدأ مرحلة الشواء.

يتصاعد الدخان معلنًا عن اشتعال النيران في الحطب ومعها تدوي صرخات المحترقين في الميدان، تتصاعد ألهبة النيران ببطء إلى الأرجل بعد أن انتهت من تفتيت أقدامهم وتبددت العظام تمامًا، يصرخ المحترقون من هول الألم، فقد البعض وعيهم من شدة العذاب بعد أن ذابت جلودهم، وجلطت دماؤهم من وطأة النار، وبدأت تلامس العظام.

وآخرون لقوا ربهم مبكرًا بعد أن ملأ الدخان رئاتهم، فماتوا رحمة باختناق سريع بدلًا من حرق بطيء، ولكن الباقين لم يفقدوا أرواحهم، تحسسوا كل لحظات العذاب، ذابت أجزاء من عظامهم، وتناثرت بقايا من لحمهم المحترق، وانتشرت رائحة الجلود المحترقة في الميدان، حتى ملأته عن آخره، وأصبحت المقاومة مستحيلة.

هبت اللجنة الثلاثية بالرحيل هربًا، بعد أن بدأ الجميع في السعال من شدة الرائحة وانتشار دخان الحريق في الساحة، أمرت اللجنة قبل رحيلها أن يبقى العامة في الميدان. فالحسنة تخص والسيئة تعم، وهؤلاء المعدمون الكفار هم جرس توبة للمتمردين والمنشقين.

ظل الجنود المستاؤون من هول الرائحة الكريهة يحاصرون مخارج الميدان،

حتى يشهد الجميع مراسم الحرق البشع كاملة، استمر الامر لساعات حتى أكملت النيران مهمتها، وتبخرت الأجساد وذابت ملامح وجوه المعاقبين، وبدأ ما تبقى من أجسادهم يترنح منهارًا من على الأعمدة، بعد أن تحولت الأرجل والأقدام إلى غبار وأشلاء مفتتة.

تحرك الجنود فاتحين مخارج الميدان وتصارع الجميع للخروج من المكان المشؤوم، يسحبون أرجلهم بصعوبة بعد أن أعطوا ظهورهم للصحن المحترق، والكل يدعو بأن يُرحم بعدم العودة إليه مرة أخرى.

لم يبق في الميدان سوى قلائل، من شحاذين يبحثون عن فتات طعام ورجال شامتين ظلوا يراقبون الجنود وهم يزيلون ما تبقى من الأجساد المحترقة، وآخرين أبقاهم عجزهم وكبر سنهم منتظرين حتى يفرغ الميدان من العامة للخروج منه، كان من بينهم شيخ كبير أخفت لحيته الكبيرة ملامح وجهه، ولكن بقيت هيئته عربية، ارتدى جلبابًا طويلًا وحمل عصا خشبية يتوكأ عليها، وتجاوره بنت صغيرة، تشارك العصا في مساعدة الكهل الكبير للخروج من الميدان، ظل الشيخ يسير موجهًا أنظاره إلى الأرض، يتمتم بكلمات يصعب فهمها، تاركًا إرشادات الطريق إلى بيته في يد الابنة الصغيرة، حتى توقفت البنت فجأة دون أن تنطق بكلمة.

رفع الشيخ رأسه بصعوبة، فرأى أولًا قدمي رجل، ومن خلفهما خلخال امرأة، بدأ في الاعتدال في وقفته، واستقام ظهره المنحني ليرى من قطع عليه طريقه. نظر الكهل في أعين الرجل محاولًا فك شفرات وجهه، بعد أن ضعف نظره وتبددت ذاكرته، مرت ثوانٍ دون أن يعرف من يقف أمامه.

قطع الرجل الصمت الطويل:

- ألا تتذكرني أيها الفارس الشجاع، حامي غرناطة من السباع.

لم يرد الشيخ رغم أنه بدا عليه أنه أيقن هوية الرجل من صوته.

عاد الرجل من جديد:

- ماذا حدث لك يا ابن زيدون؟ أمر من الوقت إلى حد أنك لم تعد تتذكرني!

رمى الشيخ عصاه، وكأن الصحة قد دبت في جسده فجأة، ثم قفز على الرجل كاتمًا بيده على فمه: - اصمت يا أويس، أتريدنا أن نكون المحترقين الجدد في صحن الأسبوع القادم!

اتبع أويس وزوجته القائد ابن زيدون، بعد أن طلب منهم اللحاق به، دون إلقاء أي سؤال أو استفسار عن أي شيء يفعله مهما كان. تخطى أويس

حوانيت البازيين خلف ابن زيدون، الذي حولته الايام من قائد فتي محنك إلى شيخ كهل، ضعف نظره، وقلت حيلته، واعتلى الشيب جبهته. سار ابن زيدون بخطواته البطيئة تقودهم الابنة الصغيرة إلى بيت صغير يقع في حي الفخارين، أجمل أحياء غرناطة. نظر أويس حوله، كانت البيوت كما تركها منذ زمن، بيضاء وشرفتها زرقاء زاهية، تزينها حدائق صغيرة، تنبع منها زهور ملونة وأخرى رائحتها نفاذة، إلا أن الوجوه تغيرت، فلم يجد نفسه يعرف أيًّا من المارة أو الجالسين على الأرصفة، وجوه جديدة، بعضها ما زال يحمل سمار العرب وبشرة البربر القمحية، وأخرى ملونة شقراء جاءت من بلاد بعيدة تحت الراية القشتالية.

اجتازوا حارة تلو الأخرى حتى وصلوا لأجمل بيوت الفخارين وأكثر الحدائق بهجة، بيت فاطمة بنت أبي قاسم القائد الشهم وحامي غرناطة. نظر أويس إلى ابن زيدون هامسًا في أذنه: - كيف حال فاطمة، أما زالت تعيش هنا أم تغير حالها كما تغير حال الحي كله؟

نظر ابن زيدون لأويس بعد أن اعتلت وجهه ابتسامة:

- نعم يا عزيزي، ما زالت فاطمة على حالها، ولكنها أصبحت تُدعى الآن أثيرا خوسيه، وهي متزوجة من قائد جيش القشتالة الشمالي أندريس قلدرون.

سكت ابن زيدون لحظة ليراقب وجه أويس المصدوم والمتحير، ثم قرر أنه لن يحكي له عما حدث لحي باب الفخارين كله، وكيف أنه بيع بأكمله للقشتالة منذ سنوات بعيدة، ولم يعد فيه من يكبر في الصباح ويوحد في المساء. أنهى ابن زيدون حديثه ليكمل أويس صدمته، لعله يصمت حتى يصلوا إلى الدار.

علم أويس أنه قد وصل أخيرًا إلى بيت ابن زيدون، عندما هرولت البنت الصغيرة إلى صحن بائس، ذبلت فيه الورود وضربت الشروخ حوائطه وتهالك بنيانه. احتضنت البنت سيدة ارتدت جلبابًا قشتاليًّا مزينًا بالورود، كانت تجلس القرفصاء بين فخذيها قبة من الجير، تصنع عليها فطائر محلاة.

نظرت زوجة ابن زيدون إلى أويس لثوانٍ قليلة، كانت كفيلة لأن تنتفض من مكانها، وتسقط القبة والفطائر دون مبالاة بذلك. أحضرت السيدة غطاءين كبيرين من إحدى الغرف وغطت بهما جسدي أويس وجنين دون أن تنتظر موافقتهما، ثم صرخت ادخلا إلى المنزل قبل أن يراكما أحد.

جلس أويس وجنين على مصطبة صغيرة يرقبان ما يحدث أمامهما في صمت. ابن زيدون حفر حفرة كبيرة خبأ فيها أمتعة أويس ثم جاءت صرخات زوجته تطلب منه أن يفتح باب المنزل في الحال لأن الغروب قد اقترب، أما الصغار فقد خبأوا كل الأطعمة بعد أن وزعت على الجميع تمرة صغيرة فقط.

همست جنين في اذن زوجها:

- هل جن جنون ابن زيدون وزوجته، يحل الليل فيفتحون الباب للصوص ويؤذن المغرب في رمضان فيأكلون تمرة ويخبئون بقية الطعام، ويعلقون الصلبان على الحوائط ويخبئون أمتعتنا في حفرة، ويصرخون في وجوهنا إن ناديناهم بأسمائهم.. هكذا يعامل الضيوف في بلادك يا زوجي العزيز؟!

كان على أويس أن يجيب على تلك الاستفسارات التي تدور في عقله هو الآخر، ترك زوجته جالسة متأملة ووقف أمام ابن زيدون: - ألم يحن الوقت لتفسر لي ما يحدث؟

لم يعقب ابن زيدون وكأنه لم يسمع. أشار أويس للصلبان المعلقة ثم أمسك في عروة جلبابه: - أتنصرت يا ابن زيدون؟

أزال ابن زيدون قبضة أويس عن جلبابه في غضب:

- تنصرت بيوتنا وأسماؤنا، ولكن ظلت قلوبنا تسبح للواحد القهار.

- ماذا حدث لغرناطة؟ ولماذا تنصر الجميع؟ وأين ذهبت المساجد والحمَّامات والأسواق؟

- أتعلم يا أويس طالما ذكرتني بنبي الله موسى، ذهبت لسلطان مصر مثله لتنصر أهلك وعدت بخيبة أمل مثله، والآن لم تستطع معي صبرًا، مثلما لم يتحمل موسى تصرفات سيدنا الخضر.

- يا ابن زيدون، سامح رجلًا جلس يحسب الأيام لسنوات من أجل العودة إلى وطنه، وعندما عاد رأى المسلمين تنصروا والبيوت تغير أصحابها والمآذن تحمل الصلبان، ومن يكبر باسم الله يُقتل، فلا تعاتبني أن ملأ الشجن قلبي وحجب الشك عقلي.

وضع ابن زيدون يده على كتف أويس محاولًا التخفيف من صدمته، ثم قال مازحًا: - الآن سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا. لقد ذهب كل شيء مع ريح القشتالة يا صديقي، شعائرنا وعاداتنا وحتى لغتنا، خدعونا بوثيقة واهية دوِّن فيها أنها تؤمننا على ديننا وعرضنا ومالنا، ولكن كل ما أمنتنا عليه هو أن نبقى على قيد الحياة. أصبحنا كافرين في نظرهم إن بقينا على الإسلام. في البداية اشتروا الذمم بالهدايا والمناصب مقابل التنصير ثم أجبروا الجميع على اتباع دينهم، بدأوا بالشيوخ فتنصروا ثم النساء، فعلقن الصلبان في أعناقهن، ثم كبار القوم وأغناهم، حتى انتهى الحال ولا يوجد على تلك الأراضي ما هو مسلم، هاجر من هاجر وأصبحنا قلة بعد أن كنا أصحاب الأرض، تنصَّر من تبقى في ظاهرهم، وبقوا في الباطن يشهدون بأن الله واحد لا شريك له وأن

رسوله محمد خاتم النبيين.

طافت محاكم التفتيش على بيوتنا، هتكت أعراضنا وقضى التعذيب على آمالنا. منعنا من الصلاة في المساجد وصلينا جبرًا في الكنائس، بدلوا لنا الجمعة بالأحد، وعوقب من توضأ وبُورك من تعمد، جلدوا من دعا مسبحًا وكافأوا من ألقى التراتيل، منعوا الختان والخضاب وأحلوا الخنازير.

تسألني عن أفعالي الغريبة وتحتاج إلى تفسير. منعتك من الكلام لأن من تحدث العربية قطع لسانه، أخفينا ملابسك بالوشاح حتى لا يخلعوها عنك ويتركوك عاريًا وسط العوام، دفنا كتبك حتى لا تحرق، أذن المغرب ففتحنا باب الدار ولم نكسر صيامنا حتى لا يرانا الجنود نأكل فيشعلوا النيران في بيوتنا.

- ويل للظالمين، لماذا تصبرون عليهم؟ لماذا تسكتون على هذا الظلم البين؟

- أتعلم يا أويس، هؤلاء من أعدموا حرقًا للتو في الميدان، كانوا آخر من تبقى من ثوار قرية صغيرة تدعى بلفيق، ثارت ضد الظلم وقرروا الخروج لتأدية صلاة الجمعة في مسجد القرية الذي أصبح كنيسة، أتعلم ماذا فعلوا بهم؟ نسفوا المسجد بالبارود وهم يصلون، لعنة الله على هؤلاء المسيحيين الأنجاس.

- على قدر صدمتي وجنوح قلبي لقتل كل من أقابله من القشتالة، فإني أعلم وأنت تعلم أن المسيحية بريئة من هذا البغض. لم ينشأ دين على الأرض حتى لو كان لعبادة الأصنام وأمر بغير السلام، هؤلاء يقتلون باسم الدين، ولو كان الدين رجلًا لبرأ نفسه من تلك المجازر.

سكت ابن زيدون قليلًا، تنهد وكأنه يسترجع ذكريات دفنت منذ زمن ثم قال:

- إذا ما زالت السفينة التي أتت بك في انتظارك، عُد يا أويس من حيث جئت، فلم تعد تلك البلاد بلادنا.

- أتعلم يا ابن زيدون، ليس القشتالة هم الظالمون بحق، بل نحن من ظلمنا أنفسنا، عندما بعنا بيوتنا لهم وهجرنا بلادنا هربًا منهم، فأصبحنا ندافع عن دار لا نملكها ونتحسر على وطننا الذي تركناه، كنا أغلبية مظلومة فأصبحنا أقلية هالكة، لن أترك بلادي للأعداء خوفًا منهم، لن أكون أبدًا من اللاجئين.

حل الصمت مجددًا، وكلاهما يخفي النظر حتى عاد أويس مخاطبًا:

- أين أجد الشيخ الصباغ وسهيل أشتاق للقائهما.

قام ابن زيدون فاغلق باب الدار بعد ان انتهت المدة الموضوعة من قبل المحقق العام لبقاء الباب مفتوحًا ثم نظر لأويس: - الشيخ الصباغ أنجاه الله من شر نحن فيه، بلقاء ربه.

- متى حدث ذلك؟

- لم يتحمل مشهد حرق المصاحف والكتب العربية في الساحة الكبيرة بميدان باب الرملة منذ عدة سنوات، فأصابته وعكة من يومها حتى وافته المنية، وهو لا يردد سوى جملة واحدة «ويل للجهلاء من جهلهم».

- لا إله إلا الله، وماذا عن سهيل؟

- الله وحده يعلم أين سهيل الآن، سمعت أنه ألقي به في سجن الحمراء منذ عدة سنوات، بعد أن حاول قتل أحد الجنود.

- إذن فلنذهب إلى قصر الحمراء.

- الذهاب إلى هناك ضرب من الجنون، ربما يزجون بنا في السجن، لمجرد أننا سألنا عن أحد المحبوسين، من يأتِ تحت مقصلة محاكم التفتيش يعتبر في تعداد الموتى أو المفقودين.

- إذن سأذهب وحدي.

أمسك ابن زيدون ذراع أويس:

- اهدأ يا أخي، ربما هناك حل آخر أكثر حرصًا.

- وما هو أيها القائد الشجاع؟

- سنذهب إلى القس جونثالو ثجري هو الوحيد الذي يمكنه أن يساعدنا.

- ومن يكون هذا القس؟

- ستعلم عندما نلقاه، هيا بنا.

ثم ضحك ابن زيدون:

- طالما أيقنت منذ يومي الأول أن هلاكي سيكون على يدك أنت وسهيل، الصديقين الأحمقين.

***

(٢٤)

استيقظ فرناندو دي جرنادا مفزوعًا على صوت أمه ثريا، تأمره بسرعة الذهاب إلى مقر المحكمة، بعد أن جاء رسول من حاكم غرناطة الماركيز دي مونتخار يدعوه للحضور في الحال لأمر جلل. صرخ فرناندو في أمه: - لا أبالي بما يأمرون، فلينتظروا.

- أجننت يا بني، تريد أن نخسر كل ما كسبناه، هيا استيقظ في الحال.

- وهل نسوا من أنا. أنا أمير غرناطة سعد ابن أمير المسلمين الحسن بن بني نصر الأحمر

- لا يا بني، أنت فرناندو دي جرنادا أمير الجناح الشمالي لجيش غرناطة القشتالي، خادم الملك وحامي الملكة وستقوم الآن للذهاب إلى المحكمة.

- ألا يكفيكِ يا أمي عارًا على عارنا، كنا أول المتنصرين، والآن خدم نقبل أقدام الملوك والسلاطين.

- لم يكونوا قط أهلك. خانوك عندما فضلوا عليك ابن عائشة، والآن يبكون جميعهم كالنساء على ضياع ملكهم وهيبتهم.

تابعت ثريا صرخاتها في وجه ابنها، فكانت كفيلة لإجبار سعد أو فرناندو المتخاذل على ارتداء عباءته القشتالية وكابه المعرق بالذهب، وربط على خصره سيفه المختوم بالصليبب المعقوف ومعه الأسدان الحارسان شعار سادته الجدد.

فور دخوله الغرفة الصغيرة الملحقة بقاعة المحكمة علم أن الأمر جلل بحق، كان كبير المحققين في غرناطة الفيسكوند ديجو ديسا يجلس على مكتبه المشوه من محاولات إزالة كلمات «لا غالب إلا الله» من عليه، بينما جلس أمامه حاكم غرناطة الماركيز دي مونتخار ومعه قائد الجيوش الدوق خمينيس دي سبرادو وصاحبهم كبير أساقفة كنيسة العذراء القس جونثالو ثجري. وما إن اجتمع هؤلاء إلا وصاحبهم الشيطان.

أشار كبير المحققين لفرناندو بالجلوس ثم عاد ليستكمل حديثه موجهًا إياه للقائد خمينيس: - إن ما تدعونا إليه هو ضرب من الجنون.

- هذا هو الحل الوحيد لخلع هذا التمرد من جذوره.

- ألا يكفي إعدام العشرات حرقًا لخلع التمرد!

- نحتاج لعقوبة أشد قسوة لمنع حدوث أي شيء مشابه في المستقبل.

- إعدام رجل بريء يؤمن بالرب والروح القدس دون جرم او محاكمة، لا يقضي على تمرد بل يصنع العشرات منه.

- ألا يكفيك من جرم وإدانة أن يكون ذلك الرجل هو نجل قائد تمرد قرية بلفيق الخائن.

- وبأي قانون نحاكمه؟

- عن أي قانون تتحدث يا سيدي المحقق، الكل يعلم أن محاكم التفتيش تحكم بقوانينها الخاصة.

- يا خمينيس هناك إجراءات ملزمة علينا. يجب توكيل محامٍ ومن حقه استئناف حكمه وباعترافه بأنه مسيحي تسقط كل التهم ويحصلَ على صك المغفرة.

- أيها المحقق الجليل، كلانا يعلم أن المحامي مجرد واجهة للمحكمة، فلا يسمح له بمقابلة المتهم ولا الاطلاع على القضية من الأساس.

- صحيح، ولكن ما زال قتل مسيحي موحد خطية كبيرة، وأمرًا منافيًا لقواعد العدل والإنصاف يا عزيزي الدوق.

وقف القائد خمينيس من مقعده بانفعال شديد:

- عن أي إنصاف تتحدث، تعذبون الناس وتنفذون فيهم الأحكام، دون أن يعلموا حتى يوم تنفيذ الحكم، وتسرقون أموالهم وتبيحون عرضهم ثم تحدثني عن الإنصاف، عزيزي ديجو تلك ليست المرة الأولى التي يحاسب ابن بما اقترفه والده.

- نعم، طهارة واجبة من إثم عظيم يلطخ الآباء وأبناءهم، ولكننا نحاسبهم باقتطاع أراضيهم ومنعهم من تقلد المناصب ولا نعاقبهم بالقتل، لن يقبل أحد بتلك الأحكام وسيزداد سخط العامة.

قاطع أمير غرناطة الماركيز، الحديث، بعد أن ظل منصتًا لفترة طويلة يحمل ابتسامة مصطنعة يرجح الكلمات ويراقب ما قد تقود إليه دفة الحوار. قال الماركيز وهو ينظر إلى فرناندو الذي ظل قابعًا مختبئًا يتمنى لو لم توقظه أمه قط: - المحقق على حق يا خمينيس لن يقبل بها أحد إذا جاء الحكم من رجل قشتالي، ولكن إن كان الحكم صادرًا من رجل منهم يحمل دم الملوك والأعيان، وله من الفضل عليهم سيقبلونها، وتكون نافذة بمشيئة الرب.

اتجهت أنظار الثلاثة إلى فرناندو الذي بدا مصدومًا متلعثمًا، تعثر في حديثه ولم يعد مخيرًا، حاول التملص محذرًا من أن تكون خطيئة لا غفران لها، لكن

جاء رد امير غرناطة سريعًا، وكانه كان يعلم ان تلك ستكون الإجابة: - فليبارك الرب إيمانك يا فرناندو، انظروا إلى قوة عزيمته وامتلاء قلبه طاعة للرب، ليت كل المورسكيين مسيحيون بحق مثلك. فلنسأل القس العزيز جونثالو ثجري، فلهذا هو يباركنا بحضوره اليوم.

ثم اعتدل الماركيز في جلسته دون أن يحرك أنظاره من على فرناندو، وقال بصوت حاسم وجاد: - ماذا ترى جونثالو؟

تلاعب القس ببعض شعرات لحيته الطويلة، وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال: - إن كان يؤمن بالمسيح بحق وموته فيه صلاح لدينه وآخرته، فهو شهيد مبارك في السماوات العلى، وإن كان يظهره وقلبه ملوث بالمعصية كان موته فرضًا ويقينًا.

ثم اعتدل القس في جلسته بعد أن بدت عليه علامات التأثر الشديد، ثم استفاض مستشهدًا بالإنجيل: لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ.

نظر فرناندو إلى القس في ذهول، بعد أن وضعه في مكان لا مفر منه، ظل محاطًا بأنظار الجميع في انتظار إجابة أخيرة بعد أن انتهت كل الأحاديث، لم يستطع أن ينطقها، حرك فرناندو رأسه بالموافقة دون أن يصدر صوتًا، تبعتها نظرات ارتياح ورضا القائد والمحقق.

مال القس على المحقق بعد أن هم الجميع بالخروج من الغرفة، وهمس بصوت خافت: - أحدهم سألني معروفًا، ولا يقدر على ذلك المعروف سواك.

ضحك المحقق بصوت مرتفع:

- وهل يمكنني أن أرد لك طلبًا بعد ما فعلت، أخبرني يا جونثالو.

***

(٢٥)

تخطى الرجلان الساحة القديمة التي تفصل حي البازيين عن القصبة القديمة وقصر الحمراء حيث مقر المحكمة والسجن الكبير. كانت كما اعتادت ممتلئة بخلق الله، ولكنها افتقدت روحها، طالما جمعت تلك الساحة موائد الإفطار في رمضان، وابتهاجات أعياد الفطر، وموائد شواء أضحيات عيد الأضحى، وصلوات الموتى المقاتلين، والمناقشات العلمية في كيمياء ابن فرناس، وفلك المجريطي، وطب أبو قاسم الزرقاوي، وفلسفة ابن رشد، وموسيقى زرياب، وجلسات استماع الأشعار وقصائد الأخيار. منها خرج المجاهدون، ومن عليها علم أهل غرناطة أخبارهم وأحوالهم وما سوف يطأ فوق أعناقهم.

كان أويس تائهًا وكأنه يزور غرناطة للمرة الأولى، يحتقن وجهه عندما يتذكر إحدى المناطق ثم يرى كم تغيرت، وفي الأحيان الأخرى تبدو على وجهه صدمة عنيفة مما يراه بعد أن تبدلت أحوال الناس كاملة. تبدلت العمائم والقلانس بالكابات القشتالية، ونزعت الآيات المعلقة على صدور النساء، وحُمل الصليب على صدر كل رجل وامرأة، أطفال يتحدثون بلغة غير عربية، وباعة يبيعون بضائعهم مقابل عملات قشتالية.

بقيت المآذن محتفظة بمظهرها الأندلسي المميز، معقودة بحوافها الأربع التي لا تحمل أي شرفات، تخترق السماء، ومن تحتها بعض القباب ممزوجة بزخارف عربية وأحجار مرمر، ولكن ضُربت رؤوس المآذن بالبارود، وحل محلها صليب مذهب، ومُحيت أي زخارف حملت كلمة «الله»، وبُني سطح فوق كل صحن بمسجد، زينت مداخل المساجد التي تحولت إلى كنائس بتماثيل منحوتة بيد ماهرة، ليسوع وأمه والقديس بطرس وملائكة الرحمة بأجنحتها الرشيقة، وغطيت الشرفات بزجاج ملون مخلوط بألوان الأحمر والأخضر والأزرق، وتبدلت أسماء المساجد، فأصبح المرابطون كنيسة سان خوسيه، والمسجد الجامع سان سالبدور، والتائبين كاتدرائية تدعى سان خوان دي لويس ريس.

كان الصمت هو سيد الموقف بين أويس وابن زيدون بعد أن أوصاه عشرات مرات بعدم التحدث بالعربية على قدر المستطاع حتى لا يقعوا في المحظور، ولكن المشهد الأخير الذي رآه أويس لم يجعله يتمالك نفسه، مال على ابن زيدون وقد بدا من نغمات صوته أنه مقهور: - ربما يمكنني أن أستوعب أن يحولوا المساجد، وينصِّروا الخلق، ويبدلوا ملابسهم، ويحظروا التحدث بالعربية، فتلك أحوال الأمم عندما تسقط في كل زمان، ولكن كيف يكون

مبررًا إغلاق الحمّامات، هل الاستحمام يشكل خطورة على المسيحية ام انهم يظنون أن التليف أحد الأركان الخمسة للإسلام؟

لم يتمالك ابن زيدون نفسه، ظل يضحك دون انقطاع حتى سمع قهقهته كل من بالساحة، حاول أن يتمالك نفسه بعد آلمته عضلات خصره قائلًا: - في بادئ الأمر أجبر البعض مخيرين على إغلاق حمَّاماتهم بعد أن طُرد اليهود من إسبانيا، فرحل أغلب اليهود الذين كانوا يعملون في تلك الحمَّامات إلا من تنصَّر منهم، وكان على رأس الراحلين عم صفوان أشهر عمال حمَّام البركة، فأغلق هذا الحمَّام القديم منذ ذلك الحين، أما البقية فأغلقت بقرار ملكي بعد أن وجدوا أن تلك الحمَّامات لا يتردد عليها سوى المسلمين، أو كما يلقبوننا الآن منذ أن صدر فرمان منع وجود مسلمين في الأندلس، الموركسيين.

انفجر ابن زيدون في الضحك من جديد:

- يبدو أن القشتاليين لا يستحمون.

كانت ضحكات ابن زيدون وأويس كافية لأن تلفت انتباه جميع المارة، ومن بينهم جنديان من الشرطة اتجها إليهما ثم صرخ أحدهما بالقشتالية في وجه ابن زيدون: - عرف نفسك.

- ألبريتو دي سيجرا، من قاطني باب الفخار.

- مورسكي متنصِّر؟

- وهل يعرف المرء بماضيه يا سيدي. كل ما يهم أن اسمي ألبرتو وأعيش بغرناطة.

نظر الجندي الآخر إلى أويس:

- ومن أنت؟

تجمع الخلق حول الجنديين يتابعان ما يحدث. كان الجميع ينتظر إجابة ذلك الغريب المصاحب لابن زيدون الذي لم يروه من قبل.

تدخل ابن زيدون سريعًا:

- إنه ابن أخي سلجادوا جاء ليزورني من بالنسيا، ونحن ذاهبان لمقابلة القس جونثالو ثجري لنأنس ببركته.

كان الصمت قد عبأ الساحة بأكملها، الجميع يترقب، ظلت نظرات الجنديين تتجه إليهما دون تعليق، وسيل من العرق يتساقط من جبهة ابن زيدون، حتى قطع أحد الجنديين الصمت الرهيب: - أبلغا تحياتي للقس.

تنفس ابن زيدون الصعداء، ثم سحب اويس من ذراعه وهرولا سريعًا متخطين نهر شنيل، ومن ثم إلى كنيسة العذراء الملتصقة بقاعة التحقيق العام وسجن الزنادقة كما يلقبونه.

لم تكن تلك الكنيسة الصغيرة شأنها كشأن بقية الكنائس، بل لم ترق لتكون بيتًا يقطنه بشر من شدة سوئها، فهي في الأصل كانت بيتًا لبهائم، وحظيرة للخيل الملكي بقصر الحمراء، ثم سكنها الخدم بعد ذلك، ولكن الحاكم الجديد لم ير أفضل منها موقعًا لتكون كنيسة محاكم التفتيش، يتطهر فيها المذنبون. عندما خطا الصديقان خطواتهما الأولى داخل المبنى الآيل للسقوط، كانت كل خطوة تصدر أزيزًا مزعجًا بسبب سوء الأرضية المغطاة بالقش، ومن حولها بقايا مقاعد أهلكها الزمن، وسقف يعبر ضوء الشمس من ثقوبه، لم تحمل تلك الكنيسة أي بريق من الفن القوطي الذي اعتاد أن يضفي جمالًا على كنائس أوروبا. لم يعكس عاطفة، ولا زخارف ولا رسومات، ولا يوجد سوى تمثال واحد صغير ليسوع مصلوبًا مغطى بالغبار، جلس أمامه رجل بدين في أواخر العقد السابع من عمره، شاب شعره والتوى ظهره.

كان جاثيًا على ركبتيه، ينظر إلى التمثال ضامًّا يديه، يصلي متمتمًا بدعاء غير مفهوم، قاطع ابن زيدون صلاة القس، وقد احتقن وجهه من الغضب قائلًا: - ألا يكفيك خداعًا ورياء؟

توقف القس عن الصلاة، سكت قليلًا ثم قام ببطء مقصود، والتفت إلى أويس وابن زيدون وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مصطنعة ناظرًا إلى أويس: - مرحبًا بك يا ابن مالقة.

نظر أويس إلى القس في ذهول، التقط يد ابن زيدون محاولًا الحفاظ على اتزانه، تسارعت دقات قلبه بقوة واحمر وجهه بعد أن توقفت رئتاه عن تلقي أي هواء للحظات، سقط على أحد المقاعد المتهالكة خلفه، ثم عاد ينظر وكأنه يحاول أن يتيقن مما يراه. نظر أويس لابن زيدون محاولًا تجنب الحديث مع القس: - أهذا حقًّا وزير غرناطة يوسف بن كماشة؟

- نعم يا عزيزي، الوزير ابن كماشة لم يكتف بخيانته لوطنه بتسليم مفتاح غرناطة بنفسه لأبناء الصليب بل تنصَّر بعد أشهر من سقوط غرناطة، وأصبح راهبًا لعشر سنوات، ولكن يبدو أنه مل الرهبنة وعاد لهوايته في الخيانة المعتادة ليكون قسيسًا على كنيسة محكمة التفتيش التي يكاد الشيطان أن يبرئ نفسه من أفعالها. من هنا يقتلون باسم الدين، ويبررون التعذيب، ويجبرون المسلمين على ترك دينهم، ومن هنا يحرقون....

قاطع ابن كماشة الغاضب ابن زيدون:

- ظننت انك طلبت لقائي من اجل ان اساعدكما، ولكن يبدو انكما جئتما لإهانتي!

ضحك ابن زيدون مستهجنًا:

- اعذرنا يا وزير، فالصلبان لا تليق بعنقك.

- لكم دينكم ولي دين، أليس هذا ما يقرأه عليكم محمد!

جذب أويس ابن زيدون من ذراعه:

- هيا بنا من هنا قبل أن أقتله.

- اهدأ يا أويس، إذا كنت متمسكًا بأن تعرف أين يكون سهيل، فلا يوجد على الأرض من يمكنه أن يدلك إلا ذلك الخسيس.

نظر ابن كماشة إلى أويس بعد أن اعتدل في جلسته بوجه مبتسم قائلًا: - أعلم أن الصدمة كبيرة، مر ما يقرب من خمسة عشر عامًا على آخر مرة التقينا فيها، وهذا زمن يتغير فيه الحال كل يوم وكل ساعة.

أشار أويس إلى ابن كماشة:

- يتغير حالك ولكن تبقى غايتك، رأيتك وزيرًا لآخر ممالك الأندلس تدافع عن الإسلام، ثم أراك الآن قسًّا يدافع عن المسيحية، وفي الحقيقة ما أنت سوى نجس يدافع عن ماله وسلطانه في كل زمان.

جلس ابن كماشة على كرسيه العملاق ورد وهو يضحك: - يمكنني أن ألقي بك في سجن لا يعرفه بشر، ولكني سأسامحك تلك المرة، لأنك معذور وتبحث عن صديقك المشاغب مثلك.

تدخل ابن زيدون:

- أعرفت مكانه؟

- راجعت بنفسي ديوان المسجونين، لكني لم أعثر على مكانه الحالي، كل ما هو مذكور أنه ألقي في سجن الزنادقة في أبريل عام ١٥٠١ بعد أن رفض أن يعود من ضلاله وأثار سخط الجميع.

احتقن وجه ابن زيدون:

- يا ويلاه، سجن الزنادقة، طالما سمعنا عن الشر القابع داخله.

صاح أويس:

- ماذا يفعلون فيه يا ابن زيدون؟

- اشد انواع التعذيب التي لا تخطر على بال بشر. يسحقون العظام، ويمزقون الأرجل، ويطعنون أجساد المسجونين بأسياخ من حديد، ويفسخون فك الرأس، وفي بعض الأحيان يربطون الأرجل والأذرع بالحبال ويشدون الجسد حتى تمزيقه.

نظر أويس موجهًا حديثه لابن كماشة:

- أهذا ما تدعو إليه المسيحية أيها القس؟

- هؤلاء كفار زنادقة يسيئون للدين بالتآمر على المملكة وسب سادتهم، ولا حل معهم سوى التعذيب حتى يعودوا إلى رشدهم.

- أهذا ما تؤمن به أم ما تحفظه لتلقيه على السامعين؟

تبدلت ملامح وجه ابن كماشة وبدا متأثرًا ناصحًا: - أويس يا بني لقد انتهى الإسلام في تلك البقاع من الأرض، وعلى أهلها أن يختاروا بين البقاء في بلادهم على دين ملوكهم أو البقاء على دينهم والرحيل إلى حيث يشاءون.

- هذا ما ينعق به الجهلاء الكاذبون مثلك، الملوك يحكمون ولا يُعبدون، وسيبقى الدين حتى يأتي اليوم الذي يهلك فيه الجهلة المتنطِّعون.

- ألم يحن الوقت لكي تستيقظ من أحلامك البائسة وشعاراتك البراقة، انظر حولك يا ولدي، فلم يهلك في تلك البلاد سوى الضعفاء الحالمين أمثالك.

قفز أويس في غضب محاولًا الانقضاض على ابن كماشة. قطع ابن زيدون الطريق أمامه، وسحبه إلى نهاية رواق الكنيسة، نظر ابن زيدون إلى ابن كماشة: - إذن لا تعرف أين يكون سهيل؟

- لا أعرف أحدًا دخل هذا السجن وخرج منه.

ثم قام ابن كماشة من كرسيه وعاد إلى جلسته الأولى جاثيًا أمام التمثال، وبدأ في إلقاء صلاته من جديد ثم توقف فجأة ناظرًا خلفه لابن زيدون وأويس، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة قائلًا: }وإني لأظنه حَرَضًا أو يكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ{، ثم عاد ليكمل صلاته.

***

استدعت أم موسى، زوجة ابن زيدون، جنين في الحال. كان الأمر غريبًا ومريبًا، طرق موسى الصغير الباب قبل أذان العشاء بدقائق، بكلمات عربية ممزوجة بالقشتالية، قال لها إن أمه تطلب منها القدوم إلى الدار بأسرع وقت ممكن. ارتدت جنين الحايك السفساري، الزي الأندلسي اللامع الذي أحبته منذ أن رأت ألوانه الزاهية وملمسه الناعم، فهو يشبه في شكله العباءة المصرية التي اعتادت ارتداءها، والجلباب التركي الذي فُرض عليها في بلادها، لكنه يختلف عنهما بلونه الأبيض وأكمامه القصيرة وسرواله الواسع بأرجله الضيقة.

حملت جنين ابنتها النائمة المستكينة، متجهة إلى دار ابن زيدون، وهي تتذكر اليوم الذي أعطتها فيه أم موسى ذلك الحايك هدية، بعد أن جعلتها تقسم على عدم ارتداء غيره، طالما بقيت في غرناطة، حتى لا تقع في المحظور.

صرخت أم موسى في جنين فور أن رأتها:

- ما الذي أخرك؟

لم تنتظر من جنين أي تبرير، أعطتها قطعة صغيرة من القماش مثلثة الأضلاع بيضاء اللون، وقالت لها بنبرة آمرة:

- ضعي ذلك العجار على وجهك.

ثم حركت يديها بانفعال، تدعوها للحاق بها دون همس.

كان الظلام قد اشتد واختفى القمر بضوئه الكاسر لوحشة الليل. ساد الهدوء المكان، وندر المارة بين الحانات والخانات، وجفت الشوارع من الأصوات، وأصبح تمييز الشوارع أمرًا ليس بالسهل في هذا الليل.

اخترقت أم موسى الشارع تلو الآخر، بخطوات سريعة ومرونة فائقة وثابتة، دون أن تسمع صوتًا لخطوة أو نفس، تحفظ الطريق عن ظهر قلب، تبدو حريصة على ألا يراها أحد، وجنين تلهث خلفها وهي تكاد تسقط ابنتها الصغيرة من بين ذراعيها، تبدو متعبة من هذا العدو في الظلام، وقلقة من غموض وريبة أم موسى، تراود الأفكار رأسها وتتساءل:

- إلى أين نحن ذاهبتان؟ وما سبب الخروج في هذا الظلام؟ ولماذا كل تلك السرية والحذر، هل هي مصيبة أخرى فوق مصائبنا؟

ترفض أم موسى أن تفصح عن أي معلومة، تسير متخفية في ليل داكن بلا ضوء، توقفت جنين فجأة في غضب وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها. نادت على أم موسى:

- لا استطيع مجاراتك، إذا كنتِ لا تستطيعين انتظاري، فاذهبي وحدك.

ضحكت أم موسى من احمرار وجه جنين وانفعالها، حاولت تهدئة روعها:

- نحن في مهمة سرية، هيا أسرعي وسأحمل ابنتك بدلًا عنك.

وصلتا أخيرًا إلى وجهتهما، دار كبيرة لونها أبيض، وشرفاتها زرقاء كلون جميع بيوت حي البازيين، يقع بين تقاطع شارعين، فيبدو وكأنه مقطوع إلى نصفين. كان الصمت يعم المكان، ولا صوت يخرج من البيت الساكن ولا ضوء شمعة.

صرخت جنين في أم موسى وهي تستعد لطرق الباب:

- هل أصبحنا نوقظ الناس وهم نيام؟

نظرت أم موسى لجنين دون اكتراث بحديثها، لكن بدت عليها علامات السعادة بوصولها أخيرًا، قالت باقتضاب:

- لن ينام أحد اليوم.

طرقت أم موسى الباب ثلاثًا، تحركت قبضة الباب وفُتح لتخرج سيدة عجوز ظهرها منحنٍ، لم يعكس ضوء الغرفة سوى نصف وجهها الممتلئ بالتجاعيد والثنيات، أرجعت النظر لكلتا السيدتين، ثم سمحت لهما بالدخول.

لم يكن فناء الدار الكبيرة يختلف كثيرًا عن الشارع ومحيطه في الهدوء والسكينة، في منتصف الفناء كان صوت أزيز الماء يصدر من إحدى النوافير الصغيرة وحولها افترشت الأرض بثلاث سجاجيد، إحداها عرفتها جنين جيدًا كانت ملونة بألوان القسطنطينية، أما السجادتان الأخريان، فكانت إحداهما نوبية مطرزة بأوراق الشجر، والأخيرة فارسية كلوحة منحوتة بارزة تخرج منها عروق الشجر.

لم تستطع جنين أن ترى بقية تفاصيل الحجرة بسبب ضعف الإضاءة. قطعت السيدة العجوز تأملات جنين، وطلبت منهما اللحاق بها إلى أحد الأروقة، تبعت جنين وأم موسى السيدة حتى اجتازت إحدى الغرف الصغيرة، بها فرن كبير وصحن للعجين وحصيرة متسخة من بقايا الدقيق. أزالت السيدة الحصير فبدت أسفلها حفرة متوسطة مغلقة بباب مصنوع من الخشب، فتحته السيدة ونزلت إلى الحفرة وتبعتها أم موسى وهي تحمل ابنة جنين، بينما وقفت جنين مترددة مصدومة، تخشى النزول حتى حسم بكاء طفلتها القرار، فنزلت إليها في الحال.

انقطع بكاء الطفلة الصغيرة وتوقفت معها أنفاس جنين من الذهول، كان

مشهدًا غريبًا غير متوقع لكلتيهما، غرفة ممتلئة بالسيدات يلتففن حول صحن كبير، تجلس أمامه سيدة بملامح صارمة، وجسد عريض، وبشرة داكنة في وضع القرفصاء، تلقي بيدها بذورًا داخل الصحن، فتزداد النار المشتعلة ويخرج منه دخان وبخور، خلف السيدة الجالسة، وقف العشرات من النساء، يعطين ظهورهن لجنين يتهامسن ويضحكن، بينما على يمين الغرفة تجمعت سيدات أخريات بدون أكبر سنًّا وأكثر تعبًا، افترشن الأرض وملن بظهورهن على الحائط، وفي أيديهن دفوف ورقاق وقانون وآلات أخرى لم ترها جنين من قبل.

تحركت النساء الضاحكات لتظهر من خلفهن بنت صغيرة، ارتدت جلبابًا قصيرًا، قسِّم لثلاثة ألوان زاهية، وبينها فواصل صنعت من أحجار متلألئة. وقفت البنت ساكنة في خجل من نظرات كل من بالغرفة. صاح كل من بالغرفة فجأة بغناء بعض الأشعار، وتبعتها دقات من الطبول والدفوف، امتزجت مع أصوات الناي والقانون.

سحبت بعض السيدات العروس من ذراعها إلى منتصف الغرفة وبدأن وصلة من الرقص بخصورهن وأخريات تمايلن على دقات الدفوف يتراقصن الزمرا، وأكملت السيدة المستكينة أمام الصحن تلك الصحوة الراقصة بإلقاء المزيد من البذور في الصحن المشتعل لتمتلئ الغرفة كلها بالبخور والعنبر.

غنت السيدات الجالسات والكل يرقص:

يا ناقش الحنّا على كفك الزين

كفك عذب قلوب من غير حنّا

من كلِّ بسام السُّوار قمر يطلع

من حسن آفاق الكمال حسنُهُ إبدَاعْ

لله ذاتُ حسن

لها قوامُ غصن

ياناقش الحنّا على ناعم الكف

نقشت بالقلــب المولع صوابه

دقائق طويلة مرت على جنين تراقب بحذر ما يحدث حولها، بدت مبهورة بأجواء لم ترها من قبل تتأمل في بالها:

هؤلاء يتراقصن حول الفتاة صاحبة الرداء الملون، وهناك تقف مجموعة

اخرى انضمت لها ام موسى والسيدة العجوز، يتندرن ويضحكن وعلى الارض تغني الأخريات، وهن يعزفن ويطربن ولم يبق أحد وحيدًا في الغرفة سوى أنا وتلك السيدة الجالسة القرفصاء أمام الصحن.

ألقت سيدة الصحن نظرة طويلة على جنين، أيقنت أنها غريبة أو تفهمت عدم إدراكها بما يحدث حولها، نادت السيدة على جنين، جاءت وهي تحمل ابنتها الصغيرة، طلبت منها الجلوس على الجهة المقابلة لها. لم تتحدث كان حوارًا قائمًا على لغة الإشارة، طلبت أن تعطيها يد الطفلة الصغيرة، ولم تتردد جنين في ذلك رغم ذهولها.

في تلك اللحظة بدأ الغناء وضربات الدفوف تهدأ شيئًا فشيئًا، وأصبحت أنظار من بالغرفة تتجه إلى الأم وابنتها، فتحت السيدة كف الطفلة الصغيرة، ووضعت نقطة صغيرة سوداء اللون من جعبة جلدية ثم ضمت كف الطفلة، وقبلتها وهي تتمتم:

- تبارك الله فيما خلق.

بدا التوتر على جنين مجددًا. جلس الجميع متجاورات يتصارعن على إعطاء كفوفهن لسيدة الصحن التي أمسكت بكل كف ترسم خطوطًا متجانسة، بعضها شكل ورودًا وأخرى طيورًا وفراشات.

جلست أم موسى بجوار جنين وهمست في أذنها:

- ألم تري ليلة خضاب من قبل؟

حركت جنين رأسها بالنفي، ضحكت أم موسى وقالت لها:

- تلك هي ليلة العمر لكل فتاة قبل زواجها، تتجمل وتتعطر وترقص وتغني وتحنِّي يديها وقدميها بنقوش ترسمها تلك النقاشة الجالسة أمامك.

نظرت جنين إلى أم موسى متعجبة ثم لكمتها بخفة في معصمها:

- إن كان الأمر كذلك، لماذا ملأتِ قلبي بالرعب، وجعلتني أشعر أنني على وشك حضور تنظيم سري أو حركة تمردية ضد الحاكم؟

- لأن القشتالة حظروا علينا الحناء والغناء، وحتى ضرب الدفوف حُرم علينا.

قطعت إحدى السيدات الجالسات بجوار جنين وأم موسى حديثهما:

- يظنون أنهم يقتلون الدين في قلوبنا بتلك الأفعال، تبًّا لهم، إنه محفور في العقول قبل القلوب.

ردت عليها أم موسى:

- حياكِ الله يا رفيدة، كيف حال مولودك الجديد؟

- بخير يا أم موسى سميناه ياسين بالعربية وألبرتو بالقشتالية.

- وهل عُمِّد في الكنيسة؟

- عُمد في الكنيسة، ولكننا عدنا فغسلنا بدنه وأذنَّا في أذنه ثم قمنا بختانه.

شاركت إحدى السيدات المسنات في الحوار:

- سمعت أن الحاكم قد أقر أنه على كل مولود من الموريسكيين أن يلتحق إجباريًّا بمدرسة الكنيسة لتعلم المسيحية واللغة القشتالية عندما يتم الرابعة من عمره.

قالت سيدة أخرى في غضب:

- أنجاس وخنازير، يعلمون أولادنا الكفر، ولكن هيهات إن استطاعوا.

جاء صوت آخر خائف من الحاضرات:

- سيعلمون أولادنا كيف تُشرب الخمر وتؤكل الخنازير.

سخرت أم موسى بطريقتها المعتادة، بعد أن ضحكت بصوت عالٍ:

- خافوا على أولادكم، سيحظر عليهم الاستحمام ويجبرونهم على أن يكونوا قذرين غير مختونين مثلهم!

ردت أم ياسين بغضب:

- ويعبدون الصليب ويغنون للأصنام.

كانت جنين تراقب الحوار الدائر دون تعليق رغم غضبها الكامن، ظلت صامتة تحاول تجنب الحديث المغلوط ولكنها لم تتمالك نفسها، قطعت الحديث للمرة الأولى بعد أن احتقن وجهها:

- ولكن يا سيدتي المسيحيون لا يعبدون الصلبان، ولا توجد أصنام في بيوتهم ليغنوا لها!

نظرت أم ياسين إلى جنين، تحاول فهم مقصدها من تلك الإجابة الخارجة عن السياق، تتساءل هل تقولها ساخرة أم لمجرد أن تدلي بدلوها، لكنها في النهاية أجابت قائلة:

- أجبرونا على التنصُّر، فوجدناهم يجثون في كنائسهم لصنم رجل أبيض مصلوب، ويقبلون الصلبان متباركين بها في أعناقهم.

- المسيحيون يؤمنون بالإله الواحد القهار مثل المسلمين، يجثون في

الكنائس مثلما يسجد المسلمون في المساجد.

- وما أدراكِ بما يفعلون؟

- لأني مسيحية.

ضحك كل من بالغرفة والبعض بالغ في قهقهته، وكأن جنين قد ألقت عليهم أضحوكة ساخرة، لم يأتِ أحد بمثلها من قبل.

صاحت إحدى الحاضرات:

- كلنا مسيحيو الهوية، مسلمو الهوى يا ابنتي في تلك البلاد الآن.

ثم تبعتها ضحكات السيدات.

نظرت جنين حولها بعد أن أيقنت أنها قد وقعت في فخ عتيد، لا محالة الخروج منه، قامت من جلستها بانفعال ووقفت على سلم السرداب، وهي تحمل ابنتها استعدادًا للرحيل، وقبل أن تخرج نظرت إليهن ثم قالت:

- لست قشتالية، ولكني مسيحية، فرقوا بينهما لعلكم تفقهون.

***

(٢٧)

انتفض أويس برشاقة غير معهودة من فراشه بعد أن أيقظته زوجته، تبشره بمرسال حمله موسى نجل ابن زيدون يدعوه للحضور في الحال، للقائه عند السوق الجديد الممتد من حي البشرات إلى البازيين مخترقًا ميدان باب الرملة. كانت سعادة أويس غامرة فاقت توقعات جنين، حتى إنه من لهفته كاد ينسى نعليه ويخرج للعامة حافيًا، أخيرًا اقترب الوصول للصديق المفقود سهيل، بعد أن عثر ابن زيدون على رفيق دربه في أيام السجن الطويلة، رجل يدعى راؤل ارنجي.

اخترق سهيل شوارع وحانات البازيين المتشابهة، كما اعتاد منذ أن ترك مالقة ليستقر في غرناطة، كانت تغمره السعادة حتى تيقن الناس أنه يمشي مترقصًا في الشوارع، يقفز من مربع إلى آخر، بخطوات سريعة.

وصل أويس أخيرًا إلى السوق، عثر على ابن زيدون يمارس هوايته المعتادة في مجادلة البائعين في الأسعار، يعنفهم ويحاسبهم، وكأنه قد عاد قائدًا عسكريًّا والبائعون عادوا جنودًا، يعيد فحص وفرز كل منتج في السوق، يصنف المنتجات إلى قسمين، بضائع رخيصة رديئة، وأخرى جيدة ثمينة، وفي النهاية كل ما يسعى إليه هو محاولات لاقتناص صفقة رابحة.

عندما التقى أويس ابن زيدون وجده شديد الانشغال والتدقيق، يتأمل أوراق شجرة بهت لونها واسودت، ينظر إليها بتمعن ثم يستنشق رائحتها ويعود مجددًا لينظر إليها متعجبًا.

اقترب أويس منه وهمس:

- لم تشغل بالك تلك الزرعة الذابلة؟

نظر ابن زيدون إلى أويس نظرة لوم:

- أتعلم، تلك الزرعة التي تصفها بالذابلة هي أغلى ما في السوق كله.

- وفيم تفيد.. تشفي المرضى أم تطيل العمر؟

- يسمونها أوراق التبغ، ويقولون إنها لا تشرب، إنما تستنشق!

- تستنشق! وكيف ذلك؟

- توضع في وعاء وتشعل فيها النيران ثم تستنشق رائحتها.

- ثم ماذا؟

- لا اعلم يا اخي، لكنهم يقولون إن رائحتها جذابة وتاثيرها فريد. على كل حال لست سفيهًا لأشتريها ولا أتوقع لتلك البضائع مستقبلًا.

- عجبت لهذا الزمن، ندفع الأموال لنشتري أوراق الشجر ثم نحرقها، هل اقتربت الساعة أم جن البشر!

ضحك ابن زيدون ثم قال:

- هذا هو حال غرناطة والأندلس كلها منذ أن عرف البحارة الطريق إلى العالم الجديد.

كان ابن زيدون على حق في جملته الأخيرة، لم يتبدل حال البلاد في الدين فقط، لم يتوقف الأمر عند تحول المساجد لكنائس، أو استبدال الأسماء واللغات من العربية إلى القشتالية، أو صك الصليب بدلًا من «لا غالب إلا الله» على العملات، إنما تبدل طعام الناس وملابسهم بسبب تلك الأراضي البعيدة التي لا يعلم عنها سوى القليل. هل هي بلاد الهند الشرقية أم أرض جديدة لم تطأها قدم بشر من قبل، لكن في كل الأحوال وصفوها بالعالم الجديد.

كانت جميع أسواق الأندلس، ومن قبلها كل الأراضي التي تقع تحت سيطرة القشتالة والبرتغاليين قد تحولت، اختفى التفاح والبرتقال والزبيب والتين والتمر واليوسفي وحبيبات الزيتون وأعشاب الريحان وروائح العنبر والبخور، وحلت مكانها أوراق التبغ وثمرات عجيبة الشكل والطعم.

ثمرة تبدو قاسية الملامح، دائرية الشكل، كبيرة الحجم، لها أشواك من كل جانب، ونابان أخضران على رأسها، يسمونها أناناس، وأخرى تبدو أكثر وداعة، تسرق الأنظار بلونها الأحمر الناصع وقشرتها الملساء الناعمة، تحمل في بطنها سائلًا لزجًا، أعطوها اسم طماطم، وهناك يقف بائعون متخصصون في بيع ثمرة بيضاوية الشكل، صفراء اللون، تخرج من باطن الأرض، تسلق وتؤكل مهروسة يدعونها بطاطا، وأخرى تشابهها ولكنها أكثر رشاقة ولونها داكن، وطعمها حلو وتُسمى بطاطا حلوة.

كان أويس يراقب السوق الممتد مبهورًا، رغم أنها لم تكن المرة الأولى التي يحضر فيها إلى السوق منذ أن عاد، ولكنه لم يكن يهتم بما يتحدثون عنه من عالم جديد، ولا يظن أن تلك الرحلات الدورية التي تطلقها إسبانيا والبرتغال إلى هذا العالم الغريب أثرت إلى هذا الحد. باعة جائلون يبيعون أعشابًا تطلق روائح زكية لم تستنشقها أنف من قبل، وثمرات بألوان لم ترها العين، وقماشًا ملونًا ومواد تشبه الصمغ وحيوانات وطيورًا خلقها الله لا مثيل لها.

قال ابن زيدون وهو يراقب ملامح وجه اويس المصدومة: - ماذا بك يا ابا رقية، تشاهد ما جلبه لنا هذا العالم الجديد، وكأن ذلك البحار الموتور المدعو كريستوفر كولومبوس قد عاد أمس. لقد مر أكثر من ثلاثة عشر عامًا على اكتشاف تلك البلاد واعتدنا حفلات توديع السفن وعودتها في الشوارع، ورأينا العجاب من تلك البلاد حتى اعتدناها.

- ولماذا لم ينتقل الكثيرون إلى هذا العالم؟

- من مجنون يفعل ذلك؟! بلاد غريبة بها كائنات أطول من النخل وأشجار آكلة للحوم وبشر بأنياب كالوحوش يأكلون بعضهم بعضًا.

- ومن أين علمت بذلك؟

- هذا ما يتناقله العامة، إنهم يبحثون منذ مدة طويلة عن عاملين ورجال اعتادوا ركوب البحار بمبالغ مجزية من أجل السفر إلى هناك، ولكن لا مجيب ولا راغب في ذلك، الكل خائف.

- ولكن يا ابن زيدون تلك مجرد..

قاطع ابن زيدون أويس:

- أخبرني بما هو أهم، كيف حال زوجتك؟

- والله يا أبا موسى، لا أخفي عنك سرًّا، يبدو أن جنين قد فقدت النطق.

- وكيف ذلك؟

- لا أسمع لها حسًّا منذ ذلك اليوم المشؤوم، لا تخرج من الدار ولا تتحدث في أي شيء، تجلس وحيدة شريدة أغلب الوقت، حتى ابنتها تتركها بالساعات حتى تتذكرها.

- أكان عليها أن تصب غضبها على هؤلاء النساء، فهن في النهاية مغلوبات على أمرهن.

- الجميع معذور يا ابن زيدون، الحمل قد ثقل على الجميع، والدين مظلوم بين نفوس البشر، بعد أن ضل الأغلب الطريق.

- أحسنت والله، لا نعلم ما يخبئه لنا الزمن، فربما نسمع عن دين جديد، تقرأ فيه الفاتحة وأنت جاثٍ على ركبتيك تحمل الصليب.

توقف ابن زيدون فجأة، وأشار إلى أحد البيوت القابعة في البازيين: - ها قد وصلنا، دعنا نطرق بابه ونستكمل حديثنا بعدها.

فتحت امرأة الباب بعد أن تيقنت جيدًا أنهم الأشخاص المنتظرون، بدا

الخوف عليها، وكانها تنتظر ان يطرق الموت بابها في اي لحظة، امراة طويلة ملامحها غامضة ليست بربرية ولا عربية، ولا تبدو أنها ذات أصول قشتالية، فارهة الطول، قوية البنيان بجلباب قديم ممزق، يعكس وجهها سنها الصغيرة، رغم ما يحمله من امتعاض وبؤس وانكسار.

رغم ضخامة البيت وتعدد طوابقه، فإنه كان فقيرًا أيضًا، لا أثاث فيه ولا فراش. صاحبت السيدة أويس وابن زيدون إلى حيث يقطن زوجها، غرفة كبيرة بحجم دار صغيرة، ولكنها تشابهت مع أقرانها في فقر المحتوى، بدا أن الضوء لا يدخلها سوى خلسة، وبصعوبة بالغة لم يظهر سوى وجه رجل ساكن يفترش الأرض مغطى بلحاف ثقيل رغم حرارة الجو المرتفعة، يسند رأسه على الحائط.

رفع الرجل يده اليمنى، المرتعشة بشكل ملحوظ، يطلب منهم الجلوس. لم يجد أويس وابن زيدون ما يمكن الجلوس عليه سوى الأرض، امتد الصمت لفترة دون أن يسعى أحد الحاضرين لكسره، حتى قال ابن زيدون: - جئناك تائهين باحثين عن رجل يُدعى سهيل، سُجن معك في سجن الحمراء، قصير بلحية كثيفة وجسد...

قاطع راؤول ابن زيدون بصوت أجش قوي:

- لا داعي لوصفه، فهل يمكن أن أنسى وجه رجل لازمني في سرداب واحد لقرابة الخمس سنوات!

عم الصمت من جديد، بدا الارتياح على وجه أويس، نظر لابن زيدون ليكمل ما بدأه: - إذن لترحنا وترشدنا للصواب، أين نجد سهيل يا أخي الكريم؟

- لا أعلم!

- إذن دلنا أين نبحث عنه؟

- لن تجدوه!

- هل مات؟

- لا أعلم!

في تلك اللحظة فقد أويس هدوءه المعتاد، قام من مجلسه بانفعال صائحًا:
- إن كنت لا تعلم فلم تنهانا عن البحث عنه، ولا ترغب في مساعدتنا؟

ضحك راؤول للمرة الأولى حتى ظهرت ثقوب بين أسنانه ثم قال: - تذكرني به، كلاكما سريع الغضب.

نظر اويس لابن زيدون:

هيا يا أبا موسى، فلنرحل من هذا البيت، لا نرغب في إضاعة وقتنا أكثر...

قاطع راؤول أويس مجددًا:

- هدئ يا ابن زيدون من روع صديقك الموتور. ابعدا عن سجون القشتالة ومحاكمهم، هذا أفضل حالًا فلا جدوى مما تفعلون.

قال ابن زيدون:

- ما الذي تخشى علينا منه؟

سكت راؤول لحظة، نظر لزوجته التي جلست قابعة في نهاية الغرفة تذرف الدمع دون همس، وكأنه ينتظر منها ردًّا أو موافقة. ابتسمت زوجة راؤول ثم ألقت بنظرها بعيدًا عنهم. رفع راؤول لحافه الثقيل فبدت أقدامه. القدم اليمنى قد بترت أصابعها بالكامل، والأخرى هشمت عظامها وتدلت دون سند، وفي كلتا القدمين بقيت آثار إصابة كبيرة لم تلتئم بسهولة.

رفع راؤول يده اليمنى وأشار إلى قدميه:

- هذا ما أخشى عليكم منه.

كان واقع ما رآه أويس وابن زيدون مخيفًا صادمًا، لم يستطيعا أن يتوقفا عن النظر لأقدام راؤول المبتورة والمهشمة، كان مشهدًا قاسيًا لم تره عيونهما من قبل.

قال أويس بصوت خافت يحبس خلفه دموعًا وآلامًا:

- من فعل بك هذا؟

- هم نفس الأشخاص الذين نصَّروا العامة، وهدموا المساجد، وطردوا أصحاب الأرض، وحرقوا الكتب، ومثلوا بالجثث.

- يا ويلاه، لعنة الله عليهم إلى يوم يبعثون.

قاطع ابن زيدون حديثهما متحدثًا إلى راؤول:

- وما كانت تهمتك يا أخي؟

- قتل الطفل في بطن أمه، خطف النوم من عيون النائمين، تفريق المتزوجين، إطلاق سراح الشياطين، تحويل الرجال إلى خنازير!

- وكيف تفعل ذلك؟!

- ساحر جبار!

- ساحر؟

- أخاوي الشياطين وأصنع السحر الأسود.

- هل فقد القضاة عقولهم؟

- هكذا كانت أغلب التهم، إما سحرة أو ملاحدة ولكل تهمة عذابها. إن كنت من الملاحدة الكافرين ربطوا أوصالك بالحبال وشدوها، حتى تكاد تشعر أن أذرعك وأرجلك على وشك التمزق عن جسدك، وفي بعض الأحيان يشرحون جسدك بالخناجر من الأكتاف إلى الأرداف، وإن كنت محظوظًا وحنوا عليك، جلدوك أو أغرقوا رأسك في الماء.

- وما غايتهم من كل تلك الوحشية؟

- تعترف بوثنيتك وتشهد بالتثليث، الله والابن والروح القدس، ويطلق سراحك موشومًا بالعار، حاملًا صك الطهارة.

قاطع ابن زيدون قائلًا بسخرية:

- وماذا عن السحرة أمثالك؟

- يحضروننا في غرفة ملئت حوائطها بالصلبان، ورشت بتعويذة من مياه التعميد والملح المقدس، يربطون الأذرع والأقدام، وفي وضع النائمين يغرزون أسياخًا من حديد، شكلت على هيئة صلبان في الكعوب وأسفل القدم، حتى تتوسط لحم الجسد وهياكل العظام، ظنًّا منهم أن بهذا يبطل مفعول السحر.

- وهل فعلوا بك كل هذا يا راؤول؟

- لا، حالتي كانت فريدة في طرق التعذيب، ربطوا عنقي بإسورة من حديد مدبب، وغرسوا سكاكين مسنونة في أنحاء جسدي حتى تسيل قطرات دمائي واحدة تلو الأخرى. في مناسبات أخرى هشموا عظام أقدامي بالمطرقة، وقطعوا أصبعًا تلو الآخر حتى ينالوا الاعتراف.

صاح أويس في انفعال شديد:

- وهل نالوه؟

- نعم، اعترفت بكل ما يريدون وطلبت التوبة والسماح.

- كيف خرجت بعد ذلك؟

- لا أعلم كيف حدث ذلك حتى الآن، لكني بقيت مسجونًا لسنوات بعدها، حتى تركوني دون تهمة أو سؤال، وكما ترون أقبع الآن في بيتي لا أخرج منه ولا أستطيع القيام، وأخشى أن أعود لسجن محاكم التفتيش من جديد.

كفت كلمات راؤول القاسية اويس وابن زيدون عن إلقاء اي سؤال اخر، ظلوا صامتين. حملت وجوههم مشاعر متناقضة، قهر وخوف وغضب، نظر ابن زيدون إلى أويس ليذكره بأنه وجب عليهم الرحيل. تجرأ أويس سائلًا نفسه هل بعد اقتراب الوصول إلى الحقيقة، نهرب من السؤال. ألقى أويس بسؤاله الأخير إلى راؤول: - نعلم أن تلك أمور تفوق تحمل البشر، ولكننا ما زلنا نحتاج أن نعرف، ماذا حدث لسهيل؟

- رافقني سهيل في سرداب واحد لسنوات، تشاركنا في التعذيب وتقاسمنا فتات الخبز وقطرات الماء، كان رجلًا بحق قوي الشكيمة، لكنه عنيد غبي، ظل لسنوات يعذب يوميًّا حتى يعترف بأنه على ضلال، ويطلب المغفرة والتوبة، ولكن رفضه الدائم كان يزيد من وصلات تعذيبه. يسألونه وهو جالس على كرسي التعذيب: هل أنت على دين المسيحية أم الإسلام، فيقول لهم «أنا على صراط الله المستقيم». ويكررون السؤال فيكرر هو الإجابة. وظل على هذا إلى أن جاء بعض الجنود يومًا وفتحوا السرداب وحملوه بعيدًا، كان الجنود يضحكون ويتسامرون. قالوا له ساخرين أنهم يحملون لسهيل بشرى سارة، قد جاء له أشرس المحققين، قاضٍ جديد من إشبيلية، وسيفتح باب التحقيق معه من جديد. ومنذ ذلك الحين لمٍ أر سهيل مرة ثانية، ولا أعلم إلى أين ذهب ومتى يعود.

قام أويس وابن زيدون من جلستهما وقد وجم وجهاهما، مال الاثنان على راؤول مقبلين رأسه، شكرا زوجته التي لم تتوقف عن البكاء، وقبل أن يهمَّا بالرحيل، نادى راؤول عليهما: - سمعت في إحدى ليالي السجن الطويلة، همس جنود يتحدثون عن سهيل، تحدثوا عن حوار دار بين المحقق وسهيل سأله فيه إن كان يؤمن بالمحمدية، فأجاب سهيل وما تكون المحمدية، قال له المحقق: دين محمد، فرد سهيل عليه: إن كنت تقصد أنني أومن بمحمد إلهًا فلا، ثم سكت قليلًا وأكمل: أما إن كنت تسألني إن كنت أومن بإله، فنعم وأشهد أنه رسول الله.

نظر أويس لابن زيدون:

- ماذا يعني ذلك؟

أجاب راؤول:

- إن كان صحيحًا، فمعناه أن تبحثوا عن سهيل في القبور!

شكر أويس وابن زيدون راؤول، وزوجته مجددًا، قبل أن يهمَّا بالرحيل. تمتم أويس بكلمات قليلة لراؤول قبل أن يغادر: - لا تيأس يا أخي، سيجازيك الله خيرًا، جنة عرضها السماء والأرض بإذن الله، أنت وكل المرابطين في

السجون.

ابتسم راؤول، قائلًا بصوت ساخر:

- وهل يدخل اليهود الجنة يا سيدي؟!

بدا الامتعاض على وجه ابن زيدون، بعد أن شعر أنه يستهزئ بكلام أويس، أمسك أويس ذراع ابن زيدون مهدئًا من روعه ثم أجاب: - «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ»

***

(٢٨)

يوم بائس كبقية الأيام التي اعتادها أويس منذ عاد إلى غرناطة. غربت الشمس وحل الظلام وانتفض الباعة راحلين إلى جحورهم بعد انتهاء يوم شاق، ومعهم حمل أويس ما تبقى من بضاعته وشد الترحال إلى بيته، تنهد كثيرًا محاولًا التغلب على إحساسه بالضيق الذي ينتابه كل مساء من هذا الوقت، كانت تلك اللحظات هي الأكثر تعاسة في اليوم، موعد الرحيل، العودة للبيت، شمس تغرب وطفلة تبكي تبحث عن أمها، والأم شاردة حزينة تقبع في عالم آخر لا تسمح بأن يخطوه أحد. في الطريق إلى البيت تدور الأفكار في رأس أويس، يسأل نفسه إلى أين يذهب، الظلام قابع بالشوارع والبؤس قابع في البيوت، إذن إلى أين أذهب وإلى من أدلي بما يحمله قلبي في غيابك يا سهيل. يا رباه أين تكون الآن أيها الصديق المتخاذل، وعدتني بأننا لن نفترق مهما حيينا، وها قد افترقنا باختيارك قبل أن تجبرنا الدنيا على ذلك.

فتح أويس باب الدار وسمع أزيزه المعتاد الذي طالما كرهه، بعدما ارتبط معه بالبؤس والشقاء، ألقى السلام كما اعتاد، ولم يلق أي رد كما أصبح معتادًا، بحث عن زوجته وهو يحمل في جعبته صرة من القمح وعددًا من ثمرات الموز البلغاري بعد أن أوصى تاجرًا قشتاليًّا أن يحملها وهو عائد من البلاد العثمانية، طالما أحبتها جنين وربما تعيد جزءًا من روحها المسروقة.

بحث عنها حتى وجدها مستلقية، تلقي برأسها على أحد الحوائط، تحتضن ابنتها النائمة ويبدو أن وجهها منهك على إثر بكاء طويل، وما زالت الدموع لم تجف فوق خديها.

حاول أويس أن يفتح حوارًا كاسرًا صمت الغرفة وكآبتها، جلس بجوارها مبتسمًا بعد أن أمسك يديها: - انظري ماذا أحضرت لكِ من بلادك.

لم تحرك جنين رأسها ولم تنظر. أعاد أويس حديثه من جديد: - حاصري غضبك، اقتلعي حزنك وأفصحي لي عن همك، فكلانا يحتاج للآخر.

سالت بعض الدموع من جنين مجددًا، اعتدلت في جلستها قليلًا، حاولت استجماع ما تبقى من طاقتها ثم قالت: - وماذا إن أصيب القلب بالداء ولا دواء له ولا شفاء.

- لا مرض بلا شفاء، ولكل مشكلة حل، فما هو العلاج؟

- أنت تعلم المشكلة وتعرف حلها ولكنك لن تفعله.

- ربما أعلم المشكلة ولكني لا أعلم الحل.

- حلها الرحيل يا ابا رقية.

- ولكنك تعلمين أن في الرحيل عن غرناطة موتًا.

- وفي البقاء عذاب وموت بطيء يا أويس.

- هذا ليس حلًّا يا جنين، نترك أرضنا وأرض أجدادنا للأغراب.

- لم تعد أرضك يا أويس، رحل الإسلام منها وهاجر أهلها، ومات وسجن من بقي فيها، بماذا تتمسك وعلى أي شيء تُبقي؟

- رحل من رحل وهاجر من هاجر، ولكن الوطن باقٍ، الوطن ملك لمن ولد عليه، وعاش فيه وجال بين أراضيه.

- إذن الأندلس لم تكن قط ملكًا للعرب!

- ولا للبربر ولا للقشتالة ولا للقوط، المحتلون زائلون والوطن باقٍ.

- وماذا عن الدين، هل الأندلس إسلامية أم مسيحية؟ هل سقطت الأندلس أم حررت؟

- لم تسقط ولم تتحرر، تتغير النظم ويختلف الحكام، ويبقى الدين في القلوب، ولكننا ننتمي إلى أوطاننا مثلما ننتمي إلى أمهاتنا.

- وما يكون الوطن في بلاد يغيب عنها الحب ويجمعها التعصب، الكل يقتل وينهب ويعذب ويسيء، ظنًّا أنه يد الله على الأرض، فلنرحل ولنبحث عن وطن يستوعب الجميع، ووطن تأمن فيه على ابنتك. لقد تركت بلادي يومًا بحثًا عن العدل، وتركنا مصر بحثًا عن الوطن، والآن حان وقت الرحيل بحثًا عن السلام، فلنعد إلى مصر أو نرحل مع الراحلين إلى فاس أو صفاقس.

- لن أرحل يا جنين!

- إذن سأرحل أنا وابنتي، ولتمرح أنت في وطنك الزائف.

- هل تهددينني؟

- يا أويس الوطن مكان قد تغادره أقدامنا، لكنه يبقى في قلوبنا، وأحيانًا يصعب القرار، ولكن قد حان وقته.

اعتدل أويس في جلسته، مال على ابنته المستغرقة في سبات عميق، قبل جبهتها، ثم أعاد النظر لها، وكأنه يعادل بين أمرين. مال على جنين وهو يتجنب النظر إليها: - سنرحل، ولكن ليس الآن.

***

«أعدكِ إن فشلنا سنرحل».. همس أويس في أذن جنين قبل أن يقبل رأسها ويرحل، لم تبادره بأي مشاعر، لم تبالِ بما قال أو سيقول، اكتفت بنظرة طويلة غامضة مليئة بالخوف والعتاب. خرج أويس من الدار يلعن تلك الأيام التي جعلت من حياته البسيطة جحيمًا متواصلًا، من تاجر أقمشة لرحالة تائه بلا وطن يحميه وهوية تؤويه.

قطع أويس حي البازيين ثم سوق العطارين واجتاز كنيسة سان سيلفادور حتى وصل لضفة نهر شنيل، كانت ضفتا النهر مزدحمتين على غير العادة، رغم هبوب الرياح وهطول المطر واجتياح غرناطة عاصفة باردة غرست أوصالها منذ أيام، ولكنه أمر متوقع في يوم مشهود غير متكرر كهذا، سيقاوم الناس البرد ويستمتعون بالمطر من أجل الحدث الجلل.

ألقى أويس بنظره على قصر الحمراء المستكين أعلى الجبل، كان على عادته عظيمًا بارزًا، ولكن السماء الداكنة والشمس الغائبة أضافتا كآبة على الموقع الفريد.

مر أويس من جسر النهر بصعوبة بالغة بسبب الزحام ثم بدأ رحلته بالصعود لتبة القصر طبقًا للخطة المنصوص عليها، كلما صعد إلى أعلى ازدادت ضربات قلبه وتصبب وجهه عرقًا مندمجًا مع قطرات المطر، كان الخوف قد امتلك قلبه بالكامل، وعقله شارد مزدحم بأفكار وشجون تأمره بأن ينسحب فورًا. يسترجع لقاءه الأخير مع ابن زيدون:

- ما تخطط له هو ضرب من الجنون.

- الحل الوحيد لما نحن فيه.

- إن كنت لا تخشى على نفسك من الموت، ألا تفكر فيما سيحدث لزوجتك المترملة وابنتك اليتيمة.

- ما سوف نفعله من تضحية يضمن مستقبلًا أفضل ووطنًا حرًّا.

- وإن فشلت؟

- لهما رب يحميهما.

- ما تقوله ليس توكلًا على الله!

- إن الله يسبب الأسباب وعلينا طاعتها، وفاة الملكة الملعونة إيزابيلا ووصيتها الغريبة بأن تدفن في غرناطة وقصر الحمراء بالتحديد أسباب لا

يسببها سوى الخالق لنستفيد منها.

- وكيف ذلك؟

- أراد الله أن يخلص عباده من الملكة الملعونة فأماتها ثم حمل جثمانها إلينا بمحض إرادتها، ليحضر زوجها الملك فرناندو ورجاله أجمعين يشيعونها، فنقتله ومن معه بمشيئة الله وتعود الغلبة للمؤمنين.

- تريد أن تقتل الملك وقد جاء بجحافل من الجنود والبشر، أيعقل ذلك!

- كُن معنا واتبع خطتنا، ولا تخف إن الله معنا. لقد جاء الملك وجنوده من إشبيلية إلى غرناطة ليذلونا ويكسرون شوكتنا، وإنهم بإذن الله لهم المنكسرون.

لم يستطع أويس أن يطرد الأفكار من رأسه، ظل يسأل نفسه مرارًا:

- كيف قبلت بهذا الجنون وبتلك الخطة، ألهذا الحد فقدنا الأمل في أنفسنا وأصبحنا نلهث وراء أي مقترح حتى وإن كان انتحارًا فعليًّا؟!

لم يقطع شتات أويس سوى الزحام الشديد الذي ازداد كلما صعد إلى أعلى، كان عليه الوصول إلى النقطة المتفق عليها طبقًا للخطة. يقف مختبئًا بين أشجار القصبة بجوار شجرة التين العملاقة المواجهة لمدخل باب الشريعة. قُطعت الشجرة من جذورها منذ أيام وربطت بحبال عتية. وكل ما على أويس فعله هو أن يحمل الفأس لقطع الحبال في اللحظة المناسبة.

تسقط الشجرة وترتطم قاطعة الطريق على الملك وجنوده، يصابون بالصدمة والذعر ويضرب الخلل صفوفهم، ولا يكون في انتظار فرناندو وأعوانه سوى أسهم القناصين المختبئين بين أفرع الشجر، يقودهم ابن زيدون، بعدها ينطلق أفراد الجنود المسلحين المختبئين بين الحضور، ليدقوا أعناق جنود القشتالة.

تعالت الأصوات بين الحاضرين، وازدادت الهمسات، صرخ بعض الحضور:

- استعدوا وصلت القافلة الملكية.

ترجل حرس قصر الحمراء من أحصنتهم لفرض الرقابة اللازمة على الحضور بامتداد الطريق المؤدي للقصر، انقسمت العامة على جانبي الطريق وفي المنتصف مهد الطريق لعبور القادمين.

كان الحضور كثيفًا والاهتمام كبيرًا رغم قسوة الجو وكآبة السماء، البعض بدا أنه خرج متنزهًا لمشاهدة حدث لم يره من قبل، أفواج ملكية وكبار القوم وفي مقدمتهم الملك، يسيرون مشيعين جثمان الملكة التي طالما ظن الناس

انها خالدة لا تموت، عاركت الزمن وتغلبت عليه.

آخرون جاءوا حقًّا معزين، بعضهم جاء ليثبت ولاءه بحزنه على الملكة الفقيدة، وآخرون خافوا على مصير المسيحية والأمة الإسبانية بعد رحيلها، ولكن في النهاية الشيء الذي جمع الجميع هو حضور اليوم المشهود حاملين في أيديهم أغصان الزيتون.

كان أويس يراقب المشهد باهتمام شديد، كلما اقترب الملك وجثمان زوجته بدا التوتر على الجنود ومن قبلهم الحاضرين.

كانت الطبول الحربية في مقدمة القافلة يحملها رجال أشداء ببشرة داكنة وأجسام عريضة، ارتدوا ملابس عسكرية ملونة. قطعوا الطريق الممتلئ بالوحل والغارق بالمطر، ظلوا يدقون الطبول بقوة لضبط إيقاع السائرين. ومن خلفهم بدأ السائرون في الظهور تباعًا، جنود ترتدي القلناس الملكي وتحمل عصا من الذهب في نهايتها تاج المملكة المزين بالصليب، يقودهم رجل صارم لبس رداءً أبيض طويلًا، رسم عليه أسدان يواجهان بعضهما بعضًا، وفي يده حمل علم القشتالة الأحمر، وعلى جانبي الطريق امتدت صفوف من جنود يحدون القافلة من كل جانب، حملوا سيوفًا فضية لامعة ورداءً مطرزًا بالنياشين وفوق رؤوسهم خوذ نحاسية تخفي وجوههم. في المنتصف كان النعش مرفوعًا ملحوظًا بدا بسيطًا على عكس كل ما حوله، غُطي الجثمان بجلود الماشية ووضع فوقها صليب خشبي عملاق، حمل النعش أربعة رجال طوال القامة، ارتدوا رداء أسود، أحاطوه بحزام أبيض من الكتان، رفعوا النعش بيد وباليد الأخرى حملوا شمعة بيضاء كبيرة تطلق ومضًا شديدًا لم ير الحضور له مثيلًا من قبل.

على كل جانب من النعش وقف رجال الدين تباعًا طبقًا للمقام، أساقفة الكاتدرائيات والكنائس الكبرى بدوا بارزين بوشاحهم الأحمر فوق ردائهم الأبيض، جاءوا من كل حدب وصوب ليودعوا الفقيدة، ومن ورائهم القساوسة برداء أسود داكن وشريط طويل ملون من حرير معلق في رقابهم، تلاهم خادمو الكنائس والشماسون ارتدوا أكمامًا لامعة مذهبة ومرصعة بالصلبان، كان كل منهم يتلو صلاة منفردة يدعو ويشجو، يغني وينعي منفردًا.

فور أن مروا بخطوات بطيئة خلف النعش، بدا أن الرجل المنتظر قد بان وظهر، الملك فرناندو، يخطو في الوحل مختالًا فخورًا، ظهر قصيرًا بدينًا، ارتدى قميصًا طويلًا أطرافه مذهبة، وفوقه عباءة متسعة فارهة بلا أكمام، مصنوعة من أجود أصواف أغنام أوروبا، وحمل فوق رأسه تاج المملكة المرصع بخمسة أحجار كريمة، وفي يده حمل صولجانًا، رأسه على هيئة

صليب مرصع بجوهرة عملاقة، ونهايته تشكلت على هيئة قدم حيوان بمخالب مدببة.

ظهر الملك شاردًا، ملامحه مستكينة ناضرة، لم يظهر حزينًا أو متأثرًا، تدور الأفكار في رأسه لاعنًا تلك الأيام والليالي التي صاحب فيها الملكة المتعجرفة:

حتى في رحيلها تُعذب كل من حولها، توصي بأن تدفن في غرناطة، فنسير أيامًا بليالٍ طويلة بين الثلوج والعواصف لنودعها. حتى عندما ماتت اختارت أسوأ أيام الشتاء وأعصفها، أمطار لا تتوقف ورياح لا تعرف الرحمة، يطالبونني بأن نؤجل مراسم دفنها حتى تهدأ العاصفة. أبدًا فلتدفن ونستريح، أخيرًا سأصبح الحاكم الوحيد، الآمر الناهي دون غيري، أنعم بمملكتي التي ضحيت بعمري من أجلها.

إلى جوار الملك وقف أحد الصبية يحمل عصا في نهايتها قبة من الخوص والقماش تحمي ملابس الملك من البلل، صاحب الملك كبار المملكة، على يمينه وقف الكاردينال فرانشيسكو دي خمنيث المطران الأعظم يتمتم بكلمات غير مسموعة، ارتدى في رقبته صليبًا مزينًا بأحجار المرمر، وفي يده اليمنى رفع صليبًا مذهبًا، أطرافه من فضة وقلبه محلى بالذهب الأبيض، وإلى جواره هيرناندو دي تالفيرا أسقف غرناطة، ومعهم ظهر ديجو دازا أسقف إشبيلية وكاتم أسرار الملكة الراحلة، وعلى اليسار كان قائد الجيوش فرناندو دي ثافرا، بالإضافة إلى ممثلي ممالك البرتغال وأنطاكيا ونابلس ليقدموا واجب العزاء.

كان أويس يراقب ويرصد الحاضرين مذهولًا، فهو لم ير مثل هذا الحشد من قبل، ومثل هذا التجمع من كبار القوم، أخرج السكين واقترب من الحبل استعدادًا لقطعه، يسأل نفسه، هل حقًّا ننجح تلك المرة، يعود بنظره إلى الملك ثم ينظر إلى ابن زيدون المختبئ بين الشجر، وكأنه لا يصدق ما تراه عيناه، ثم يسأل نفسه مجددًا هل بعد كل سنوات الشقاء، يفرجها الله علينا اليوم ويموت الفاسدون؟

كان أويس في انتظار الإشارة المتفق عليها، اجتياز الملك باب الشريعة قبل الوصول للقصر، هنا يقطع أويس الحبل وتنطلق سهام ابن زيدون ومن معه، ثم يجهز المختبئون بين العامة على من تبقى من جنود الملك.

اجتاز النعش البوابة وعبر معه الأساقفة والقساوسة وجاء دور الملك ورجاله، وضع أويس السكين على عقود الحبل استعدادًا للصراخ بأعلى صوته «الله أكبر». ارتفعت تمتمات القساوسة وازدادت صيحات الحضور باقتراب

الملك عند البوابة، وقبل اجتيازها توقف الملك وتوقفت معه القافلة فجاة، رفع يده إلى أعلى وكأنه يرسل علامة متفقًا عليها، ثم قال بلغة قشتالية مسموعة:

- الموت للفسقة الخائنين.

ثم خفض ذراعه في إشارة للهجوم. انطلقت العشرات من السهام من كل جانب، تعرف طريقها جيدًا، تخترق رقاب وقلوب المختبئين بين الشجر، تساقط الرجال واحدًا تلو الآخر كأوراق الشجر ومعهم سقط ابن زيدون. من سقط من الرجال ولم يمت أجهز عليه الجنود في الحال دون رحمة أو شفقة مع الخونة.

لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق، حتى كان جميع من شارك في الخطة قد دق نحره وسقط على الفور، ولم يتبق سوى أويس وآخرون قلائل ممن لم يصعدوا على الشجر، ألقوا ما حملوا من سيوف وخناجر ودمجوا أنفسهم مع الحضور مختبئين، غياث لا يهمسون.

حلت الفوضى بين الحضور، صرخات وبكاء وآخرون هرولوا هربًا من الموت. تبقى القليل يراقبون المشهد الأخير في ذهول.

نظر فرناندو حوله وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة النصر والقوة، هدأت تجاعيد جبهته المتخشبة بعد أن تيقن أن الأمور على ما يرام. صاح الملك بصوت عالٍ:

- لن يكسر الأعداء عزيمتنا، وستبقى مملكتنا حرة، لن يحكمنا الكافرون مجددًا، ولن تكون هناك دسائس بعد اليوم.

ثم رفع ذراعه ليطلق أوامره إلى قائد الجيوش بأن يستكمل النعش طريقه مخترقًا قصر الحمراء لتدفن الملكة كما أوصت في مستقرها الأخير.

***

(٣٠)

كانت المهلة التي وضعها حاكم غرناطة، الماركيز دي مونتخار، هي ثلاثة أيام، وصفها بالهدوء الذي يسبق العاصفة التي لن ترحم كافرًا أو زنديقًا ما زال يخرج أنفاسه على أرض غرناطة، الرسالة كانت واضحة طافت أحياء غرناطة كلها: «على كل من شارك في محاولة الاغتيال أن يسلم نفسه في غضون ثلاثة أيام وإلا كان العقاب مضاعفًا، تهدم البيوت على أصحابها، وتقطع الرؤوس، ويحرق كل من تستر عليهم، لا محاكمة ولا رحمة، الكل مذنب والسيئة تعم، وصكوك المغفرة قد نفدت من جعبة الحاكم ورجاله».

يوم واحد كان كافيًا للهروب الكبير، مئات تركوا ما امتلكوا وهربوا إلى كل حدب وصوب، سواء من كانت عقوبته الاشتراك في الجريمة أو مجرد ذنبه أنه موركسي يدعي المسيحية. أفلت من أفلت من جنود القشتالة الذين أحكموا الحصار على المدينة، وقتل من عثر عليه راحلًا هاربًا، البعض انطلق إلى آلمرية بحثًا عن معبر إلى أفريقيا، وآخرون ساروا على أقدامهم لأسابيع حتى وصلوا إلى بلنسية بعد أن هلكت أبدانهم وتقطعت أقدامهم وسالت الدماء منها.

حاول أويس البحث عن أم موسى وابنها الصغير فلم يجدهما، دار ابن زيدون أصبحت مهجورة منبوذة، لا أحد يعلم أين ذهبوا والشائعات طافت أحياء غرناطة، قالوا إنهم اختبأوا في سرداب عميق حتى تهدأ الأمور، وآخرون حكوا أنهم شاهدوا أم موسى تجتاز النهر الكبير في اتجاه قرطبة، والبعض قال إنهم الآن ركاب على سفينة متجهة إلى ميناء سوسة. تناثرت الشائعات، ولا أحد يعلم أين الحقيقة، ولكن الشيء الوحيد المتيقن منه أن غرناطة لم تعد آمنة على أهلها.

انطلقت الشائعات كجمرات ملتهبة تنتشر بين ليلة وضحاها، قيل إن المحققين قد علموا بأسماء كل من شارك في محاولة الاغتيال الفاشلة، وأن أويس ضيف على تلك القائمة، رفعت المعلقات في كل غرناطة بأسماء المطلوبين، فليسلموا أنفسهم رحمة بالمدينة.

***

وصل الخطاب المنتظر حامل البشرى أخيرًا، لقد وافقت مدرسة أمريجو الملكية لركوب البحار على توظيف أويس بحارًا على إحدى السفن الملكية المتجهة للعالم الجديد. حمل الخطاب الموثق بتاج المملكة وتوقيع الوزير الأول، موافقة على اصطحاب زوجته وابنته الصغيرة، ليكونوا ضمن سكان

المستوطنة الثانية في البحر الهندي المكتشف.

فرحت جنين كما لم تفرح منذ زمن بعيد، بل بالغت في سعادتها، احتضنت أويس بشدة وطبعت قبلة على أحد خديه واصفة الخبر الذي ألقاه بأنه لا يقل فرحًا لديها عن أول يوم رأته فيه عند باب الشكاوى في قلعة صلاح الدين، أو يوم رأت عيناها ابنتها رقية للمرة الأولى في بيمارستان القلاووني الكائن في شارع المعز.

مال أويس على جنين احتضنها هو الآخر كما لم يحتضنها من قبل، امتلأت عيناه بالدموع، لم يعرف لماذا تدمع عيناه، هل فرحًا بفرحة جنين ورؤيته لجمال ضحكتها ولمعان عينيها، زوجته وشريكته، أجمل السيدات في عينيه، الضوء الخافت في حياته الباهتة أم أنه يبكي حزنًا على اقتراب فراق وطنه، نفس مكسورة من جرم لم يفعله وظلم لم يزرعه وحصاد لم يجني ثماره، هل كتب الله عليه الترحال، فقدان الوطن والبحث عن مستقبل مجهول، تظل نفسه شاردة، وعيناه دامعتين وقلبه جريحًا، لا يجد من يداويه.

كانت جنين تراقب عيني أويس تقرأهما بتمعن، تعلم ما يدور في عقله جيدًا، تفهم حجم القهر الذي يعيشه والشجن الذي يخفيه صدره، أمسكت يديه بقوة، وكأن أكفهما اندمجت فأصبحت قبضة واحدة، حاولت أن تخفف عنه مازحة: - أتعلم يا حبيبي من هو الرجل الوحيد الذي أحبه من الأتراك؟

- أحقًّا تحبين أحدًا من الأتراك؟ من يكون يا ترى؟

- مولانا جلال الدين الرومي!

ضحك أويس بشدة من دهشته بمعرفة جنين لشاعر كبير وفقيه ومتصوف بارع كابن الرومي، رجل تحبه وتحفظ أشعاره، سألها: - ولماذا تحبين ابن الرومي يا عزيزتي؟

- لأنه كان أعلم الخلق بأمور الدنيا، أبياته ما زالت روحًا تتنفس في زماننا هذا، رغم مرور أكثر من مائتي عام على رحيله.

- وما أكثر الأبيات قربًا إلى قلبك؟

- بيت يحكي عن حالنا، يقول فيه: فما كل من حط الرحال بمخفق.. ولا كل من شد الرحال بكاسب.

- أحسن الوصف وأجاد والله.

سكت أويس قليلًا حتى تيقنت زوجته أنه سيعود مجددًا إلى شروده المعتاد حتى فاجأها بنظرة سريعة محدقًا في عينيها: - أعتقد أنك ستحبين جلال الدين

الرومي اكثر الان عندما تعلمين انه لم يكن تركيّا، إنما فارسي الاب والام.

ضحكت جنين ثم اقتربت من أويس مجددًا، أمسكت بذراعه ومالت برأسها عليه حتى تدلت خصلات شعرها الناعم على كتفه قائلة: - سنبني حياة جديدة بلا شقاء ولا خوف، وستعوضنا ابنتنا عن فراق أوطاننا، وربما نعود لما تهفو إليه قلوبنا يومًا!

- لقد قُضي الأمر والرحيل أصبح فرضًا ولم أعد مخيرًا، وما علينا الآن هو شد الرحال إلى ميناء بالوس لنلحق بالراحلين إلى ذلك العالم الغامض.

- وكيف سنفعل ذلك يا أبا رقية وأبواب المدينة مسكرة، وجنود الملك يحاصرون أسوارها، إن الخارج من غرناطة مفقود لا محالة.

- رجل واحد في المدينة هو القادر على إخراجنا بإذن الله سالمين.

- ومن يكون؟

- الشيطان الأعظم!

***

اجتاز أويس الضفة الأخرى من نهر شنيل، بعد أن استمر لقرابة الساعتين يتجول منتقلًا من حي إلى آخر ومن خان إلى حارة حتى وصل إلى باب الرملة الكبير، بدا كعادته مهيبًا مزدحمًا بالمارة، انعكست أضواء الشمس القوية على جنبات الميدان الرخامية فجعلته أكثر لمعانًا عن المعتاد.

اقترب أويس من مدخل سوق القيسرية، الكل فيه مشغول بين بائع ومشترٍ، أصوات المجادلة تضرب كل جوانحه، ظل أويس يراقب المارة بتمعن حتى اقترب أحد المارة وهمس في أذنه: - اتبعني يا أويس.

التفت أويس للصوت، فكان لرجل ارتدى جلبابًا طويلًا وعباءة سمراء، وعلى رأسه تدلى قلناس أخفى أجزاء من وجهه، لكنه لم يستطع أن يخفي شيبته، وتجاعيد الزمن التي طالته.

ضحك أويس قائلًا:

- أين ذهب رداؤك وصليبك أيها القس ابن كماشة، عذرًا القس جونثالو.

بدا الغضب على وجه ابن كماشة، احمر وجهه وعكست عيناه شرًّا مكتومًا: - لقائي معك خطر، ولا أعرف حتى اللحظة لماذا لبيت طلبك بمقابلتك.

- لقد أتى بك فضولك بعد أن أبلغك أحد الصبية أني أحمل بشرى لك.

- أيًّا كان، ألقِ ما بجعبتك، لا أمتلك لك وقتًا.

- بشراي لك أني راحل عن غرناطة.

لم يتمالك ابن كماشة نفسه، جلس على إحدى المصاطب بالقيسرية يقهقه ضاحكًا بعد أن اتسع فمه وظهر نابه، أجاب ساخرًا: - حمدًا لله، لقد كنت لا أنام الليل خوفًا من بقائك.

- ظننتك ترغب في التخلص ممن يذكرك بماضيك القذر وحاضرك المزيف.

- نبت الشيب في رأسك وما زلت ذلك الشاب الصغير الذي لا يجيد الحساب ولا يقرأ الواقع.

- ماذا تقصد؟

- لا يهم.. اعلم أنك لم تقابلني لتدخل السعادة على قلبي، ماذا تريد؟

- أريد خروجًا آمنًا من غرناطة إلى ميناء بالوس.

سكت ابن كماشة برهة ثم قال:

- لك هذا. ليس خوفًا منك، ولكني ما زلت ارى فيك شبابي.

- لست مثلك ولن أكون.

نظر ابن كماشة إلى السوق المضطرم بالناس، ثم رفع يده إلى أحد أفرع شجر التين، اقتطف ثمرة، التهمها بشراهة، وعاد يحادث أويس: - أرأيت يا أويس، نجبر أحيانًا على فعل ما لا نحب. يُضحي البشر بأثمن ما يمتلكون من أجل فقط أن ينجوا بأرواحهم.

- لم أخن أهلي ولم أغير ديني، أترك غرناطة مجبرًا وسأعود إليها يومًا.

- ليسوا أهلك، فأنت لست عربيًّا ولا بربريًّا، أنت من سكان تلك البلاد.

- ولست قشتاليًّا أيضًا، إن كنت ترى أن تلك البلاد ملك من ولد عليها، فليتركها الجميع وليبق الخيار الأخير لأهلها مسلمين كانوا أو مسيحيين.

- لن يجدي الجدال معك نفعًا، لك ما طلبت ولكن في المقابل لي بيتك وأرضك.

هز أويس رأسه ممتعضًا بالموافقة ثم همَّ بالرحيل دون إلقاء السلام، تحرك خطوات مبتعدًا، ولكنه توقف فجأة بعد أن سمع صوتًا يهمس في أذنه، نظر حوله فلم يجد سوى مارة يسيرون في كل اتجاه، ألقى بنظره إلى حيث كان يجلس ابن كماشة، لكنه كان قد اختفى.

تحرك أويس عائدًا إلى بيته وهو شارد يفكر في تلك الجملة الأخيرة التي سمعتها أذناه، حاول فهم معناها، فك طلاسمها، لكنه فشل، ظل يتساءل هل كان قائلها ذلك القس الملعون أم أنها رسالة ربانية؟

وصل أويس إلى بيته، أراح جسده على فراشه، ألقى نفسه في حضن زوجته، وما زال صدى تلك الجملة يملأ عقله بلا تفسير.

«البستان الجميل لا يخلو من الأفاعي»

***

ميناء بالوس

كان الزحام شديدًا والصراخ مدويًا، بدا الميناء الكبير صغيرًا لاكتظاظه بجنود وبحارة، مسافرين ومودعين، عبيد وخدم، فرسان على خيولهم يجوبون أنحاء الميناء يأمرون بكرابيجهم، يعنفون هذا بضرورة التحرك من هنا، ويصرخون في هذا بأن يسرع بشحن أمتعته إلى السفينة، يديرون مشهد الراحلين البائس، فلا يدري الجنود ماذا يفعلون ولا يعرف المسافرون ما الذي أتى بهم إلى هنا ولا إلى أي هاوية ستلقي بهم تلك السفن.

امتدت إحدى عشرة سفينة تزينت جميعًا باللون الأزرق والأشرعة البيضاء الناصعة، رسم على مقدمة السفن تاج القشتالة بالأحمر، تشابهت جميعًا عدا السفينة الأم، كانت أكبر حجمًا وأكثر أناقة، تحمل في جعبتها الكثير من الخيرات والمتاع. وقف عمال على جسور السفن الخشبية يحملون زاد السفر إلى السراديب، شاركهم أويس بسحب حقائب البضائع والمتاع من أرصفة الميناء.

قسِّمت عملية شحن السفن إلى ثلاث مراحل، الأولى صناديق من التين والزيتون واليوسفي وأقفاص كبيرة حملت طيورًا وأغنامًا وأوعية تحمل خمرًا بها كثير من الجعة، وقليل من النبيذ، أما المرحلة الثانية فحملت أواني وأطباقًا وملاعق وحقائب الملابس وعدة نظافة السفن، أما المرحلة الأخيرة وكانت الأغرب، فحمل الخدم صناديق عملاقة امتلأت بسبائك الذهب ولوحات رسمت بالزيت ومرايا صنعت من النحاس وأكواب مزينة بالفضة، وأطباق نحاسية عملاقة، وأدوات زينة، وملابس نساء وأطفال ورجال، وسلاسل وأساور، وحلي من الفضة.

دار حديث سريع بين أويس وثلاثة آخرين، حملوا معًا إحدى الحقائب العملاقة، ظهروا مجهدين من أعمال يوم طويل، بعد أن برزت العروق في أعناقهم وتقطعت أياديهم من حمل صناديق السفن: - نحمل أكوامًا من ذهب وفضة وصناديق بها أكواب وأوعية وكؤوس ثمينة لسفن، لتقطع طريقها إلى عالم مجهول لا حياة فيه.. فلمن تذهب تلك الأشياء؟

أجاب أحدهم:

- سمعت أنها هدايا لسكان تلك الجزر!

صرخ الثالث:

- ماذا تقول؟ لا يوجد بشر على تلك البلاد، فقط شياطين وأشباح فليحفظنا الرب.

ثم توجه بحديثه إلى اويس:

- ماذا تظن؟ لم نسمع صوتًا لك منذ أن جئت إلى إشبيلية.

رد أويس مقتضبًا:

- ليس شأني ولا أهتم.

عاد الأول وأجاب بصوت متزن يحمل ثقة، تشير إلى أنه وصل أخيرًا للإجابة الصحيحة: - إذن هي قرابين لهم، ليتقوا شرهم.

هز الثلاثة رؤوسهم مستكملين صعودهم إلى السفينة بعد أن رضوا بالتفسير الأخير الذي بدا الأكثر منطقية بين أسئلتهم الفضولية المحيرة، بينما التزم أويس صمته المعتاد دون تعليق.

انتفض الميناء فجأة، العشرات من الجنود شكلوا طريقًا طويلًا بأجسادهم، وصلت عربات كبيرة يقودها فرسان ملكية ويجاورهم قناصة السهام للحراسة. حملت العربات صناديق تلونت بالأسود لتبدو فريدة عن نظيرتها من الصناديق الأخرى. عاد النظام إلى الميناء، انقسمت العربات إلى فريقين وقفوا بالتوازي مع رصيف الميناء. اختار قائد العربات عمالًا بالأخص ليحملوا تلك الصناديق الغامضة للسفن، كان الكل يراقب هذا المشهد متعجبًا، تساءل العمال غير المختارين: يا تُرى ماذا تحمل الصناديق الغامضة في بطونها؟ تناثرت الشائعات كالهشيم، أشار أحدهم أنها تحمل تعاويذ مقدسة للحماية من القوى الخفية في العالم الجديد.

بينما قال آخر:

- سمعت الجنود يتحدثون عن سيوف وبنادق وأطنان من البارود.

عادت التساؤلات من جديد. لم يحتج بحارة مستكشفون بارودًا وسلاحًا؟!

انتهى شحن الصناديق السوداء. ورحل الجنود وعاد الصراخ والزحام من جديد، الكل يبحث عن سفينته. توجه أويس إلى حيث انتظرت جنين وابنته، كان البؤس يصاحب الجميع، بدت جنين ساكنة والطفلة تبكي بلا توقف وصاحبهما أويس بافتراش الأرض إلى جوارهما شاردًا ومجهدًا. حتى السماء كانت على غير عادتها في تلك الأيام ملبدة بالسحب، فقدت بريقها واستبدلت لونها الأزرق بلون داكن شاحب، حجبت السحب المتكتلة نور الشمس من ورائها وانعكست غيمة السماء على البحر، فأغضبت أمواج البحر التي ظلت تزلزل أجساد السفن.

أراح أويس رأسه على إحدى الحقائب، ظل ينظر إلى السماء، شعر أنها

تشاركه بؤسه، تلاقى سكونه مع اصوات صافرات البحارة وقاصفات الرياح وخطوات الجنود ونداءات الأهالي وبكاء طفلته الصغيرة، اندمجوا جميعًا، فشعر بهدوء مفاجئ، أغلق عينيه وغفا.

استيقظ أويس فوجد نفسه ما زال يفترش الأرض، ولكنه يستند بظهره على إحدى النوافير، قام فرأى نافورة الأسود الاثني عشر في بهو قمارش، سمع صوتًا ينادي: - يا أويس

صاح مفزوعًا:

- من؟

- نسيت رفيق عمرك؟

- سهيل؟ أين كنت بحثت عنك في كل مكان.

- كنت دائمًا إلى جوارك.

- أين نحن؟

- في بهو قمارش. الكيان الشاهد على عارنا وخيانتنا لأوطاننا.

- لست خائنًا يا سهيل!

- كلنا خائنون يا عزيزي.

حاول أويس أن يصرخ في سهيل أو يلكمه في وجهه. فكيف له أن يتهمني أو يتهم نفسه بالخيانة بعد كل ما واجهناه، لكنه لم يستطع، فقد النطق والحركة، تجمدت أرجله وثقل لسانه. اختفى سهيل عن نظر أويس وظهر رجل يبكي وبين أقدامه أطنان من الدنانير وتجاوره امرأة تبكي هي الأخرى، وفي إحدى كفيها حملت مصحفًا وإنجيلًا وفي اليد الأخرى مولود صغير مشوه الوجه، ارتدى في عنقه سلسلة يتدلى منها خنجر صغير ملوث بالدماء. ظلت أصوات نحيب وعويل الرجل والمرأة تلاحق أويس دون انقطاع، تزداد علوًّا وتملأ صحن القصر. جثا أويس على ركبتيه وبدأت عيونه تدمع. عاد سهيل مجددًا وأمسك بذراع أويس معنفًا يأمره بالوقوف على قدميه، لكنه لم يستطع. ازدادت أصوات البكاء حتى اجتازت أجنحة القصر وملأت السماء، آلمت الأصوات أذني أويس بشدة، حاول أن يحجب الصوت لكنه لم يفلح، استمر الصراخ وازداد الألم.

استيقظ أويس من نومه يصرخ من الألم. وجد نفسه مستلقيًا على سطح السفينة، ولا صوت في المكان سوى نحيب ابنته الصغيرة يدوي فوق سطح السفينة بلا توقف. نظر أويس حوله في لهفة وكأنه ما زال لم يعِ ما يحدث

حوله، اعتدل في جلسته فشعر بالم في كتفه، وقف واحتضن ابنته رقية بشدة وكأنه يراها للمرة الأولى. سكت لحظة وكأنه يفكر في أمر ما ثم نظر إلى ابنته قائلًا بصوت مرتفع: - لست خائنًا يا سهيل، لن نترك وطننا يا رقية، لن أرحل عن غرناطة.

قفز من مكانه يحمل رقية بين ساعديه، نظر حوله فلم يجد سوى مياه البحر تحاصر السفينة من كل اتجاه، اختفى الميناء، وحل الظلام وتبددت ملامح اليابسة.

حاول أويس أن يصرخ من صدمته، لكنه لم يستطع، نظر إلى ابنته وجدها نائمة في سبات عميق. ظل يراقب مياه البحر في صمت حتى سمع صوتًا قادمًا من بعيد، نظر باحثًا عن صاحبه، فوجد شيخًا كفيفًا بوجه مألوف، جلس القرفصاء في إحدى البقاع، أسند ظهره على أحد جوانب السفينة، يحمل بين يديه، حبلًا وحبارة وقماشة بيضاء.

سأله أويس في غضب:

- وجهك يبدو مألوفًا، من أنت؟

ابتسم الرجل لكنه لم يعقب. بدأ يشدو بالعربية غير مبالٍ، يعيد كلمات الإمام الشافعي: أحـب الصالحيـن ولسـت منهـم

لعلـي أن أنـال بـهـم شفـاعــــــــة

نعيـب زماننـا والعيـب فيـنـــــــــا

ومـا لزماننـا عـيـب سـوانــــــــا

ونهجو ذا الزمـان بغيـر ذنـــــــب

ولـو نطـق الزمـان لنـا هجانــا

***